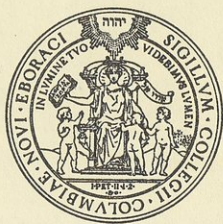
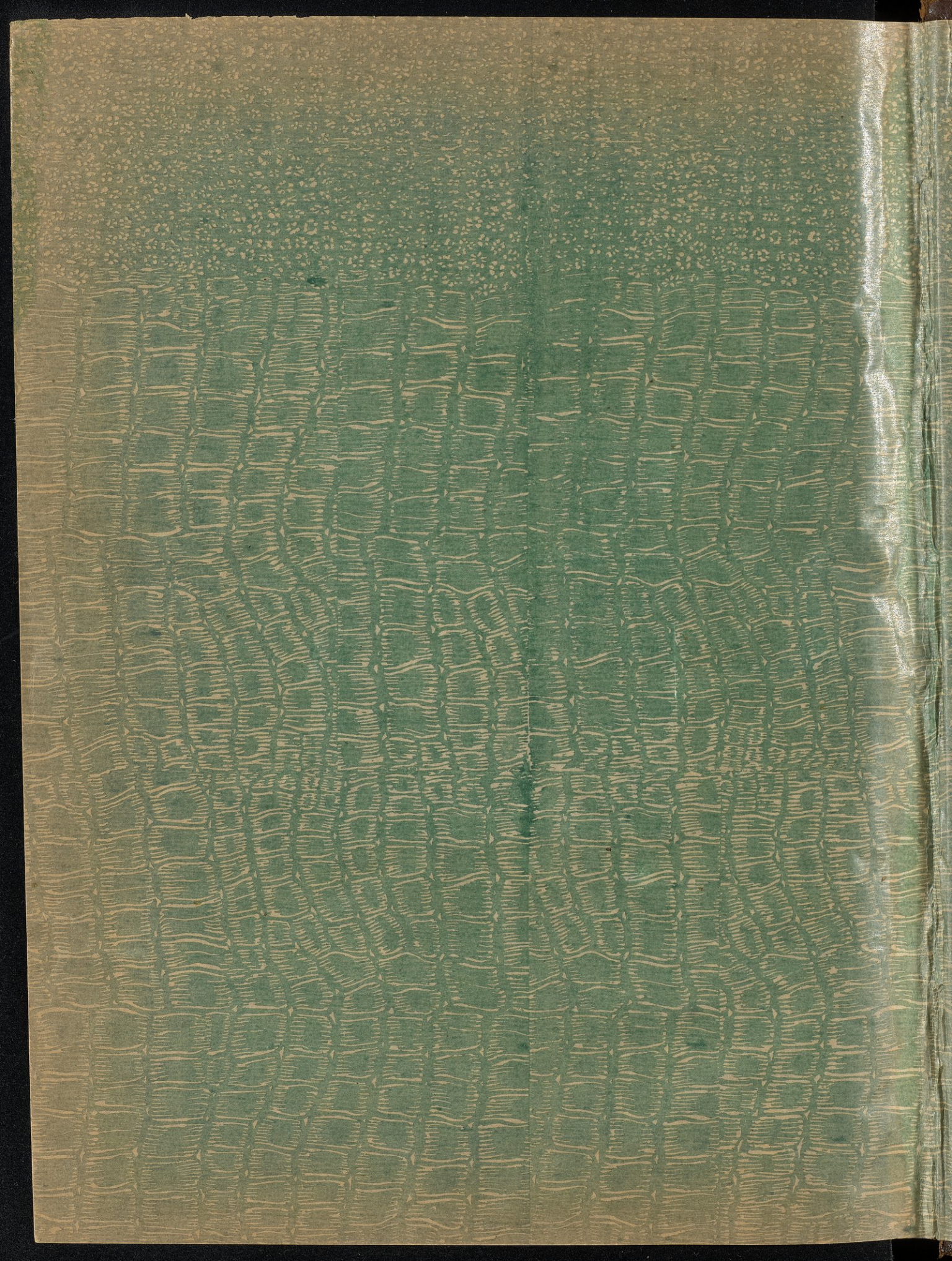
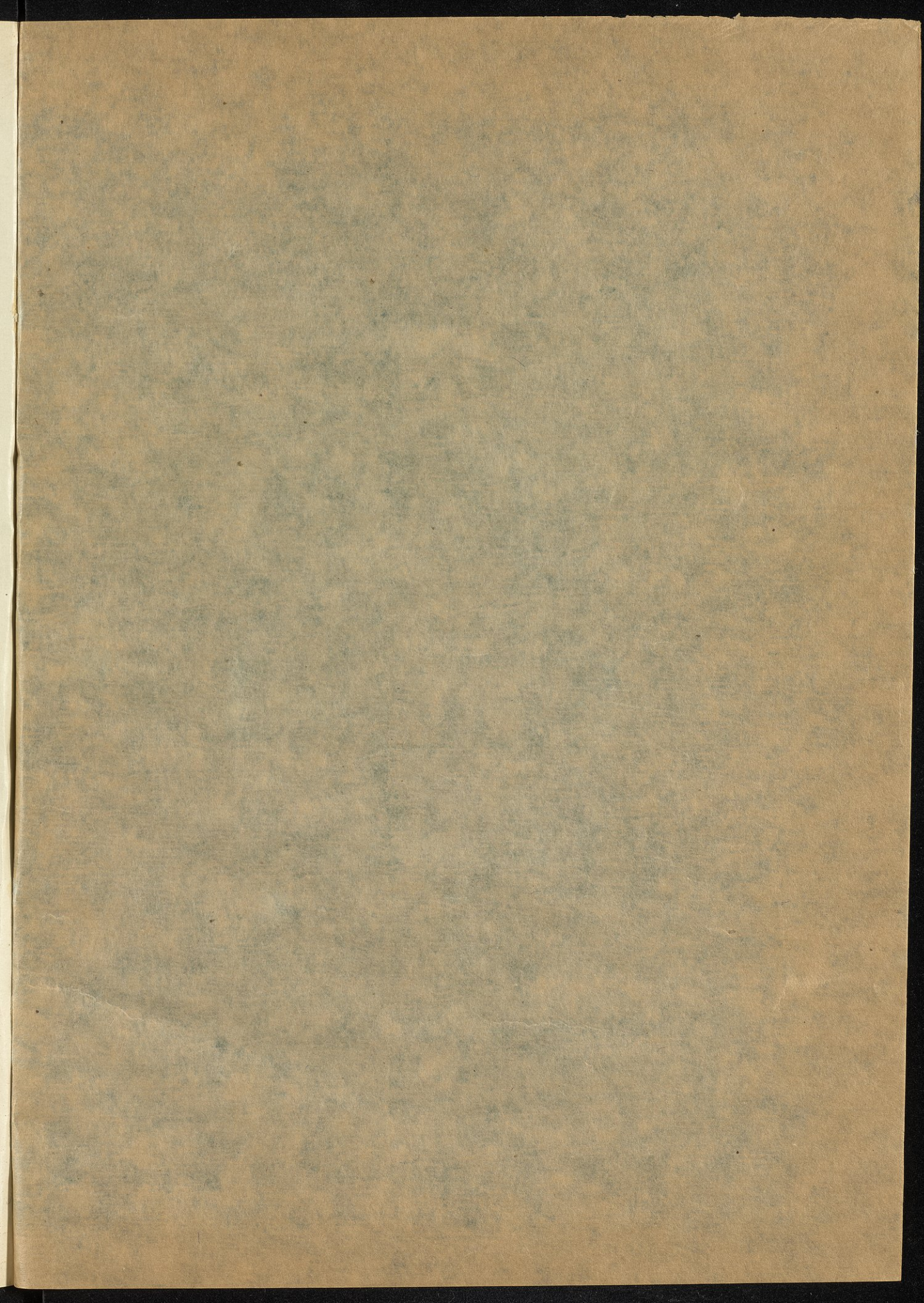


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







٢

كتاب
خِطَابِ الشَّيْخِ

الجزء الثاني

تأليف

محمد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

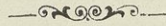
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

956.9
K 9654

V. 2

الدولة النورية

« من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩ »



فننة الاسماعيلية } لم يكف الشام نفرق كلمة امرائه واستصفاء الفرنج لسواحله
ووقعة دمشق } في الربع الاول من القرن السادس ، حتى مني بعدو داخلي
يقاتل اهله في عقردارهم ويستنجد بالفرنج على ارهاقه ، ويغتال امرائه اخيارهم واشرارهم ،
ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديماً ويسمون في هذا الدور بالباطنية
او الاسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد وكثر الدعاة اليه ، وكانت دار الدعوة
في حلب ولكن دمشق كانت موطن التنفيذ والعمل . فان ابناء هذا المذهب ودوا
لو يؤسسون دولة في العراق او الشام ولكنهم أخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف
امراء الشام وتشتمهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، ايقنوا ان الفرصة
قد سحبت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ودعا بدمشق الى مذهبه فتبعه
خلق كثير من العوام وسفهاء الجهال والفلاحين ، وواتقه الوزير ابو يعلى طاهر بن
سعد المزديقاني فأظهر دعوته علناً ، بعد ان كان يخفي ويطوف البلاد والمعامل ولا يعلم
به احد ، فعظمت به وبشيئته المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحملة الشريعة
خوفاً من بطشهم ، ولما استفحل امرهم في حلب ودمشق اضطر حاجب دمشق ظهير الدين
طغتكين ان يسلمهم قلعة بانياس دفعاً لشرهم ليسلطهم على الفرنج ويقطع تسلطهم على
مسلمين ، فعد الناس ذلك من غلطاته .

عظم امر بهرام بالشام وملك عدة حصون بالجبال وقاتل اهل وادي التيم وكان
سكانه من النصرانية والدروز والمجوس وغيرهم واسم أميرهم الضحاك بن جندل ، ثم
قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه اسماعيل ، وأقام الوزير
المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه ابوالوفا ، وعظم ابوالوفا حتى صار الحكم له
بدمشق ، فكاتب الفرنج ليسلم اليهم دمشق ويعرضوه بصور وجعلوا موعدهم يوم
الجمعة ليجمع أصحابه على باب الجامع وعلم صاحب دمشق بالامر فقتل الوزير المزدقاني
وامر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف اسماعيلي (٥٢٣) وقال
سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الاسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم
يتعرضوا لحرّهم ولا لاموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحسروا دمشق فلم يظفروا
بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كالمتهزمين وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة
كثيرة منهم ، وسلم اسماعيل الباطني قلعة بانياس الى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الاثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق عظم عليهم
ذلك وتأسفوا على دمشق اذ لم يتم لهم ملكها فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب
انطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقامصتهم ، ومن وصل اليهم من البحر
للتجارة والزبارة في خلق عظيم نحو الفي فارس ، واما الراجل فلا يحصى . وروى ابن
القلاسي : انهم يزيدون على ستين الفاً فارساً وراجلاً وساروا الى دمشق ليحصرها
ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركين فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس
ووصل الفرنج فنازلوا البلد وارسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاغارة على البلاد
فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً قد ساروا الى حوران لهبته واحضار الميرة كما نهب
صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبي اهله وشردهم ، سير اليهم اميراً من
امرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين فلقوا الفرنج فواقعوهم واقتتلوا وصبر
بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوه فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه اربعون
رجلاً ، واخذوا ما معهم وعادوا الى دمشق لم يمسهم قرح ، فلما علم من عليها من
الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه المتهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل
من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزول صاحبها الباطني عنها وانضمامه اليهم سقطت بأيديهم ايضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . و باحراز هاتين القلعتين قوي امر الفرنج وان عظمت خساءهم المادية وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعد فشل الصليبيين افي فتح دمشق وايقنوا : « ان الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لفناء بطالم واجتياح رجالهم وزهاب اثقالم » .

* * *

دخول آل زنكي الشام } كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي استخلف مسعود الامير قياز بحلب وسار الى الموصل ثم استخلف على حلب قتلغ ابه السلطاني فاساء السيرة ومد يده الى اموال الناس لاسيما التركات فانه اخذها وثقرب اليه الاشرار فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبدالحبار ابن أرتق الذي كان صاحبها اولاً مقيماً بحلب فاجتمع اليه احداثها وملكوه المدينة وقتلغ في القلعة وسمع الفرنج اختلافهم فاجاءهم جوسلين صاحب انطاكية فصافوه بمال فرحل بعد ان خندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد واشرف الناس على الخطر العظيم ، وارسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل عسكرياً مع القائد قراقوش الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب اهل حلب اليه وتقدم عسكري زنكي الى سليمان وقتلغ بالمسير الى زنكي فاجابا فلما وصل الموصل اصلى زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منها الى حلب ، وسار زنكي الى حلب وملك في طريقه منبج وبزاعة وتلقاه اهل حلب ودخل ورتب الامور وملكها وقلعتها (٥٢٢) . قال ابن الاثير : ولولا ان الله تعالى قد من على المسلمين بملك اتابك لبلاد الشام لملكها الفرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وارسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة على حرب الفرنج وبادر الى تجريد وجوه عسكريه ، وكتب الى ولده بهاء الدين سونج بحماة بأمره بالخروج في عسكريه والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من حماة الى منبج عماد الدين اتابك فاحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عماد الدين على سونج وعلى جماعة المقدمين واعنقلهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي خالية من حماتها فملكها ،

ورحل الى حمص وكان صاحبها قيرخان بن قراجه معه ، وطلب منه تسليم حمص
فراسل نوابه وولده فيها فلم يلتفتوا الى مقاله ، فاقام عماد الدين عليها مدة طويلة ببالغ
في محاربة اهلها فلم يتهياً له ما اراد فرحل عنها الى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل ان يطلق ولده ومن اعنقلمهم من
الامراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين الف دينار ، فأجاب تاج الملوك الى تحصيلها ،
ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الامراء الا في سنة ٥٢٥ .
ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سريره على قلعتهما ، وارسلت الى ديبس بن صدقة
صاحب الخلة تستدعيه من العراق للتزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره
اليه ، فسار ديبس الى الشام فضل به الادلاء بنواحي دمشق فزل بناس من كلب
كانوا شرقي الغوطة فحملوه الى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زكي
بأسر ديبس ارسل الى تاج الملوك يطلبه و يبذل له اطلاق ولده سونج ومن معه من
الامراء فأجابه تاج الملوك الى ذلك واطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة ٥٢٤ جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل الى الشام وقصد
حصن الاثارب ، وكان اهله على اتصال بالفرننج يقاسمون الخلبين على جميع اعمال
حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانصر المسلمون وانهمز
الفرننج ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وكثر القتل فيهم ، واخذ المسلمون الاثارب
عنوة وقتلوا واسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

بينما كانت دمشق مغتربة بتاج الملوك بوريه
لشجاعته ، وقد سد مسد ابه في كفايته وكفاحه ،
ناداه الاجل سنة ٥٢٦ عقيب جرح كان به من
دمشق

استنجد بعض الصليبيين
بالمسلمين واستقرار حال
دمشق

الباطنية ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسماعيل ووصى بعلبك واعمالها لولده
شمس الدولة محمد . ولما استقر اسماعيل بن بوري في ملك دمشق واستقر اخوه في
بعلبك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكاتب اسماعيل اخاه في اعادتها
فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر امرهما ،

ثم حصر اخاه في بعلبك فسأله الصلح فأجابته اليه ، واعاد عليه بعلبك واعمالها
واسدقرت امورهما .

ودخلت سنة ٥٢٧ فسار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق على غفلة من
الفرنج الى حصن بانياس وفتح ذلك لما بلغه من عزمهم على تقض المواعدة
المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس واكثرها التعجب من تسهيل الامر في
فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في اقرب مدة . وفتح شمس الملوك حماة وقلعتها
وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حملة اليه . وفي هذه السنة
اجتمعت التركمان وقصدوا طرابلس فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهمز
الفرنج وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فانحصروا في قاعة بعين
حصرهم التركمان بها ، ثم هرب القومص من القلعة وخلي قلعة بعين . ثم جمع الفرنج
جموعهم وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو رافية
وعاد التركمان عنهم .

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت الحرب بينهم
وقتل منهم جماعة والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين امراءهم حدا بصاحب
يافا ان يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت البلاد الى حدود مدينة
ارسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فحاض صاحب القدس وحاصره ،
ولكن المسلمين اهتموا بالقرية فحاصروا خلال ديار الفرنج واخذوا يناوشونهم القتال ،
فحاض صاحب بيت المقدس العاقبة واراد مشاغلة المسلمين فأغار على اطراف حلب ،
فنهض اليه الامير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف اليه من التركمان
وتحاربوا اياماً وتطاردوا الى ان وصلوا الى ارض قنسرين فحمل الفرنج عليهم
فكسروهم كسرة عظيمة ، فاود سوار النهوض اليهم في من بقي من عسكره والاتراك
فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج الى بلادها مهزومة ،
وانتهى الى سوار خبر خيل الرها فنهض وحسان البعلبيكي فأوقعوا بهم وقتلوه عن
آخروهم وأغار سوار على الفرنج في تل باشرفقتل منهم الف فارس وراجل وقتلهم
ايضاً في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب وما انضاف اليه من التركمان وكانت

الحرب بين الفريقين سجالاً . واشترى الاسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرو وصعدوا اليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك الى شقيف تيرون وانتزعه من ابن ضحاك بن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى الى شمس الملوك ان الفرنج اعتزموا على نقض المنقر من الهدنة وقصد اعمال دمشق ، وشرعوا باخرا بامهات الضياع في حوران ، فوقع للتطارد بين الفريقين عدة ايام ثم اغنهم شمس الملوك وقصد بلادهم عكا والناصرية وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبي ورجع سالماً على طريق الشعراء في نفسه وجملته ، فذل الفرنج وطلبوا نقرير الصلح بينهم . وفي هذه السنة اوقع صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

خيانة صاحب دمشق } ومما خدم عماد الدين زنكي ان شمس الملوك
وقتل امه له } اسمعيل صاحب دمشق كان لاول جلوسه على عرش
ابيه اقر الولاية على حاله وسار بسيرته مدة فنفس من خناق البلاد وساعده اختلاف
الصلبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصرفين والاخييار المستورين
بفنون قبيحة في العقوبات ، واضمر السوء لاصحاب ابه وقبض على خواصهم واركان
دولته فنفرت القلوب منه . وكان (٥٢٧) وثب عليه احد مماليك جده طغتكين وهو
في الصيد بناحية سيدنايا وجبة عسال من عمل جبل سنير فاخطاه ، وقرره شمس
الملوك فقال : ما اردت الا راحة المسلمين من شرك وظلمك ثم اقر على جماعة من شدة
الضرب فضرب شمس الملوك اعناقهم من غير تحقيق وقتل اخاه الاكبر سونج صاحب
حماة الذي كان في اسر عماد الدين قتله بالجوع في بيت فعظم ذلك على الناس ونفر
من ظله المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتهن العسكرية والرعية .
واهم ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتأمروا عليه ورأوا السبيل
الى النيل منه خصوصاً لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزاه على قصد
دمشق لمنازلتها ببعثه على سرعة الوصول اليها وبمكثته من الانتقام من كل من يكرهه

من المقدمين والامراء والاعيان باهلا كههم واخذ اموالهم واخراجهم من منازلهم وكتب اليه انه اذا تأخر استدعى الفرنج من بلادهم وسلم اليهم دمشق بما فيها ، واسر ذلك في نفسه ولم يبد له احد من وجوه دولته واهل بطانته ، وشرع في نقل المال والمتاع الى حصن صرخد . فاجتمع اعيان الدولة وانهبوا الخال الى والدته الخاتون صفوة الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار اخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بارض عذراء فلما طال الامر راسل عماد الدين في طلب الصلح على ان يخرج الامير شهاب الدين محمود اليه لوطئ بساط ولد السلطان الواصل معه ويحل عليه ويعيده الى بلده فلم يجب الى ذلك ، ونقررت الحال على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قتل شمس الملوك بانفاق رأي والدته مع ار باب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الافرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طغتكين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم احياناً بالخيالة ، وجمع شمل امراء الشام على قصدهم ابداء ، ومصانعة خلفاء بغداد وخلفاء مصر حتى بنجدوا البلاد المحتلة ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية ، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته امه ورجال دولته . وقد قيل لولا اربع صلح امر الناس «جهل غالب ، وامل كذب ، وحرص دائب ، وهوى جاذب» . وكانت هذه الاعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون الا على مصلحتهم الخاصة واذا تأثرت اقل تأثر عمدوا الى وضع ايديهم في ايدي اعدائهم — من موجبات بقاء الافرنج في تغور الشام وانطاكية والرها وطبرية والناصرية والقدس واستيلائهم على كثير من معاقل البلاد . ولو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الاربع دمشق وحماة وحمص وحلب بالنظر لخلل الدول المستولية عليها ، واضطرارها الى قتال اعدائها من المسلمين واعدائها من الصليبيين بل واعدائها الداخلين امثال شمس الملوك . وللناقد البصير بعد هذا ان يقول ان دولة اتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في اولها فاصبحت ذليلة وعبثاً ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسها .

توحيد الحكم على يد زنكي } بعد ثقل امر آل طغتكين اخذت روح آل
 وقضاؤه على اماره صليبية } زنكي تسري في البلاد ، فنهض الامير مسعود
 سوار تائب زنكي في حلب سنة ٥٣٠ فممن انضم اليه من التركمان ، وجرده جيشه
 على الاعمال الفرنجية فاستولى على اكثرها ، وغزا اللاذقية واعمالها بغتة وعاد من هذه
 الغزاة الى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف اسير بين رجل وامرأة وصبي وصبية
 ومائة الف دابة ، وحاز او اجتساح اكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فاهتلات
 الشام من الاسارى ورجعوا بهم الى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الاحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، واهم ما حدث
 ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وايقانه انه لا سبيل الى دفع
 الصليبيين عن الشام الا اذا كان امر المسلمين يرجع الى ملك واحد ، وانه اذا تقدم
 بجيشه قليلاً بعد اخذه حلب استولى على دمشق ، وانقذ البلاد من فوضى آل اتابك
 طغتكين وضعفهم ، فقد كثر هجوم عماد الدين زنكي على حمص (٥٣٠) فتسلمها
 صاحب دمشق من اولاد قيرخان بن قواجه وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي
 بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها الى صاحب دمشق ، فأرسل هذا الى
 عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت
 فتنة بدمشق بين صاحبها والجند وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها
 معين الدين اتسز فلم يظفر بها ، فرحل عنها الى بعين وحصر قلعتها وهي للفرنج
 وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا الى زنكي ليرحلوه عن بعين
 فلما وصلوا اليه جرى بينهم قتال شديد فانهمزمت الفرنج ، وعاود عماد الدين حصار الحصن
 فطلب الفرنج الامان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين الف دينار فأجابوا الى
 ذلك ، وكان زنكي في مدة مقامه على حصار بعين قد فتح من الفرنج المعرة
 وكفر طاب ومنع اتابك زنكي في هذه الواقعة عن الفرنج كل شيء حتى الاخبار
 فكان من محصن بعين منهم لا يعلم شيئاً من اخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق
 وهيبته على جنوده . وملك عماد الدين (٥٣٢) زنكي حصن المجدل وكان لصاحب
 دمشق ، ودخل مستحفظ بانيسابراهيم بن طرغتم تحت طاعته ، وسار الى حمص

وحصرها ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد الى حمص فسلمت اليه المدينة وقلعتها وكان شرع اهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، واغارت خيل الصليبيين على اطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت اليهم فرقة وافرة من احدث حلب فقاتلتهم وظفرت بهم ، ونهض الامير سوار في عسكر حلب وادرك الصليبيين في الاثارب فواقع بهم وقهرهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرها حتى ملكها بالامان واسر من فيها ثم غدر بهم ونادى مناديه من ننصر فهو آمن ومن ابى فهو مقتول او مسور فننصر منهم نحو اربعمائة انسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها الى شيزر وترك فيها والياً يحفظها مع جماعة واقام عشرة ايام يدخن على مغارات اخفي فيها جماعة فهلكوا باليدخان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد عماد الدين وحاصرها حتى ملكها في المحرم سنة ٥٣٣ وخرب الحصن والبلد عامر . وفي سنة ٥٣٣ سار من مصر عسكر الى وادي موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية ايام وعاد بعد ما توجه الى الشوبك واغار عليها وترك هناك اميرين على الحصار . وتزوج عماد الدين ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسمعيل وذلك طمعاً من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة . وكثيراً ما حدث ان كان في بعض الدول كلمة نافذة للنساء من آل بيت الدولة وغيره صادقة في كف خصائها عنها ووقايتها من السقوط .

وكان ممتلك الروم خرج في السنة الفاتنة واشتغل بقتال الارمن وصاحب انطاكية وغيره من الفرنج وعمر ميناء الاسكندرونة ثم سار الى بزاعة وملكها وغدر باهلها ثم رحل عنها الى حلب فجرى بينه وبين اهلها قتال كثير فعاد عنها الى الاثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرها اربعة وعشرين يوماً فانجدها عماد الدين حتى اضطر ممتلك الروم الى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير من تخلف منهم . وكان زنكي يرسل الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً ، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها . ونهض هذه السنة الامير

بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركان الى ناحية طرابلس فظهور
اليه قومصها والنقيسا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن
الاحمر وغيره . ونهض ابن صلاح والي حماة في رجالة الى حصن الخربة فملكه .
قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب وحماة وحمص والمعرة
وكفرطاب وبعلبك وغيرها ، والحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقليهم ،
فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق الامهادنه على قاعدة احكمت بينهما ،
واصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام . اما الفرنج في
انطاكية فلما ارتاح بهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط ، عادوا هذه السنة
فقبضوا الهدنة المستقرة بين عماد الدين وبينهم وقبضوا في انطاكية خمسمائة رجل من
تجار المسلمين واهل حلب والسفار .

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهتم لاخذ دمشق نعي النساعي (٥٣٣)
شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين اتابك ، قتله غلمانة في فراشه
فتولى بعده اخوه الامير جمال الدين محمد بن تاج الملوك صاحب بعلبك فبعثت والدته
الختان صفوة الملك والدة الامير شهاب الدين الى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو
على الموصل ، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الاثارب وبعلبك .
وقال بعض المؤرخين : ان زنكي آمن قلعة بعلبك وتسلمها ثم غدر باهلها فأمر ببعضهم
فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى جمال الدين صاحب دمشق ان دولة عماد الدين زنكي ستكون لها
العلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل اليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد
الدين ، فسار هذا طالباً للقضاء بالفرنج ان قربوا منه ثم عاد الى الغوطة ونزل بعذراء
فأحرق عدة ضياع من المريج والغوطة الى حرسنا التين ورحل متثاقلاً . وكان
الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق ان يكون في جملة المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس
من يد ابراهيم بن طرغت ، فانفق ان نهض هذا الى ناحية صور للاغارة عليها ،
فصادفه ريمند صاحب انطاكية واصلاً في الفرنج على انجاذ اهل دمشق ، فالتقيسا
فكسره وقتل في الوقعة ومعه نفر يسير من اصحابه ، وعاد من بقي منهم الى بانياس

فحصنوا بها وجمعوا اليها رجال وادي التيم فنهض اليها الامير معين الدين اتسز في
عسكر دمشق وحارب بانياس بالمنجنيقات ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها
وسلمها اليهم .

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة ايضاً الى دمشق وقرب من السور ، وكان
قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الاطراف للغارة ، ونشبت الحرب
بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة . وسار اتابك
الشهيد الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه . وفي الروضتين
ان الشهيد لقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصر الفريقان صبراً لم يسمع
بمثله ، فحاصره حصراً شديداً فواصلوه في طلب الامان ، وكان حصن بارين من
اضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان اهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من
البلاد ونهبوها ونقطعت السبل ، كان اتابك استولى على هذا الحصن سنة ٥٣١
واعطى الامان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه ومن المال خمسين الف دينار يحملونها اليه .
وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين .
وملك الباطنية حصن مصيف وكان واليه مملوكاً لبني منقذ اصحاب شيزر فاحتال عليه
الاسماعيلية ومكروا به حتى سعدوا اليه وقتلوه . واغار الامير لجه التركي (٥٣٦)
النازح عن دمشق الى خدمة عماد الدين اتابك على بلد الفرنج وظفر بجيهم وقتك بهم فقتل
منهم سبعمائة رجل . وظهر (٥٣٧) صاحب انطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب
في حفظ حلب وحال بينه وبينها . وظهر مملك الزوم في الثغور دفعة ثانية وبرز اليه
صاحب انطاكية واصلح امره معه . وفي سنة ٥٣٧ خرجت فرقة وافرة من الفرنج الى
ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون اكثرهم وعادوا الى بعلبك سالمين . وظفر
عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والاجناد خارجين من انطاكية تريد بلاد الفرنج
فاوقعوا بها وقتلوا من كان معها من خيالة الفرنج .

وفي سنة ٥٣٩ فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية
وعشرين يوماً ثم تسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .
وكان لاير بعمل من اعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه الاسلام اليه في الحال ، وهزم

التركان الفرنج الذين انندبوا من انطاكية لانجاد اهل الرها شرهزيمة ، وتمكن السيف في اكثر الراجل و نفرقوا في اعمالهم ومعاقلمهم مفلولين . اي ان عماد الدين اتى ببأسه على امارة الشمال الصليبية بمرتها وهي احدى الامارات الاربع التي اقامها الصليبيون في الشام فلم يبق لهم الا امارة انطاكية وهي تمتد الى قيليقية و امارة طرابلس و امارة القدس .

* * *

الحال بعد نصف قرن } نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي اذا
من نزول الصليبيين } ما خلا فيها سيد قام سيد ، يشتد في دفعهم عن البلاد
او يحافظ على الحالة الحاضرة على الاقل ، وكما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من امراء
المسلمين عدم وفاء الصليبيين للهود زادوا في قتالهم وغزوهم والتخريب في حصونهم
وارضهم ، وهذه الاراضي اي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين
والمسيحيين ، والويل لمن كان صقعمهم في طريق المهاجمين والمدافعين فان مزرعته
وداره الى بوار ، ولا سيما اعمال حلب و طرابلس لقربهما من امارتين افرنجيتين قويتين
واعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فان المتكفل بغزوها صاحب
القدس وهو اقوى ملوك الفرنج في الشام ، واليه يرجع في المهات والقضايا العظيمة ،
وهو يجتد اصحاب الرها وانطاكية و طرابلس يوم الشدائد .

وكان آل نئوخ وآل معن حجازاً في اعالي سواحل لبنان او جبال فينيقية بين
املاك الصليبيين واملاك صاحب دمشق ولهم الاثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان
يتنازعهم المستولي على دمشق والمتولون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين اكثر
بالطبع وهوام مع ابناء دينهم وعلى نحو ذلك كانت الدروز وقد قاتلوا في صفوف
المسلمين فاطهروا من الشجاعة والنجدة ما نقر به العيون . ومن الغريب ان شيعة جبل
عاملة كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين الا قليلا وكانهم اضطروا الى ذلك
اضطراً لان بلادهم في قبضة الصليبيين كما كان هوى الموازنة لمكان الدين مع
الصليبيين ومن الموازنة ادلاء لهؤلاء وعال وتراجمة عندهم ، وكان بطاركة الفرنج
يتنقلون في قرى لبنان الساحلية ولهم السلطان الاكبر على امراء تلك البلاد من الفرنج .

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء على بلادهم متعادلة في الغالب ،
 ينال كل منهما من جاره و يغزوه في عقر داره ، و يعود وقد ملئت ايدي المتحاربين
 بالغنائم والاسرى . والفرنج يأتهم المدد كل سنة على طريق البحر على الاغلب ،
 والبحر لا يحمل الناس كالبر ، والمسلمون تأتيهم التجذات من مصر في الجنوب ومن
 العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مضر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون
 بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيس والمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركيات
 واكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لاحد
 عطاء الامراء في الاسلام ان يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل
 حملة رجل واحد على الفرنج ، فان دمشق وحلب وعليةما في الجنوب والشمال المعول
 في الحرب لانها المعسكران العظيمان في داخلية البلاد كثيراً ما شغلا بانفسها ورد
 دسائس الذين يترصون الدوائر بموكها ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الاغضاء
 عنها ان تقف سداً في وجه الاعداء لما عرف به اربابها من الشدة والمضاء ، اصبحت
 آلة شر على المسلمين لاهم في اكثر الاحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وان
 لم ينشقوا عنهم قومية .

فاقتضت الحال ان يتولى امر الامة بعد نش و آق سنقر ويزان وابن عمار وابن
 منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي امراء من عيار ارق و بسلطة اعظم ، تكون
 اجزاء حكومتهم اكثر تجانساً من ذي قبل ، اذ ليس الزمن زمن ملك وامارة ،
 ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ،
 وعمل بالسلاح والذراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدم الحربية ، وقت كله جد
 في جد ، والا فالعدو يتقدم ، والاسلام يهلك و يعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف
 على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، ويجذب قلوبهم بصالح اعماله
 لا بهرج مقامه ولطف مقاله ، وبهرهم بلا مع اخلاصه ، لا ببريق الذهب على
 كرسيه وتاجه .

صفات عماد الدين زنكي } بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل
وتولي ابنه نور الدين } عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من
مماليكه . وكانت صفاته صفات حربية راقية اشهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه
وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والدب عن حوزة الاسلام ، و يدرك بتأقب نظره
ان الاعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم الا القضاء على احدي اماراتهم في الرها
وما اليها ، ولا يثقي بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون
ثم يستعيدونها وبالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه
بالشام الاسلامية مع ملكه الموصل على رد عوادي الدهر ودفع غوائل العدو .
توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف ادارة الممالك بالعمل ورثها من
ايه آق سنقر وبذء فيها ، فكان مريباً فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع اليه السلطان
محمود لما تولى الموصل ولديه آب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربهما
فلذا قيل له اتابك .

فن صفات عماد الدين انه كان ينهي أصحابه عن شراء الملك ويقول ان الاقطاع تغني
عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك
معها ، ومتى كان لاصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلموه ، على حين كانت
الاقطاعات في عهده للامراء والقواد وارباب الدولة شائعة غير منكورة عند المسلمين
وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد اتابك زنكي ان هذا كمال الدين بن
الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار اميرية وغيره
يقنع منك بخمسة دینار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! ان
كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار . فان شغلاً واحداً
يقوم به كمال الدين خير من مائة الف دينار . وكان كما قال . وهذا اكبر دليل على
حرصه على رجاله ولا تقوم دولة الا بامثال الوزير الشهرزوري .

وكانت له عناية باخبار البلاد ينتشدها ويغرم عليها الاموال الطائلة ، فيقف
على اخبار الملوك ساعة بساعة ، واذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع احد الرعية
لئلا ينتشر الخبر في البلد . وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد فلا يجعلها في

مكان واحد ويقول : اذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث وانا في موضع آخر لم انتفع بها وذهبت ، واذا كانت منفردة لم يحل بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت البلاد قبل ان يملكها خراباً من الظلم ونقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلاّت اهلاً وسكاناً وقبل ان يجيء زنكي الى الشام اشتمت صولة الصليبيين واتسعت مملكتهم من ناحية ماردين وشيخان الى عريش مصر وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واثاوة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعشون بحياة الامة . بلغه ان بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد . وكان يقول : ان لم تحفظ نساء الاجناد والافسدت لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار . ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زنكي ابن آق سنقر جبارة عسوقاً ، بنكباء النكبات عسوقاً ، نمري الخلق ، اسدي الخلق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه اه . وبعض هذه الصفات نزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذي كان ينتظر لانقاذ الشام مما حل به من الويلات ، فانه جمع الصفات الحسنة في ابيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل ابيه عماد الدين بيد المماليك فسمي الشهيد فاخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبغه وسار الى حلب فملكها ، وارسل كبار دولة زنكي الى ولده سيف الدين غازي بن زنكي يعلمونه الحال وهو بشهرزور ، فسار الى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساکر : وسير نور الدين الملك آق ارسلان بن السلطان محمود بن محمد الى الموصل مع جماعة من اكابر دولة ابيه وقال لهم ان وصل اخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له ، وانتم في خدمته وان تأخر فانا اقرر امور الشام واتوجه اليكم . ولما انتهى نعي عماد الدين الى صاحب دمشق خف في الحال الى حصن بعلبك وحصره وكان متوليّه نجم الدين ايوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف ان لا يتمكن اولاد زنكي من انجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق

وسلم القلعة اليه ، واخذ منه اقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من بلاد دمشق . ولم يكد نور الدين يتربع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الاعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسة جديدة بعد تقلق امر الدولة الاتابكية بدمشق ودخول الوهن على فروعها بعد زوال اصلها الثابت ظهور الدين طغتكين . وسار نور الدين على قدم ابية عماد الدين في التقرب من ملوك الاطراف فخطب ابنة معين الدين اتسز الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتحكم في سياستها ليتم له بالصهر والقربان ما كان ابوه يرمي اليه بزواجه بام شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصر فأمن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرب عسكر الصليبيين عن طريق الروم الى بلاده

بعد ان أصيب جوسلين صاحب الرها بتمزيق شمال امارته قبل سنين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين فنهض نور الدين (٥٤١) فيمن انضاف اليه من التركان فاستعاد البلد وقتل كثيراً من ارمنا ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاراها . واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن من حلب فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق ان الفرنج احتشدوا قاصدين بصرى فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول اليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الادبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصرى وصرخد .

الحملة الصليبية الثانية } وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاج
وغزوتها دمشق } بالسيف وحصر تامولة (?) وبسرفوث وكنفرلاما من
اعمال الفرنج . قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين
قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في
اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملمهم وبيننا كان نور الدين يجمع شمله

لضرب الفرنج في مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد ابوه منهم الرها ، وردت الاخبار من قسطنطينية ان حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لوزالسابع والمان بزعامة كونراد الثالث وفي الجيش انكليز وفلامنديون وطيلىان ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والباسنة (البيزيون) وذلك لانجاد الصليبيين في الشام ، اذ ساءت حالهم بعد سقوط الرها وقل فارسيهم وراجلهم لان سيوف التركمان والاكراد والعرب قد حصدهم ، وعلى كثرة ناسلهم مدة نصف قرن اصبحوا في قلة واصبح اعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس في الغرب وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الاكبر على النفوس يعمر فيها كما يشاء . وذكر المؤرخون ان عدد هذا الجيش كان الف عتبان من الرجالة والفرسان وقيل اكثر من ذلك وفي التاريخ العام ان كلاً من الجيش الالماني والجيش الافرنسي كان مؤلفاً من سبعين الف فارس ماعدا الرجالة الذين لا يحصى عددهم وان الروم قدروا مجموعه سبعمائة الف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليسه وصقاية ان يسافر بجرأ لانه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن بلاده ، وكانوا احتلوا سر كوزة ، فلتقي جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وامراء بني سلجوق في آسيا الصغرى ضروب القهر والموت . قال مؤرخونا واستمر القتل فيهم اي في الصليبيين الى ان هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ما افنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) الى ساحل البحر كصور وعكا واجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم اي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة الف انسان ان يقصدوا بيت المقدس . ولما قضوا مفروض مجهم عاد من عاد بعد ذلك الى بلادهم في البحر ، وبقي ملك الالمان اكبر ملوكهم ومن هو دونه وصلى الصليبيون في القدس صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة الف دينار ولم يعينوا لهم وجهة وما كانت وجهتهم الا فتح دمشق فوراً وبغيرها وهربوا المسلمين بين ايديهم . ولم يشعر اهل دمشق الا وملك

الالمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الاخضر . وكان الفرنج في نحو خمسين الفاً من الخيل والرجل وقيل أكثر من ذلك . ويقول ابن منقذ ان ملك الالمان لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من في ارجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا اولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت طلائعهم الى الميدان الاخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الاجناد والأتراك والتركان واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير ، وكانت المكاتب قد نفذت الى ولاية الاطراف بالاستصراخ ، واخذت خيل التركان تتواصل فلما ضاق الامر بالفرنج بعد اربعة ايام وراوا شدة عزيمية المسلمين في قتالهم رحلوا مغلوبين .

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج ان جيش الحملة الصليبية الثانية كان أكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الاولى وليس فيه المتشردون والاشقياء بل كان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملكين عظيمين . وفي التاريخ العام ان هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعاً البتة حتى استغربت حالها ام النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحققت بارتكابها هذه الكارثة ونسبت اخرى هزيمة الحملة لخداع الروم او لخيانة نصارى الشرق وذكروا ان الصليبيين في القدس قد ارتشوا من امير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين الف دينار وان الامير ارسل المال زيوفاً او نحاساً طلي بالذهب .

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الالماني ولويز السابع الفرنسي وبودوين الثالث ملك القدس في بساتين المزة ولحق فاهم بالساحل ، بعد ان قطعوا اشجار الحدائق للتحصن بها وأحرقوا الربوة والقبة المهديية . وقد وصف ابو الحكم الاندلسي جيش الفرنجة على دمشق في محجيمه ومعتركه ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطي نهر داريا امور ما تؤايننا
وأفوام رأوا سفك ال دما في جلق دينا
أنا مائتا الف عديداً او يزيدونا

فبعضهم من اندلس	وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور	ومن صيدا وتبنيينا
اذا ابصرتهم ابصر	ت أقواما مجائينا
ولكن حرقوا في عا	جل الحال البساتينا
وجاز والمرج والتعدي	ل أيضا والمياديننا
تألم وقد ركبوا	قطارها حرازيننا
وبين خيامهم ضموا ال	خنازر والقراييننا
وريات وصلباننا	على مسجد خاتونا

ومن توفيق صاحب دمشق يومئذ وهو مجير الدين أرئق بن محمد بن بوري بن طغتكين ان الحكم وتدير المملكة كان لمعين الدين اتسز مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي بن زنكي وصاحب حلب نور الدين محمود بن زنكي ، فجاء الشقيقان في جيش لب ، وانضم جيشهما بل روجه وروح ايها الى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الاتابكية ، مع خمس الامة ومعرفتها حق المعرفة ان الفرنج اذا أخذوا دمشق سقطت بلاد الشام كلها ، وربما تعدوها الى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الاقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحة لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وان ملكها سيؤول اليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين ان يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقلاه ، بل مرا بالاحقاد الكرام وجعلوا الاقوياء دبر آذانهم وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

ذكروا ان معين الدين اتسز كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ويقول له : ادركنا فسار سيف الدين في عشرين الف فارس فنزل جيرة حمص وبعث الى معين الدين يقول : « قد حضرت بجند هلم ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، فان انا جئت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا احد واخذت الفرنج دمشق وغيرها فان احببت ان أقاتلهم فسلم البلد الى من اتق به ، وانا

احلف لك ان كانت النصره لنا عليهم انني لا ادخل الى دمشق وارجع الى بلادي »
 فطلبه معين الدين وبعث الى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص
 وليس لكم به طاقة ، فان رحلتم والا سلت دمشق اليه وهو يبهدكم وانا اعطيكم بانياس »
 اي ان معين الدين اتسز اثر ان يتخلى عن بانياس مفتاح دمشق الاكبر من جهة
 بلاد الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي اصبعاً في بلده ، لعله ان دولة آل
 زنكي سي في عنفوان امرها غضة الاهداب ودولتهم هرمة ، والفتى يغلب الهرم ويخلفه
 بحكم الطبيعة .

* * *

تقدم نور الدين } ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب
 في فتوحه } طرابلس الى معين الدين والى نور الدين يستنجدهما على
 ولد الفنس صاحب صقلية الذي اخذ منه حصن العريمة ، ويريدهما على اخذه خوفاً
 منه على بلده ، وكتبا الى سيف الدين يطلبان منه المدد فامدهما ، فحصروا الحصن
 وتقبوا السور ، فاذعن الفرنج واستسلموا والقوا بايديهم ، فملك المسلمون الحصن
 واخربوه واخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين الى الموصل وعسكر نور الدين الى حلب واخذ هذا
 يجمع اطرافه وتوجه الى ماداني بلاده من بلاد الفرنج وظفر بعدة وافرة
 منهم وجمع صاحب انطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من
 عسكره حتى اضطر نور الدين ان يهرب بنفسه وعسكره الى حلب . وفي هذه السنة
 (٥٤٣) نادي منادي نور الدين في حلب بابطال الاذان بحمي على خير العمل في اواخر
 اذان الغداة ، واعاد اذان اهل السنة ففرح الناس فابطل بذلك اثراً عظيماً من آثار
 الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم انطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان
 بينه وبينهم مصاف بارض يغرى من العمق فانهمز الفرنج الى حصن حارم وكانوا هنزوا
 المسلمين اولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع
 غنائم كثيرة الى اخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين

الى بصرى وقد اجتمع الفرنج قضيضهم وقضيضهم ، فالنقى بهم هنالك واقتنلوا اشد قتال
فهز مهم نور الدين .

وكثر عيث الفرنج في صور وعكا والثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق
وفساد شروط الهدنة المسنقة بين صاحب دمشق وبينهم وكانوا يعيشون في عمل
دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فاغار عليهم العسكر الشامي والتركي
والعرب الى ان اضطروا الى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنين . واغار صاحب
انطاكية على الاعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكان عسكر نور الدين
يتأهز الستة آلاف فارس سوى الاتباع والسواد ، والفرنج في زهاء اربعمائة فارس
طعانة والف راجل مقاتلة سوى الاتباع فلم ينج منهم الا نفر يسير ثم نزل نور الدين
في العسكر على باب انطاكية وقد حلت من حماها فاستمال اهلهما في التسليم فأملوا ،
ثم نهض الى افامية فسلم الفرنج اليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج
وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا الا وقد ملك حصن افامية وملاؤه
ذخائر وسلاحاً ورجالاً واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في انطاكية ونقرر ان
يكون ما قرب من الاعمال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من انطاكية لهم . وقد
عاون نور الدين في هذه الوقعة الامير بزان في عسكر دمشق وعسكر اخيه سيف الدين
غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج الف وخمسمائة وأسروا مثلهم ، وقتل البرنس وحمل
رأسه الى نور الدين . قال العماد : وكانت هذه الكسرة على ائب وائب حصن من
اعمال عزاز .

وظهرت الفرنج في الاعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين افسادهم في الاعمال
الخورانية بالنهب والسبي فعزم على التآهب لقصدهم فساد وكف ايدي اصحابه عن العيث
والفساد في الضياع ، وامر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم . وكتب الى دمشق
يستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج ان
يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط ، فلما عرف
ذلك رحل ونزل بمرج بيوس وبعض العسكر ببعفور ، ثم رحل بمن منزله بالا عوج
ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق

بانه لم يقصد محاربتهم وانما دعاه الى ذلك كثرة شكاية المسلمين من اهل حوران
والعربان وعجز امراء دمشق عن حفظ اعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربتهم ،
وبذلهم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه
الرسالة « ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ان
قصدتنا ونزلت علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب اكثر التعجب منه والانكار له ،
وعزم على الزحف الى دمشق . وما ندري اذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة
معين الدين اتسز والي دمشق وصاحب امرها نيابة عن اولاد طغتكين ، وكان
اتسز صالحاً عادلاً محسناً كافياً عن الظلم متجنباً للماثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذل
مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين في الانحلال ، وآل
الى الاضمحلال .

الانحلال دولة مجير الدين } آذنت شمس الدولة الاتابكية دولة ابناء طغتكين
وتوفيق نور الدين } بالمغيب لهلاك الرجال الغيورين عليها ، ولان ار بابها
أخذوا ينقون بالفرنج على ابناء نخلتهم حباً بان يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم « وصواب
الرأي بالدول ببق ببقائها ويزهد بدهاها » . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها
المقام الاسنى في الشام بعد ان حالف التوفيق اعلامها اكثر من مرة في سنين قليلة
أخذت النفوس تنطلع اليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي
أجابت نور الدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنة بين الاجناد والمقدمين
والرعاع والفلاحين وذلك لاستيماش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها ولم تزل
الفتنة تائرة الى ان ابعد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .
ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دواها ، وليست المسألة مسألة نقيب
رجل او رجال من اركان الدولة او اصطلام تائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت
روح الغضب حتى الى اقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد وشائجها
ودعوته ترداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع اولى الامر في دمشق سنة ٥٤٠ هـ
الا تقير الصلح بينهم وبينه ، فاقامت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة

والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبدلاً له الطاعة واعداهما الى عملهما وطيب قلوبهما « ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين امام قوة القاهرة ، عملا وهما يسران حسواً في ارتعاء على امل ان يقلبا لنور الدين ظهر الجن و ينتقامنه باعتصامهما بالصليبين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) ان يسوق عسكره الى دمشق فنزل اوائل جنده على ارض عذراء وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب في سفح قاسيون وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في عسكره ونزل على عيون فاسرياً ما بين عذراء ودومة وامتد عسكره الى ضمير ونزلوا في ارض حجيرا وراوية في الجنوب في خلق كثير ، ثم نزل في ارض مشهد القدم وما والاها من الشرق والغرب ، وكان مبلغ منهي الخيم الى المسجد الجديد قبلي البلد اي ان العسكر النوري احاط بدمشق من اطرافها الاربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزل احد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وارسل نور الدين الى مجير الدين يقول : « كنت انفتحت معكم وحلفت لكم ، والان قد صح عندي انكم ظاهرتم الفرنج فان اعطيتموني عساكركم لاجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين اوائل العسكر وبين من ظهر اليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملًا للزحف على البلد اشفاقاً من قتل النفوس والنجاش الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت ايدي المفسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المريج والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت انقاضها الى البلد ، وزاد الاضرار باربابها من الثناء والفلاحين ، وتزايد طمع الرعايا والاباش في التناهي والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في اراضي فذايا وحافلما المصاوبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته ، ثم رحل نور الدين الى ناحية داريا لتواصل الارجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للانجاد ليكون قريباً من معابريهم ، وبعد ذلك رحل الى ناحية الزبداني استجراً لهم ، وجعل من عسكره اربعة آلاف فارس ليكونوا في اعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقائهم ، ونزل الفرنج على

نهر الاعوج ، وخرج مجير الدين وموآيده في خواصها واجتمعوا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، ونقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال اعماله . ثم رحل عسكر الفرنج الى رأس الماء ولم يتيأ خروج العسكر الدمشقي اليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بجوران من العسكر النوري ومن انضاف اليهم من العرب ناحية الفرنج للايقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج الى لجاة حوران للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها ومماشاته للفرنج حرصاً على دمشق من السقوط في يد العسكر النوري الذي عرضة صاحبه فذكر انه بلغ كمال ثلاثين الف مقاتل . وكان العسكر النوري يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وتخرج نور الدين من قتال المسلمين وما زال يميل الى حقن الدماء لعله بان خيانة حكومتها لا تكون ولن تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي اليه من انقاذ البلاد ولطالما قال : « اني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في محاهدة اعدائهم » .

قال في مرآة الزمان : وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولما قرب الفرنج من دار يا أشار على نور الدين خواصه وقالوا : نبق بين الفرنج وبين عسكر دمشق فانرفع الى الزبداني ووصل الفرنج الى دار يا في جمع قليل وخرج مجير الدين والمؤيد اليهم واجتمعوا بملكهم فما صادفوا عندهم من القوة ما كانا يظنان ، فانفقا على نزول الفرنج على بصرى فانها عصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وضايق الفرنج بصرى فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال ، فعاد الى دمشق فتودى في دمشق بالعسكر الاحداث بالخروج الى قتاله فلم يخرج الا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج . ولما تجلت لمجير الدين غلظته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظاً للملكه الا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجير الدين على نور الدين في حاب فبالغ هذا في اكرامه وقرر معه ثغريات اقترحها ، ومن صارع الحق صرعه .

مقاصد نور الدين } كانت همه نور الدين منصرفة في كل أطواره الى توحيد
 وفتح دمشق } القوة الاسلامية في البلاد ، والامارات الاسلامية كما في
 التاريخ العام كانت على عهد الحروب الصليبية ثنائياً وتمزق على الدوام بحسب طوابع
 الحروب والدسائس التي تقوم ثورتها بين الامراء ، وبحسب انتقال الملك ونقسيه ،
 وامتياز الأسر وكان ولا سيما في جبال الشام من الامراء من لم تكن ارضهم تتجاوز
 ربض قلاعهم وضاحيتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجير الدين صاحب
 دمشق على ما بدر منه من الاغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة
 رفق واغضاء ، لان المقصد جمع شمل البلاد ، والسؤدد مع السواد . ومما أفاد في
 هذا العقد وصول الاسطول المصري الى الساحل في سبعين مركباً حربياً مشحوناً
 بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب
 الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك .
 قال ابن ميسر : وظفر الاسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلهم عن
 آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهم بقصد الفرنج في البر
 ليكون هو في البر والاسطول المصري في البحر فعاقبه عن ذلك الشغل باصلاح دمشق
 ولو اتفق مسيره مع الاسطول كان يحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ما انفق
 العادل بن السلار على هذا الاسطول ثلاثمائة الف دينار .

بدا انه لم تقف همته عند هذه الغاية واهتبل الغرة وشغل المختلين في الساحل
 بما نزل عليهم من بلاء الاسطول المصري ، فغزا بلاد الشمال وأسر جوسلين صاحب
 تل باشر وملك قلاعه وهي تل باشر -- وكان الامير حسام المنجي قد فتحها باسم
 نور الدين وهو على ابواب دمشق (٥٤٦) - وعينتاب ودلوك - وكان القتال على
 هذه شديداً جداً - وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن
 البارة وكفر سود وحصن بسرفوت بجبل بني عليم وكفر لانا ومرعش ونهر الجوز وذلك
 في أيام يسيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفائنة (٥٤٥) من تسلم
 قلعة افامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع
 قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقبلوا وانهمزم

المسلمون وقتل منهم وأسرج جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وقال له : هذا سلاحدار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه واعمل الخيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ ثأره . وأحضر جماعة من الامراء التركان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه لانه علم عجزه عنه في القتال فيما قيل فجعل التركان عليه العيون فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه الى نور الدين أسيراً . وقال ابن الاثير : وعظمت على الفرنج المصيبة بأسرج جوسلين ، وخذت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها ، وسهل امرهم على المسلمين بعده وكان جوسلين كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقية غدره ، وحاق به مكره ، ولا يحيق المكر السيء الا باهله . فلما أسرج تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم . وعني نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كلما فتح حصناً نقل اليه من كل محتاج اليه الحصون خوفاً من نكثه تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو . وكان نور الدين وابوه اذا فتحوا قلعة جملاً فيها من المؤنة والدخائر ما يكفيها عشر سنين .

وأغار هذه السنة فريق وافر من التركات على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي ونفر يسير . وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أقبج صفة من الخذلان .

وافتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطربوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطلب الباقون الامان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والاحراق والخراب والامان ومنها دلوك ويحمر ، بعد ان اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج ، وتوجه مجير الدين في العسكر الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصراً السرجال واليه المخالفة وجوره ، وما زال به حتى نزل على حكمه . وأراد

مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ،
اذ لا سبيل الى استنقرار حالة دمشق اذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتدون
الى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاملهم في أيديهم كما فعل سيف الدين
الطنطاش نائب امين الدولة صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين
فاضطر معين الدين اتسز الى قتاله ونازل القلعتين فملكها والولايات مضامير الرجال .
وقوي عزيم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركان من البلدان للغزو ونصرة
أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بامر عسقلان منذ السنة الفائتة
لامداد صاحب مصر فظفر المسلمون بن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الاسطول المصري
الى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من
مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموه
وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجأت الضرورة الى طلب المال فأجيبوا اليه فخرج
أهلها في البر والبحر الى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان وكانت خلفاء مصر
والوزراء يجيزون اليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل دولة مصر ويقتل
العادل بن السلار لما جرد الفرنج على حصر عسقلان والظفر بن فيها والتحكم في
ضرب غرامة عليها . وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من
الفرنج والارمن ونهض عسكره طالباً بانياس . وفي سنة ٥٤٩ وصل نور الدين في
عسكره لامداد اسدالدين شيركوه وكان أرسله الى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية
القصب من المريج . ونزل نور الدين بعيون فاسر يا عند دومة ورحل في الغد ونزل
بارض الضيعة المعروفة ببنت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقه ، وخرج
اليهم من عسكره وأحداثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين
الى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يزحف يوماً بعد يوم حتى افتتح دمشق على أيسر
وجه ، والنفوس فيها متطلعة الى طلعه لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن
سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين ابق (أرنق) بن محمد بن بوري بن
طغتكين بالغبلة انهزم في خواصه الى القلعة فأنفذ اليه وأمنه على نفسه وماله فخرج
الى نور الدين فطيب نفسه ، ونادى نور الدين بالامان وخرجت دمشق من أيدي

أحفاد الاتابك طغتكين آخر الدهر بعد ان دانت لسلطانهم اثنتين وخمسين سنة :
وكل حصن وان طالت إقامته على دعائه لا بد مهسوم

الداعي لنور الدين } والسبب في فتح نور الدين دمشق ما قاله المؤرخون
على فتح دمشق } المعاصرون من تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم
عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصاري ، وأطلقوا قهراً
منهم كل من أراد الخلاص ، فحشي نور الدين ان يملكوا دمشق ، فاستمال أهلها في
الباطن ثم حاصرها وفتحها . قال في الكامل : وسبب حرصه على ملكها ان الفرنج
لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها
لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق .
وعلل هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين ، من الظلم ومصادرة
الدمشقيين وسفك دماهم وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الاعيان ، واستدعى
سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما اخرج أخاه وجيه الدولة منها
فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثرت مكاتباته
الى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق انه
كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج وبلاد الساحل وكانت دمشق في طريقه .
وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى
باب دمشق فيقتلون ويأسرون ويسبون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة
قطيعة يأخذونها منه ، وذل الاسلام وأهله في أيامه ، وساءت سيرته وكثر فساده ،
فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا :
ان شئت حصرناه في القلعة . فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : ان
أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهناً عظيماً على الاسلام .
وكان من أشد الامور على الفرنج ان يأخذ نور الدين دمشق لانه كان أحرق
قلوبهم وحرق بلادهم ، وكان في كل وقعة يغني غنائاً حسناً ، هذا ودمشق ليست له
فيكيف اذا أصبحت في حكمه ، لاجرم أنه يتقوى بها وتقوى كلمته ولذا عدل الي ملاطفة

مجير الدين ومكاتبته وبعث اليه بهدايا فانس به وصار يكتبه ويستشيره ، فكان نور الدين يكتب اليه ان فلاناً يكتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة بقبضهم ، نخلت دمشق من الامراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلي وكان صاحب بعلبك قد رد اليه مجير الدين امر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين الى مجير الدين بقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه لعلم نور الدين انه لا يتم له امر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تغفلني فان الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وستري ، فلم يلتفت اليه وقتله وحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار اليها ونزل عليها وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجدهم وبذل لهم بعلبك وأموراً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل الى الاحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا قال : ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نور الدين يا منصور » وامنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظله وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره .

سئمت النفوس في دمشق من سوء ادارة المتغلبين على أحكامها ، امثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء الخادم وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير املاء بطونهم وجيوبهم من دماء الرعية ، ولو أصبحوا عبيداً أرقاء لاعدائهم . اما مجير الدين آخر ملوك الاتابكية في دمشق فان نور الدين لما غلبه بذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة الى نور الدين وسار الى حمص فلم يعطه اياها نور الدين واعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها الى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها . وهذا من غريب ما يحيكي في باب العدل فان الملوك جرت عادتهم في تلك العصور اذا أخذوا ملكاً ان يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تخرجاً من اهراق الدم الحرام واستحكام الطوائف والثارات والاحقاد في امة أشد ما تكون الى التضافر فاعطى نور الدين حمص اقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمه ثم عوضه عنها ببالس لان حمص على مقربة من بلاد الصليبيين . ومن خان أمته وهو في

عهد عزه أقرب الى خيانتها في دور شقائه وذلك ، اما بالس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي مجير الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهذا قد تم لنور الدين بفتح ابواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الاتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق الا ابطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة الى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد والفساس ، ولذلك كانت معظم وقائع نور الدين مخالفة للتوفيق في السنة التي صفت البلاد له أخذ من الفرنج تل باشرو وفي سنة ٥٥٠ تقرر المواعدة بين الملك العادل نور الدين صاحب دمشق وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب وتقرر المواعدة والمهادنة بينه وبين الفرنج مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار سورية^(١) ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشعراء المجاورة لهم ووقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الاتراك تقصير فانهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على ارجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فأنصر المسلمون ومحقت السيوف عامة رجالة الفرنج ومسلمي جبل عامل المضامين اليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في أيدي المسلمين منذ سنة ٤٧٣ وثب عليها قاضيها ابن خليعة الثنوشي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم وكانت يدهم منذ سنة ٣٥٧ ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان التركان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتنح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم الا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية وبانياس فنهض

(١) اي من ضرب الفرنج في صور .

اليهم نور الدين في عسكره من الاتراك والعرب فكتب له النصر عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد انسان يقال له الضحاك البقاعي كان ولاء اياها صاحب دمشق فامنع بها الضحاك فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها . وفيها كان انقراض الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزوة ومهبت اطرافها وسارت الى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سير عسكر آخر فمضى الى الشريعة فابلى بلاءً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فاقبعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت ، وسير عسكر الى بلاد الشوبك والطفيلة فعاثوا في تلك البلاد ورجعوا بجزء الحنائب يحملون الاسرى ، وسير الاسطول المصري الى عكا فأسر من اهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب ، وندب سرية اردفها باخري فوصلت غاراتهم الى اعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة في الاعمال الشامية واطلقوا ايديهم بالنهب والاحراب في اعمال حوران والاقليم ، وقصدوا داريا ونزلوا عليها ، واحرقوا منازلها وجامعها وبنائها في اضرارها ، فخرج اليهم من العسكرية والاحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . واغار عسكر نور الدين على اعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا احسن غنيمة وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنمهم وقتل اكثرهم واسر الباقون . وتجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهمزم هذه المرة نور الدين لثمترق عسكره في البلاد ، وسار عسكر مصري الى بيت المقدس فعاث وخرب وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج واقبلت خمس شوان من مصر فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والاسرى . وفي سنة ٥٥٤ حشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون .

مرض نور الدين وابلاله
 وثمة فتوحه وهزيمته في
 البقعة

من اعظم البلاء على ممالك الاسلام قديماً مسألة
 وراثة الملك ، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة والنحل
 فيها للقوة ، وصاحبها قد يجرم غيره ممن هم اقرب
 نسباً من السلطان المتوفى . فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضاً شديداً ارجف بموته
 بقلعة حلب فجمع اخوه امير ميران بن زنكي جمعاً وحصر هذه القلعة وكان شيركوه
 يحمص وهو من اكبر امراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها وبها اخوه نجم
 الدين ايوب ، فانكر عليه ايوب ذلك وقال : اهلكننا والمصلحة ان تعود الى حلب
 فان كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وان كان قد مات ، فانا في دمشق
 نفعل ما نريد من ملكها ، فعاد شيركوه الى حلب مجدداً ، وجلس نور الدين في شباك
 يراه الناس ، فلما رأوه حياً تفرقوا عن اخيه امير ميران . ولما ابل نور الدين من
 مرضه واستقامت الاحوال اخذ حران من اخيه لطوع هذا في ملك نور الدين عندما
 كاد الناس يباسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج
 نور الدين محموداً ملتجئاً اليه فأمنه وسير معه عسكرياً يمنع من الفرنج ايضاً فظفر عليهم
 في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان زهر الدولة بن بخت الزنوجي
 والياً على ثغر بيروت ومقيماً بحصن سرحور فولاه نور الدين القنيطرة وجلبايا بالبقاع
 وظهر الاحمر من وادي التيم وبرز صيدا والدامور والمعاصر الفوقانية وشارون
 ومجدل بعنا وكفر عتمته ورتب له علائف لمحاربة الفرنج ، وكان ابوه شرف الدولة
 قاطناً في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج . وآل تنوخ من اكبر
 القبائل التي حضرت من معرة النعمان .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه
 ولاطفوه وكانوا خلقاً عظيماً فرحل ومن اعظم الوقائع التي اُصيب بها نور الدين
 بالنشل اكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقعة بينا كان نازلاً
 تحت حصن الاكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره الا وقد اظلت عليهم صلبان الفرنج
 وقصدها خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده الشجعة فقتل انسان كردي
 فقطعها فنجح نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين الى بحيرة حمص فقتل عليها وتلاحق

به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن الجوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن للمسلمين برك (انقال) ولا طليعة ظناً من نور الدين انهم لا يقاتلون عليه قال : وكان ذلك من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ولم يستظفروا بالبرك والطلائع قال : وكان من عنزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا الا عن قوة وتوقفوا ثم تفرقوا وخاطبوه بالصلح فلم يجيبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحضر وذكر لهم ما تم عليه فأنجدهو بجيوش ضخمة وكانت سنة ٥٥٩ كلها فتوحاً نافعة كان فيها مبدءاً لسعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر الوفياً ومن جملتهم صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وكثير الاسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم قادهم نور الدين . وكان قد استغنى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع وقال آخرون : يفادى بهم . فمال نور الدين الى الفداء فأخذ منهم ستائة الف دينار مجزلاً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك . فكان نور الدين يحلف بالله ان جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

قال المؤرخون : وكان الصليبيون جاؤا لنجدة حارم « في حدم وحديدهم وملوكهم وفرساتهم وقوسهم ورهبانهم » ووضع نور الدين في حارم سطلين كانا يوقدان طول الليل لدلالة أسرى المسلمين الهاربين اليها من ارض الصليبيين . وكان الصليبيون استولوا على حارم سنة ٤٩١ و زادوا في تحصينها وجعلوها ملجأ لهم اذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة ٥٥١ ثم سنة ٥٥٧ ثم فتحها هذه السنة ، وكانت قلعة حصينة في نحو المسلمين . وفي هذه السنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بايلاس بعد عودته من حارم وكان الفرنج والارمن على حارم ثلاثين الفاً ووقع يميند في أسره وباعه نفسه بالصلح عظيم انفقته في الجهاد .

حملة نور الدين } فتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصوره وسطوته
 على مضر } محذورة ، استصفي من ضعاف امراء المسلمين ما اتصل اليهم
 بالارث من البلاد فنزلواه عنها طوعاً او كرهاً ، واقصد في اهراق دماء المسلمين وأسرف
 في ازهاق ارواح الصليبيين واسترجع من الاعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت أماراتهم
 الثلاث الباقية تهتز أعصابها وتخاف بأس حملاته وغزواته ولم يخامرهم شك وهم
 يستنشئون أخباره انهم ابتلوا برجل وحّد قوى الشام وجمع القلوب ووجهها الى وجهة
 معينة : قتال الصليبيين واسترجاع القطر منهم .

ولما تم له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وضرغام من وزرائها (٥٥٩)
 وكانت غدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين يتولاهما من
 يستطيع ان يستجيش له أنصاراً وأعاوناً ولما استلب ضرغام من شاور وزارته وعجز في
 مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث
 أموال مصر بعد رزق جندها ان هو أعاده الى الوزارة . فرأى نور الدين ان
 معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها انها تفتح له سبباً الى التدخل
 في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها الى مملكته او نقاضي ما وعد به
 شاور من الاموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة . فارسال حملة على
 مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للاسلام من عدة أبواب :

اقتضى رأي نور الدين بعد تدبر امر مصر ان يندب لها رجلاً من أعظم رجاله
 دهاءً وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شادي وأصحابه بابن اخيه صلاح الدين
 يوسف وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستخضه نور الدين « والحقه
 بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكان في تلك السنة ثمانية دهشق
 فأخاف اللصوص وقضى على نائره الفتن وفي تلك الفتن قال عرقلة الشاعر :

ذر الاتراك والعربا وكن في حزب من غلبا

بيجاتي أصبحت فتن تجر الويل والحربا

لئن تمت فوا أسفا وان تحرب فوا عجبنا

نهبت الحملة الى مصر وأعاد اسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى الوزارة

العاقد العلوي ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه فشق ذلك على اسد الدين وسار فاستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على اخراج اسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه بلبيس ثلاثة اشهر . وبلغ الفرنج ما اصابه نور الدين في الشام من التوفيق وانه اخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدأ دخول الجند النوري الى مصر فقد لقي الالاقى وليكنه تعرف قائدهم امراضها وخلصها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فكان انجاد نور الدين شاوراً واستنجد هذا بالفرنج درساً نافعاً لدولة نور الدين ادركت به كل الادراك انه لا سبيل الى اتقاذ الشام الا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفاً شديداً ولا يطيقون مقاتلتهم كما قال مجير الدين . كان هذا ايام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على التناحر والتغاور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعمت العابثون بعزتها ومنعتها . والا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقياً ، لان الروح الخليث سرت لصغار الامراء من المسلمين في الاعتصام باعدائهم اذا ضاقت بهم حلهم وانا هم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جراثيم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية ولكن مصر اذا استهانت بمقدساتها ايضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينا كان نور الدين يحرِّق الأرم على شاور وفي نفسه منه حزازات لانه لم يف له بما وعده واستعان على قتال جيشه بالصليبيين عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاقد معه امر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور فماتم نور الدين ان جهز اسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) الى مصر بعسكر جيد عدتهم الفافارس وامر ايضاً ان يخرج معه ابن اخيه صلاح الدين يوسف الى مصر فامتنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفي مالقينا من الشدائد . فقال : لا بد من خروجك فما امكنه مخالفة نور الدين . وكان في ذهاب صلاح الدين الى مصر سعادهته وسعادة امته اذ فتح مصر واصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سينلم به في

الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مسير صلاح الدين الى مصر وفيه ذهب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعاده وملكه : ورب زارع لنفسه حاصد سواه . فاستولى اسد الدين على الجيزة وارسل ششاور الى الفرنج واستنجدهم . فساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد فهزمهم واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها .

وجعل اسد الدين ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب في الاسكندرية وعاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر ، فسار شيركوه اليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام ، فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه الى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصر بين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيرا حسنا لان الفرنج لم يخلصوا مصر ، ومن الخطا الفاحش استنجد شاور وزبها بهم واستعانته بهم على اخراج قائد نور الدين اسد الدين شيركوه منها فارسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بلبليس وحصروا القاهرة ، فاحرق شاور مصر لثلاثا يملكها الفرنج وامر اهلها بالانتقال الى القاهرة وبقية النار تحرقها اربعة وخمسين يوما ، وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد واجرى عليه الاقامات وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال وافراد ثلث مال مصر ، وعزم شاور ان يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور امير الجيوش وتولى شيركوه الامر شهرين وخمسة ايام ثم هلك فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر على انه نائب نور الدين ،

وتمكن منها وضعف امر العاضد فكان لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة الا باذن صلاح الدين ، واصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين .

بعض غزوات نور الدين) ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الاشتان في الفرنج وارهاق الحد لقتالهم ، وقويت عزيمته بعد ان اخذ حرام وانياس (٥٥٩) على التقدم في فنوحه وكان كلما طالت ايامه ايقن ان القوة القليلة المنظمة افعل من القوة الكبيرة المبعثرة . ولم ينغمه في عمله سوى مقاومة احد اخوته امير ميران له حتى اضطره الى حربه ففضى اخوه امير ميران الى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين كأن السعادة التي اقبلت على هذا الناتج من كل وجه ابث الطبيعة الا ان تكدرها عليه بمشاكسة احد اخوته له وكان بالامس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة اخيه فخاربه واليوم يحمل اخاه على دفع عاقبته ثم يتجاوز عما بدر من سيئاته .

وفي سنة ٥٦١ فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة اكاف في البرية وفتح العريمة وصافيتا وحاصر حلبا وخربها وحاصر عرقة وعما عليه غازي بن حسائب صاحب منبج فاعطاه الرقة . واجتمع باخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بجحة للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فغربوا هونين .

وفي سنة ٥٦٥ سارت الفرنج الى دمياط وحاصروها خمسين يوماً وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وغزاهم على ذلك اموالاً عظيمة وخرج نور الدين فاغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائدين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها سار نور الدين الى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى البلقاء وقال بعضهم : ان الفرنج اغاروا على ناحية رواد في حوران وهم في جمع غلبت كثرتهم الخبر والعيان ، ونزلوا في قرية شمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا وبيننا هو في البلقاء حدثت زلزلة دائلة في الشام فغربت معظم اسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفاً عليها من العدو وكانت قلاعهم الحجارة ليعربن وحصن الاكراد وصافيتا وعريمة وعرقة في بحر

من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الاكراد ، فانه لم يبق له سور واغارت سرية
لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهزم الفرنج وعمهم القتل والامر لم يفلت منهم الا
من لا يعتمد به وقتل فحين قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان
من الشجاعة بجعل كبير وشجى في حلوق المسلمين .

وغزا صلاح الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد الى مصر ثم حصر ايلة
في العقبة المصرية بجزراً وبراً وفتحها . وغزا عرقة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة
عظيمة . واستولى على صافيتسا وعريمة عنوة ، وقارب طرابلس وهو يتهب ويخرب
ويحرق ويقتل وفعل جيشه في جهة انطاكية مثل ذلك ، فواجهه الفرنج وبدلوا له
جميع ما اخذوه من المراكيب اللذين خرجا هذه السنة من مصر الى اللاذقية واخذهما
الفرنج وهما مملوءان من الامتعة والتجارة ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا
وغدروا فلما خربت بلادهم اذعنوا .

قيام بني شهاب من حوران } وفي سنة ٥٦٨ كان قيام آل شهاب من حوران
وحر بهم الصليبيين } الى وادي التيم قال الشهابي : وكان الكبير منهم
في ذلك الوقت الامير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الامير منقذ الامراء من بيت
شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم انتم تفهمون النغور الكائن بين السلطان نور الدين
سلطان الديار الشامية والخلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد
ان السلطان نور الدين يتم ما ينوي عليه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا
عند السلطان صلاح الدين من الحبة والمنزلة الرفيعة وانا ارى انه يلزم علينا القيام
من حوران قبل ظهور حال من تلك الاحوال ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الامير
منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا احد يخالف . فقالك ، ثم عزموا على القيام
وشدوا ظعونهم وحملوا احمالهم ، ورحلوا من حوران بعشائرهم وقصدوا غربي الديار
الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي .

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران ارسل يسألهم عن
السبب الداعي لقيامهم ، وارسل لهم الخلع والعطايا النفيسة ، وطلب منهم ان يرجعوا

الى اوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب بلادهم ، وان يسمح لهم بالذهاب الى مكان آخر فسمح لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكان نزولهم في ببدأ الظهير الاحمر من الكنيسة الى الجديدة وكانوا في خمسة عشر الفاً والبلاد التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين الفاً بين فارس وراجل وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فامده بخمسة عشر الفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ونقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصيها مائة عشرة ايام واخذوا قنطورا وجماعته وكانوا ثلاثمائة وقتلوه وارسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور واعطى البلاد لآل شهاب ملكاً لهم . ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج في حاصيها ارسل الامير منقذ يطلب منه الصلح وكان في ذلك الوقت الامير يونس المعني بن الامير معن حاكماً على جبل الشوف فجاء وهذا الامير منقذاً في وادي التيم .

وهكذا ادى بنو شهاب خدمة عظيمة للبلاد قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين ، والغالب ان صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسهلوا لنور الدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر فلما رأوا انهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لانهم وقفوا في غربها وقفه محمودة وردوا عنها عادية الصليبين .

الفتور بين نور الدين } قلنا حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه انه لما
 وصلاح الدين } قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد
 مهالك عمه اسد الدين شيركوه واصبح الأمر الناهي ارسل نور الدين اليه بأمره بقطع
 الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية ، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ،
 فلم يلفت نور الدين الى ذلك واصر عليه فامر صلاح الدين الخطباء ان يخطبوا
 للمستضيء العباسي فامثلوا ، وكان العاضد قد اشتم مرضه فلم يعلم احد من اهله بقطع
 خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه

وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكته واصبح ملك مصر حقاً وصدقاً :
 قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد اتى آخذ الدنيا ومعطيها

وضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطال احدهم لدعوى الخلافة بعد العاضد
 واستدعى من الشام اباہ واخوته وكان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توأب بل يخاطب
 امرأه بمصر ومن جملتهم صلاح الدين ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطبة
 له فيها بعد نور الدين يدعى لهذا بعد الخليفة العباسي وكما مضى شبر يزداد نور الدين
 استيحاشاً من صلاح الدين مع ان صلاح الدين سد ابواب الشك على نور الدين ، فقام
 بجميع رسوم التعظيم له وكان معه كقائد مع سلطانه ، وكان صلاح الدين نازل
 الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً ان يأخذه نور الدين واعتذر بانه ربما نشبت
 المنة في نعبه عن مصر ودعا دعاة العبيدين الى ارجاع دولتهم .

ولما جاء نور الدين الكرك من قابل وحصرها (٥٦٨) كان قد واعد نور الدين
 ان يجتمعاً على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب
 من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض ابه وانه يجشى
 ان يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وفي الواقع ان ابوباً والد
 صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة . ولكن كان في نفس كل من نور الدين
 وصلاح الدين شيء على صاحبه فلم يخرج صلاح الدين بعساكره الى الشام لحصار
 الكرك والشوبك ونهب اعمالها الا لما ايقن ان نور الدين ابتعد في سمت الشمال وقصد
 بلاد قليج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسني حتى لا يجتمع به . والسبب الذي
 دعا صلاح الدين الى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربات ونهب ديارهم
 هناك ان جماعة من العرب النازلين بارض الكرك كانوا ينقلون الاخبار الى الفرنج
 واذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين في بلادهم . وكان الكرك والشوبك
 طريق الديار المصرية وكان اهلها يغيرون على القوافل منها فقصده تسهيل الطريق
 لتتصل البلاد بعضها ببعض .

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين وكان
 اسئد منهم اليه فانفق رأيتهم على تحصيل مملكة غير مصر فاذا قصد نور الدين في

مصر قاتلوه ، فان هزمهم التجاروا الى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره بعسكر الى اليمن ففتحها واستقرت بلاد اليمن في ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على ان صلاح الدين لم يستطع ارسال العسكر من مصر لاول مرة الا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الاسباب التي أفلقت نور الدين على ملكه وحاذر ان تكون عاقبة هذا الادب والخضوع اخذ ملكه منه او انشاء صلاح الدين لمملكة جديدة اعظم واغنى من مملكة نور الدين القديمة .

* * *

وفاة نور الدين) بينا صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا بتجهيز للدخول وصفاته الطيبة) الى مصر لاختيها اتى نور الدين اليقين ومملكته الحقيقية لم نعد الشام والجزيرة وخطب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يتخوف احدهما من صاحبه ، وبكت الامة الملك العادل نور الدين ابا القاسم محمود ابن عماد الدين اتابك لما ظهر من عدله وحسن سيرته بحيث قل في الملوك الغابرين امثاله . قال ابن الاثير : قد طالعت تواريج الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم ار بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا اكثر تحرياً للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد بتجهيز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، فلو كان في امة لا فتخرت به فكيف بيت واحد ، اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده واموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمية ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . احضر الفقهاء واستفناهم في اخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما افتنوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة . واسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما بقي سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب اكثر من الف منشور بذلك . واطلق المظالم بجلب ودمشق وحمص وغيرها واسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متطاول اليها فكان مبلغ ما سماح به

في حلب وما إليها فقط في السنة ١٥٦ الف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي الف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، واقطع امراء العرب لثلاثا يتعرضوا للحاج وجدد قني السبل ووقف الكتب الكثيرة ، واجرى على العلماء والقراء . ولقد رأى اصحابه على ما روى ابن الاثير كثرة خرجه فقالت له احدهم ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان اصلح فغضب من ذلك وقال : والله اني لا ارجو النصر الا باولئك فانما انتم ترزقون وتنعصرون بضعتناكم . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم على فراشي بسهام لا تحطى واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رأى بسهام قد تصيب وقد تحطى . وهو لاء القوم لم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان اعطيه غيرهم . واجزم الناس من اذا وضع له الامر صدع به . وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات واخذ من احد ملوك الفرنج ثلاثمائة الف دينار وشرط عليه ان لا يغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة ايام وأخذ منه رهائن على ذلك وبني بالمال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل اليه من هدايا وغيرها الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، وامر باحصاء مساجد دمشق فأحصيت فكانت مائة مسجد فأوقف الاوقاف على جميعها وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار سورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه . حضر جماعة من التجار عنده وشكوا ان القرايطيس كان ستون منها بدينار وتزيد ونقص فيخسرون ، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما يعدون الى القرايطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدينانير الملكية وتبطل القرايطيس بالكلية ، فسكت ساعة وقال : اذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقرايطيس فكأنني ضربت بيوت الرعية . فان كل

واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون الف قرطاس ، اي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته .

قالوا والحق ما قالوا ان نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات وعاقب من يأتيتها ، فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية هممة احدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل وقف مع اوامر الشرع ونواهيها ، وألزم بذلك اتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكان يباشر الاشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكل على قواده ، ولا يقطع امراً قبل ان يستأذن الخليفة ببغداد . وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلّى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما اخذه اغضى عنه ، وكان يكره اهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد ومعرفة بالرماية تضرب بها الامثال ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع ملجج بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : انما حملني على استماتته ان بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا اليها طريق ، وهو يخرج منها اذا اراد فينال من الاسلام ، فاذا طلب النجى فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التآلف حتى اجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وكان ممتلك الروم خرج من قسطنطينية وتوجه الى الشام ظامعاً في تسلّم انطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة الى ابن وصل اخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فايس الزومي من بلوغ ما كانت يرجو وتمنى منه الصلح فاستقر رجوعه الى بلاده .

وقال مترجموه انه كان يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج واكثر ما ملكه من بلادهم به ، اما اعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم فسيرته فيها سيرة عمرية . واما تشاؤه المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات فما لم يسبق اليه ، فأقام الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج

جعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي اي الزاجل فاذا رأوا من العدو احداً
ارسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم ، وبني مكاتب للانعام واجرى
عليها وعليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم واهله
مقر العلم وعباءة الفقه .

هذا حال ملك القرون الوسطى وحسن بلائه في خدمة بلاده وهو يقاوم الاعداء
في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيفاً وخمسين حصناً واقام المعالم وهو مشغول بحفظ
الايوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم ييامره الشك بان العاقبة المحمودة تكون
له ولائته ، وانه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه . هذا وملكه في الشام لم يتجاوز
مدته السعيدة اربعاً وعشرين سنة . لا جرم ان ظهور بني زكي نعمة أنعمت بها
الاقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الاهواء والآراء ،
ومن خيانة الملوك والامراء ، والاعتضاد بالمخاربين من الاعداء الى تماسك وتعاقد ،
ومن ظلمة الجهل والغرور الى ضياء العلم والنور ، ومن سلب اموال الامة الى امتاعها
بالعدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فرووعها في ايسر زمن واحرج العصور ،
فخطب الناس ودتها في كل مكان وودوا لو كان لها الحكم عليهم ، ورجا اولياؤها ان
تطول ايامها لانها لا تسوق الناس الا الى طرق فلاحهم وسعادتهم .

الدولة الصلاحية

من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩



اولية صلاح الدين) توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان
والملك الصالح) الاكبر على القلوب تحبه رعيته ويخافه اعداؤه ويحترمونه
وبعدله وسيرته وجميل سياسته وادارته ، وطدا اساس مملكه ووحدا كلمة الشام ومصر
والجزيرة وانشأ عظمة في دولته كانوا ساعده الايمن وعضده الاقوى ففتحوا الفتوح
باسمه وبمن نقبته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن اعظمهم بل اعظمهم صلاح
الدين يوسف بن نجم الدين ايوب . واصل صلاح الدين من دوين بلدة سيف آخر
عمل اذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج وهم اكراد زوادية وهي قبيلة كبيرة تعد
من اشراف الاكراد وانتقل اهله من هناك الى العراق ثم عين نجم الدين ايوب
والد صلاح الدين محافظاً لقلعة تكريت وفيها ولد ابنه هذا وكان نجم الدين ايوب بن
شادي حسن الخلق عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل وانشأ شجاعاً باسلاً وخدم
السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فرأى منه امانةً وعقلاً وسداداً وشهامة ،
فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها احسن قيام ، حتى عمرت ارضها وأمنت سبلها ،
ثم اضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً في انفس الناس بالدين والخير وحسن
السياسة واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده ونوابه على بلاده . وهذا الرجل
العظيم هو الذي اولد رجلاً اعظم وهو صلاح الدين .

وكانن ائمن العصب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفاه اثبتوا بالعمل المحسوس مقدرتهم السياسية والحربية وبرزوا من آثار نجاتهم وجلادتهم ما تطأطي امامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياء ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع ان لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقة قواد الامم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الامر مثل صلاح الدين لانه انبغ رجاله واكبرهم مقاماً وشأناً واقربهم الى قلوب الامة ، وهو ملك مصر حقيقة لا صورة ، ومن ملك مصر كان حراً بان يملك الشام خصوصاً والشام يحبه لما بدا من غنائه ومضائه في نصره الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً وبموجب قانون الوراثة في الملوك في تلك الاعصر يرث الابن ملك ابيه كما يرث قصره ومزرعته معها كانت سنة ، ويتولى رجال الدولة امره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غدوا بنعمة ابيه وآله ، بيد ان الحالة السياسية في الشام ومصر وما اليهما من الممالك كانت بحيث يقتضي الشدوذ عن هذه القاعدة ولو الى حين ، فيوسد الملك الى من استجمعت اشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج البلاد من مأزقها الحرج مع الصليبيين ، وهذا لا يتيسر ان ينهض به ولد يافع بلغ من العمر احدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح اسماعيل . فانظر كيف تصرفت الاقدار بما فيه خير البلاد ، ولم تترك مصالحها الخافزة للاصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة ٥٦٩ وبالحال ملك ابنه الصالح اسماعيل وحلف له العسكر بدمشق واطاعه صلاح الدين وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودير دولته شمس الدين بن المقدم من اعظم امراء ابيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على البلاد الجزرية وهي لنور الدين وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لابيه من قبل . بيد انه من المتعذر ادارة البلاد في ذلك العصر اذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى عامة شروط الحكم ، فيصدر عن رأي واحد يحضه اولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهتم للملكه اهتمامه بابنه وابنته وهل يتيسر ذلك اذا تشعبت الآراء . وكان

صاحب الملك الرسمي قاصراً ، و اوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه الى الاستئثار بالسلطة ، ومتى كان الوكيل كالأصيل ، والمنفل كالمكلف :

ممالك لم يدبرها مديرها الا برأي خفي او بعقل صبي

* * *

اختلاف الآراء ومبدأ استيلاء صلاح الدين على الشام } ولما بدأت نواجد الاختلاف تبدو بين الامراء
 - في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر ان هذا الفراغ الذي حدث بموت نور الدين يستلزم ان يملاءه رجل تجمع القلوب على حبه ، وان يصل السلسلة المقطوعة بهلكه والا انفرط العقد كله ، وتصبح البلاد فوضى ونفتح أبوابها على مصاريحها لدخول الدخلاء يستصفون المملكة كلها ، وتصبح بالشقاق الداخلي أشبع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الاتابكية أخلاف الأتابك ظهير الدين .

وانفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس فخرج اليهم شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وقال لهم : انتم تعلمون ان صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين ، والآب فقد زال ذلك الخوف واذا طلبناه الى بلادكم لا يمنع ، فعملوا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصلوا بقطيعة (بخراج) استعملوها واستطلقوا عدة من اسارهم وتمت المصالحة . وفي تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكاتبة في قلوب رجال الدولة وان الصليبيين عرفوا انهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره وشجاعته . فبلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب الى جماعة الاعيان كتاباً يقرعهم فيه ويلومهم ، ويقول : انه تجيز وخرج وسار اربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام فعاد الى مقره . وقد « استصغر امر اهل الشام وعلم ضعفهم » وقال : « ان استمرت ولاية هؤلاء نفرقت السكة المجتمعة ، رضاقت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام » . قال ابن شداد : لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكوف ولده طفلاً لا ينهض باعباء الملك ، ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أجل بلاد الاسلام .

وقد كان صلاح الدين ينوي ان يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين وكتب : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والحجبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع العداة » .
ولكن الامراء في الشام اخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد ان يستأثر بالامر
دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم ان شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين واكبر
امرائه أرسل سعد الدين كشتكين الى دمشق يستدعي الى حلب الملك الصالح بن
نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كشتكين قبض على شمس الدين
ابن الداية واخوته وقبض الرئيس بن الخشاب واخوته ، واستبد سعد الدين
بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق ، وكتبوا
صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريداً
في سبعمائة فارس فوصل الى بصرى وكان صاحبها يستخفنه على القدوم ، ولما بلغ دمشق
خرج كل من كان بها من العسكر والنقوه وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من
جبهة الملك الصالح خادم اسمه ريجان فراسله صلاح الدين واستأله فسلم القلعة اليه ،
فصعد اليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال . ثم كتب الى الملك الصالح بن
نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : انما جئت من
مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع من حولك فنفسد
احوالك وتختل امورك ، وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج . فعرض الملك
الصالح ذلك على امراء دولته فأشاروا عليه بان يكتبه بالغلظة فكتب اليه منكراً
عليه ، وينسبه الى كفر النعمة وجمد احسان والده ووعده وهدده فساء ذلك صلاح
الدين واغضى على القذى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين امر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن
ايوب وسار الى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرثا في
إقطاع نجر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يكن نجر الدين المقام
بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها
كان فيها ولاة لنور الدين وليس لنجر الدين معهم في القلاع حكم الابارين ، فملك

صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ودكوها ورحل الى حماة فاستعانت صاحبها بالاسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث ان ملك مدينة حماة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك احد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح اسماعيل وانما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك وسار الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما علم اخوه بذلك سلم قلعة حماة الى صلاح الدين ، ثم سار هذا الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح اسماعيل ، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوه دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص فعاد اليهم فرجعوا أدرأجهم ، ووصل صلاح الدين الى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار الى بعلبك فملكها .

* * *

تملك صلاح الدين ومحاولة } ولما استنقر ملك صلاح الدين هذه البلاد ارسل
اغتياله وسر نجاحه } الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي
صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجز جيشه ، وطلب اخاه الاكبر عماد الدين زكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة ايضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، ووصل عسكر الموصل وانضم اليه عسكر حلب وساروا الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبدل حمص وحماة وان نقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك الصالح ، فلم يجيبوا الى ذلك وساروا الى قنالة ، واقتنلوا عند قرون حماة فانهمز عسكر الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين

كما صالح بني رزيك على ان يكون له الى حد المعرة ولهم ما يلي ذلك فنقض الحلبيون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون الفا بين فارس وراجل وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحت سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبته) معلق في عمود الخيمة ، فلما رأته وقع في خاطري انه المنصور لانني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنابس الحرير والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع المحرمات ، فأديت اليه الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الاذان وفي كل خيمة امام . قال سبط ابن الجوزي : ان صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشا بالياحين المغنون جلوس في انظاره والخمور تراق ومطابجه بقدورها وفيه اقفاص الطيور فيها انواع من القاري والبلابل والمزازات فارسل صلاح الدين بما كان في السرداق من المغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول : قل له اشغالك بهذا اليق من مباشرتك الحروب ولا تعد الى مثلها . وكانت هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة ٥٧١ هـ فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان استنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردن وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها وتسلمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة ولما جلس يستعرض اموال صاحبها وذخائره كان في جملة امواله ثلاثمائة الف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة ما يناهز الي الف دينار ، فخان من السلطان النفاة فرأى على الاكياس والآنية مكتوبا « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يجبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الاموال له فقال السلطان : انا يوسف وقد اخذت ما خبي فتعجب من ذلك (رواه ابن ابي طي) .

ثم سار السلطان الى عزاز ونازلها وتسلمها فوثب اسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضره بسكين في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي

وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيليين على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله ايضاً وجاء السلطان الى خيمته مدعوراً وعرض جنده وابعده من انكره منهم . وهكذا فان صاحب حلب او نائبه او جماعة دولته ، وصاحب حماة او نائبه او حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بايدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمناً اولاً يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد ، وما اكثر الادعاء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فاذا لم ينالوا رضائهم ساروا على العمياء لحظ انفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها اليهم ورفع على حلب علمه الاصفر ورحل عنها في المحرم سنة ٥٧٢ ورجع من بلاد الاسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصلح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم الى مصر وسنان هذا هو ابو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام واليه ننسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب الى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان واقتضه بقوله :

ياذا الذي بقراع السيف هددنا
 لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
 قام الحمام الى البازي يهدده
 واستيقظت لاسود البر اصبعه
 اضحي يسد ثم الافعى باصبعه
 يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعه
 ثم اردف هذه الايات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب اليه
 مرة أخرى :

بنا نك هذا الملك حتى تأثلت
 ببوتك فيها واشمخر عمودها
 فاصبحت ترمينا بنبل بنا استوى
 مغارسها منا وفينا حديدنا
 وفي ذلك بيان لقوة الاسماعيلية في عصر صلاح الدين فكانوا يتهددونه كما
 يتهددهم ولذلك اغضى في الغالب عنهم وان حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان
 (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طعوا عليه وهو في بعض العسكر فقاتلهم اشد قتال وقاربت

حملات الفرنج السلطان فانهزم الى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً
 واسر الفرنج العسكر المنفرق في الاغارة ، وأسر النقيه عيسى من اكبر اصحاب صلاح
 الدين فافتداه بعد سنين بستين الف دينار هذا مع ان جيش صلاح الدين كان نحو
 عشرين الفا وقعت الكسرة عليهم لانهم كانوا متفرقين في الغارات وكسروا ومعظمهم لم يعلم
 بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين وبُعدّه وكادوا يملكونها
 فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها الى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على
 مكشكين منغلباً على الامر وكانت له حارم فعذب مكشكين واصحابه ليسلموا قلعة
 حارم فاصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ،
 وحصروا حارم اربعة اشهر فداراهم الصالح بهال فرحلوا بعنها عد بلوغ اهلها الجهد ،
 ثم ارسل الملك الصالح عسكراً فحصروها وملكوها .

* * *

فتوح صلاح الدين } ارسل صلاح الدين (٥٧٤) الى شمس الدين بن المقدم
 ووفاة الملك الصالح } ليسلم بعلبك الى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح
 الدين تسعة اشهر ثم عوض عنها وسلمها الى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات
 الى بلاد الفرنج بعدموت الهنفرى ملكهم وكان هذا يريد ان يغير على دمشق فأخذه
 رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته وفتح صلاح الدين حصناً كان
 بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام
 السلطان صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بامرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت
 الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل
 السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما غرنا عليه
 فيبدل لهم السلطان ستين الف دينار فامتنعوا فزادهم الى ان بلغ مائة الف دينار
 وكان الداءية اصحاب الحصن يقطعون هناك الطرق على القوافل فخر به المسلمون
 وكانت الحرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن اخيه نقي الدين
 عمر وبين عساكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم وسببها ان حصن رعبان
 كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل اليه عسكراً كثيراً

ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفاً فسار اليهم نقي الدين في الف فارس فهزمهم وكان نقي الدين يفتخر ويقول هزمت بالف عشرين ألفاً . وفي هذه السنة أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافنقر أهلها بذلك وكانت إحدى الجوائح التي أصابت الشهباء وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) إلى بلاد قليج أرسلان صاحب الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلمحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرميني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم .

وفي سنة ٥٧٧ عزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق فقصد بلاد الكرك وأنام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه واتقطع عزمه عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وعمره نحو ١٩ سنة وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قيام واستقر في ملكها فكاتبه أخوه زكي بن مودود صاحب سنجار على أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار وأشار قيام بذلك فأجاب وعاد إلى الموصل .

قال ابن الأثير : ان بعضهم قال لملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد (حلب) لكان صلح وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له : ان هذا لم يغيب عني ولكن قد علمت ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين فمجز عن حفظها ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام ، وان سلمتها إلى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنه مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة ٥٧٨ قصد صلاح الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكفونوا على طريقه لما سار فاتهمز فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الشقيف واغار على ما يجاوره وفتح

دبورية وجاء الى شقيف حبس جلدك بالسواد من اعمال طبرية وهو حصن يشرف على بلاد المسلمين ففتحته واسكنه المسلمين . ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على يدسان وجنين واللجون والغور من بلاد الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغتم وقتل ثم عاد الى دمشق وحصر بيروت وَاغار على تلك الارحاء ونهب بلدها وكان قد امر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها وَاغاروا عليها وعلى بلدها ، وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد التقى بطسه للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى ١٦٧٦ اسيراً . ثم عبر السلطان الفرات الى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بوري صاحب حران واستمال ملوك الاطراف فصار معه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كَيْفَا وحاصر الرها وملكها وسلمها الى كوك بوري ثم اخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعربان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قياز وقد شجنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها واتاه الخبر ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وارادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا كل بيعة لكم في بلادنا ولا نمكن احداً من عمارتها فتركوه .

وفيها تصدالفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف و ينقلوا جسده الكريم الى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا يجعل فأنشأ البرنس ارناط صاحب الكرك اسطولاً في بحر ايلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حذرت حصن ايلة وفرقة نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل ابو بكر بن ايوب نائب الناصر بمصر اسطولاً في بحر عيذاب وارسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الاسطول بمصر ، فواقع لؤلؤ بمحاصري ايلة فقتل واسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رابع ، فادركهم بساحل الحوزاء وقتلهم اشد قتال فقتل اكثرهم واسر الباقيين وارسل بعضهم الى منى ليخروا بها وعاد بالباقيين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا ارسلان صاحب
 حصن كيفا وكان فيها خزانة كتب فيها الف الف واربعون الف كتاب فوهيها لوزيره القاضي
 الفاضل فانتخب منها حمل سبعين حملاً ، وكان فيها من الزخائر ما يساوي ثلاثة آلاف
 الف دينار ، فوهيها لابن قرا ارسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضرب
 عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ونحن انما نريد ان يسير
 الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا
 وبعد مدة قل المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من اخيه العادل ١٥٠ الف
 دينار لاطعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من اعمال حلب ثم عينتاب ثم تسلّم بعد
 المحاصرة حلب من زنكي بن مودود واعطاه سنجار ، وشرط عليه الحضور الى خدمته بنفسه
 وعسكره اذا استدعاه ، ولا يخرج بحجة عن ذلك . ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين
 ابن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين
 من حلب بعد ان تسلّم حارم ونظم امر تلك البلاد وتجهز من دمشق فأحرق بيسان وشن
 الغارات على تلك النواحي وأرسل الى اخيه العادل بمصر ان يلاقيه الى الكرك فاجتمعوا
 عليها وحصرها ثم رحل عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنزل الكرك
 وكتب الى مصر فسار اليه عساكرها فضيق على من به وملك ربض الكرك ، ولم
 يتيسر له الاستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار الى نابلس وأحرقها
 ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم سار الى سبسطية فاستنقذ ما بها
 من أسرى المسلمين . وفي سنة ٥٨١ حصر الموصل مرة ثانية فسير أتاك عز الدين
 صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرها من النساء وجماعة من أعيان
 الدولة يطلبون المصالحة وكل من عنده ظنوا انهم اذا طلبن منه الشمام أجابهن الى
 ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن اليه اعتذر باعداد
 غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك
 على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقجونه بقله وينكرونه . وسار

صلاح الدين عن الموصل الى نـلاط وملك ميافارقين . وغزا البرنس صاحب الكرك (٥٨٢) وأسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فبني فسندر صلاح الدين قتله بيده . وكان ارناط من اعدر الفرنجة واتفقهم للمواثيق المحككة والايان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لان زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي واخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين واتمى اليه واعتضد به ، وطاب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه النصر والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، فخل ذلك عنده اعظم محل ، واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم . قال صاحب الكامل : وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

* * *

وقعة حطين } وكانت سنة ٥٨٣ سنة مباركة جداً على صلاح الدين
 وفتح فلسطين } والمسلمين ، كما كانت عليه ٥٦٤ بفتح مصر وانقاذها من
 ايدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا اديم
 الشام سنة ٤٩١ فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب
 كما قال من رسالة الى اخيه سيف الاسلام عماراتها واحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ،
 وازعج ساكنيها ، واخاف آمنيا ، واجلى عنها فلاحيها ، واقام النوائح عليها في نواحيها . واغار
 بعض عسكره على عكا وغموا ثم حصر مدينة طبرية ومعه الجاندارية والخراسانية والحجارون
 والنقايون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس وكان مهادن السلطان فاجتمع
 الى الفرنج للحرب — وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل
 عوف والحياينة^(١) والسواد وناصف الجولان وما يقربها الى بلاد حوران — .

(١) الحياينة كورة بالسواد من ارض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب

الغور . وجبل عوف هو جبل عجلون .

ثم اجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا الى صلاح الدين فركب اليهم من طبرية ، والنقى الجمعان واشتد القتال بينهم واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وابدوهم قتلاً واسراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامصتهم وامرائهم وكان الفرنج في حطين خمسة واربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى الفل و قتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم اربعون ألفاً ولما اتقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واحضر ملك الفرنج واجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماءً مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنلط صاحب الكرك فقال له السلطان : ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون اماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووجه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه . قالوا وقد عرض السلطان الاسلام على الداوية والاستتار ، فمن اسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والاسارى الى دمشق . ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان وكان فيها ثلاثون الف افرنجي واربعة آلاف اسير مسلم وارسل اخاه الملك العادل فنازل مجد البابا وفتح عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيناً وصفورية ودبورية والقلعة وجنين وزرعين والطور والحجون والقيمون والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة ومناث وارسوف وعنبرلا وريج سنجيل والبيرة وقلونيسة وصرند ومجدل الحباب وجبل الجليل وتل الصافية والتل الاحمر وقرينتا وصوبا وهرمس والسلع عدا ما تخللها من القرى والابراج والقلاع . فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية و نابلس وقلعتها بالامان ، وفتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبنين ، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالامان بعد حصارها . وكان من جملة الاثري صاحب جبيل فبذل جبلاً فأطلق . وحضر المر كيس في سفينة الى عكا وهي للسلمين واقلع الى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً . وذكر المؤرخون ان اطلاق امراء الفرنج من الاسر وجلبهم الى صور كان من اعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا .

فتح القدس | ثم حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغزة
والرملة | وبيت لحم وبيت جبريل وتبنين والنطرون وشهد الخليل
ولد وغيرها ثم نازل السلطان القدس وبه من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالنقابين
واشد القتال ، وطلب الفرنج الامان فقال : آخذها مثل ما اخذت من المسلمين بالسيف
فعاودوه فاجاب بشرط ان يؤدي كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل
طفل دينارين ومن عجز أسر وتسلم المدينة في رجب وكان فيها بالضبط ستون الف
رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان وقال فيشو : انه كان
فيها مائة الف صليبي وكان عددهم لما فتحوه ٦١٠٠ فارس و٤٨ الف راجل ولم يكن فيها
لما فتحها صلاح الدين سوى ربن واحد من اليهود وكان يدفع اتاوة كبيرة في السنة للملك
حتى يبقى فيها .

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس :
ان الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين
من النقب ارسلوا باليان بن نيزان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان فابى
السلطان وقال : لا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة احدى وتسعين
واربعائة من القتل والسبي فقال له باليان : ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في
خلق كثير ، وانما يفكرون عن القتال رجاء الامان ، فاذا رأينا ان الموت لا بد منه فوالله
لنقتلن اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم نغموت منا ديناراً ولا درهماً
ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة ، فاذا فرغنا من ذلك اخبرنا الصخرة والمسجد
الاقصى . ثم نقل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ، ولا تترك
لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم كلنا وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى
يقتل امثاله ، ونموت اعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على
اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يارى عاقبة الامر فيه
عن اي شيء يخفي ، فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج .
وكان رأي صلاح الدين اخذ الفداء فنغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته
اولاً من اهراق دماء الفرنج كما اهراق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير

الصلبيين في الصلح لاشأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد اعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام ، وان لا يثير الحفائظ وهو على يقين من ان اوربا جيشت الا قليلاً لفتح القبر المقدس فاذا قتل من فيه وفيهم الامراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب مأتماً وتزيد الطوائل بين الفريقين ، وهيب الفرنج في اوربا الى جمع شملهم ، اكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنصف هذا القرن وتعود البلاد الى خرابها .

وما الفائدة من القتل اذا كان يجب ان يقاتل على فاعله وعلى ذويه . على ان صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن أولوف عادة تلك العصور وما عدت عمله شيئاً فرياً اذ يكون قد كمال لهم بالكيل الذي كالموا به لامتة . بيد ان السماحة التي بدت منه اكسبته وقومه في الغرب استماعاً طراً لا يزال يردد بالخير على كروز الايام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الامر في الغرب فلم يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الاخيرة يأتمرون في الحال باوامر الكنيسة البابوية ، ويحسون الناس ليسيروا بهم على العمياء الى الارض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الاولى من حروب الصليبيين وكان الخطب سهلاً في الوقائع بعد ذلك في عهد صلاح الدين واخلافه والماليك فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجليلاني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى احبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نحانوا نجابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا خذنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ اتى	بقلب سليم راحماً للمسلم
فخطوا بارحاء الهياكل صورة	لك اعنقدها كاعنقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقي بوصفها	ويكتبه يشفي به في التمام

مر الرحالة ابن جبير الاندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من ان نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين مسلمين وافرنج وربما يلقي الجمعان ويقع المصاف بينهم وارفاق المسلمين والنصارى تخلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من

ومصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة
كذلك ، وتجار الصليبيين ايضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين
ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي الامنة على غاية ربح النصارى ايضاً يؤدون في بلاد
المسلمين على سلعتهم والارنفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب
مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . قال : وهذه سيرة اهل هذه البلاد
في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين واهلهم كذلك ولا تعترض الرعايا
والتجار ، فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً او حرباً . وقال بعد ان
ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس واطلاق ايدي جيشه في جميع ما احتازته :
وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال
في السياسة .

وبعد ان قرر السلطان امور القدس وامر بعمل الرُّبُط والمدارس الشافعية رحل
عنها ولم يبق معه مما اخذه من مال الفداء شيء . وكان مائتي الف دينار وعشرين
الفاً ففرقها على الامراء والعلماء والفقراء ، واطلق كثيراً من النقاء بدون فداء ، وادي
اخو السلطان الملك العادل فدية عن النبي صليبي واتدى به السلطان نفسه وعفوا
عن كثيرين ، فلم يبق سوى اربعة عشر الفا يخرج منهم الصبيان والبنات الذين ادى
الصليبيون فداءهم ، واغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، فكان
يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن
ارقي رجل مهذب في القرون الحديثة . ذكروا انه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة
مترهبة استعادت بالسلطان فاعاذاها ، ومن عليها وعلى من معها بالافراج ، وابق عليها
من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، وكذلك خرجت
زوجة الملك المأسور كي وهي ابنة الملك آماري وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها
من الخدم والخلول والجوازي فاستأذنت بالالمام بزوجها واقامت عنده ، وكان مقيماً
في برج بنا بلس اسيراً يرسف في قيده ، وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من
اموال البيع منها الصخرة والاقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى ، وكان
له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقبل له لياًخذ ما معه يقوي به

المسلمين فقال : لا اغدر به ولم يأخذ منه الا عشرة دنانير الى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها اعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق .

رحل السلطان الى عكا ومنها الى صور ، وقد حصنت بالرجال وحفر خندقها من البر الى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشرة شوان فانفق ان الفرنج كبسومهم في الشواني واخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبغ ونجا واخذ الباقون ، و طال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء واقام بعكا واعطى العمساكر المستور فसार كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا وقد قمع الفرنج بيافا وعكا وصور ، وارسل الى هونين ففتحها بالامان كما فتح قلعة ابي الحسن من عمل صيدا وشقيف ارنون وصفد وكوكب وهما حصنان عظيمان للداوية والاسبتارية . فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من البلاد والثغور سوى صور واستصفت كلها جملة . ولما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بمن معه بعد ان ولي اعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها فخرج اليها وامر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفتح حين واعانة المقطعين وكذلك امر بنقل الغلات من مصر الى اعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران . ومن كتاب فاضلي يصف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدينا . وعمارات ما كان امل اليها مفضيا . بل طال ما كان عنها مفضيا . مثل بيسان وكفر بلا وزرعين وجنين كلها بلاد مشاهير لها قرى دغلة ، وبساتين مظلة ، وانهار مقللة ، وقلاع مظلة ، واسوار قد ضربت على جهاتها ، واحاطت بجناباتها ، واتخذتها المدن سياجا على قصباتها .

بقية الفتوح) وقصد السلطان كوكب وجعل عليها من يحاصرها وقد اتجهت
الصلاحية) همته العالية الى فتح ما بقي في ايدي الصليبيين من ثغور الساحل .
ولما خرج السلطان على عزم دمشق من القدس بات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف
بالفريديسية ، واصبح احدلا على جنين ثم سار على طريق جبل عاملة ، ونزل بضيفة يقال
لها الجش وعبر بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنا على الضياع والقرى وعرس

على مرج تلقياتا مقابل مرج القنعية ونزل على مرج قليطية بالبقاع وعبر عين الجر و بات
على مرج بوس وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد ولما اجتمعت
العساكر من الاطراف سار من دمشق فنزل على بحيرة قدس غربي حمص واثنه العساكر
بها فرحل ونزل على انطرطوس فوجد الفرنج قد اخلوها فأحرقها وأحرق البسية وهي
بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من اقطار بلادهم . وسار الى مرقبة فوجدهم قد اخلوها
ايضاً وسار الى المرقب وهو للاسبتار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي
النهر على شاطئ البحر وسار الى اللاذقية ولما قلعتهان فحصر القلعتين وزحف اليهما فطلب
اهلها الامان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها ، ولما كان على اللاذقية
طلب مقدم اسطول صقلية من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل
الارض بين يديه وقال ما معناه : انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت
فذلوا فاتركهم يكونون بمالكك وجندك نفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ،
والاجاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الامر ويشتمد الحال فاجابه
صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم
ان خرجوا اذاقهم ما اذاق اصحابهم من القتل والاسر ، ورحل السلطان الى صهيون
فتسلمها بالامان فلم يجيبهم الا على امان اهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه الى ذلك وتسلم
قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطدس وكان الفرنج
قد اخلوه ، وملك حصن العيذر وحصن الجماهرية ، ووصل الى قلعة بكاس فاخلاه
اهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة فضايقها فطلب اهلها الامان
وحصر ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب قلعة سرمين وضايقها وملكها ،
واستنزل اهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم القلعة وعفي اثرها . وكانت في هذه
القلعة وفي الحصون المذكورة من اسرى المسلمين الجم الغنير ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة
والنفقة ، ثم سار من الشغر الى برزويه وملكها بالسيف وسبي واسر وقتل اهلها
واسر السلطان صاحب برزويه هو واصحابه وامراته واولاده ومنهم بنت له معها زوجها
فنفق قههم العسكر ، فارسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل
بعضهم ببعض ، فلما قارب انطاكية اطلقهم وسيرهم اليها . وكانت امرأة صاحب

برزيه اخت امرأة يميند صاحب انطاكية ، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لاجلها .

ثم سار فنزل على جسر الجديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية ومنه الى در بساك فتسلمها بالامان على شرط ان لا يخرج احد منها الا بثيابه فقط . وسار الى بغراس وحصرها وتسلمها بالامان على حكم امام در بساك . وارسل يميند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل اسير عنده فأجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر ، ثم عاد الى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليريجوا ويستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والاجل غير مأمون . وكان صلاح الدين لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها وخطى اخاه الملك العادل في تلك الجهات بباشير ذلك فأرسل اهل الكرك يطلبون الامان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان الى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالامان ، ثم سار الى كوكب فضايقها وتسلمها بالامان وسير اهلها الى صور .

وفي سنة ٥٨٥ نزل صلاح الدين بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارنون بعد مدة ولما بقي للمدة ثلاثة ايام استخضره السلطان وخاطبه في التسليم فقال : لا يوافقني عليه اهلي واهل الحصن . فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس . ولما سقطت القدس واستولى السلطان على جميع البلاد التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم الا يافا وصور وطرابلس تجمع جميع اهل البلاد التي اخذها السلطان صلاح الدين في ثغر صور فكثرت جمعهم ، وارسلوا الى الغرب يستصرخون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضر به وقد ادماه وقالوا : هذا نبي العرب يضر المسيح . فخرجت النساء من بيوتهن . ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا الى عكا من صور ونازلوها وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين الوف ايضاً وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) الى قتال الفرنج على عكا .

الحملة الصليبية) بينا كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال
الثالثة) ويراوحهم ، جاءت الاخبار من الروم ان ملك الالمان قادم
لنجدة الصليبيين في الشام في مائة الف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي
الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن سلط على ملك الالمان الوباء
والغلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم ، ولم يصل مع ابنه سوى الف مقاتل
فقط . يئس الناس لانهم ذهبوا الى اب الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين
والتدس بل بعد استصفاء اكثر المدن والمعامل التي كانت لهم وضرب معظم قوتهم في
الصميم ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك فريدريك باروس ملك
المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشاردس قلب الاسد ملك انكلترا . نجف
الاول الى نجدة فرنج الشام قبل صاحبه فكان من امره ما كان اما الآخران فجاء
الى عكا في البحر وبعد ان فتح ريشاردس جزيرة قبرص تمكن الصليبيون من أخذ
عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : ان الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى
للغرب ، كانت من اول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الانكليزية ، وقال
مغلطاي : ان الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر وكانت عدتهم مائتي الف
واربعين الفاً ونصبوا عليها المناجيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى
خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغلب المسلمون وطلبوا الامان . وقال غيره :
ان السلطان كان عمر في بيروت بطسة وشحنها بالعدد والآلات وفيها نحو سبعمائة
رجل مقاتل فلما توسطت في البحر صادفها ملك الانكستير واحاطت به مراكمه وحصل
القتال بين الفريقين فلما رأى مقدمها اشتداد الامر نزل فخرقها حتى غرقت وكانت
هذه الحادثة اول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ،
ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف ازالوا المسلمين
عن موقفهم ، ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوق وغيرهم خلقاً كثيراً ، ثم
سار الفرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فمكوها ، ورأى السلطان تحريب عسقلان

مصلحة نجر بها وخرّب الرملة وكنيسة لدّ وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وارسوف
وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلها الى بيروت ، وكان معظم اهل صيدا
وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . ثم سار الى القدس
وقرر اموره وعاد الى مخيمه بالنظرون . ثم ترأس الفرنج والسلطان في الصلح على
ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل
القدس وامراته عكا فانكر القيسيسون عليها ذلك الا ان يتنصر الملك العادل فلم
ينفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين: ان ملك انكلترا هو الذي عرض على العادل اخته ،
وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها ، ورغب ان
يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يُقطع الداوية والاسبتار من
البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس وان الانكليز لما عنفوا
المرأة وأتهموها في دينها ، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها الا ان يدخل
العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد: في وصف ريشاردس ملك الانكليز: وهذا ملك الانكسار
شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة
على الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة ، لكنه اكثر مبالاً منه ،
وأشهر في الحرب والشجاعة . قال: وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون
منهم يخبروننا عنه انهم موقنون فيما يريدون ان يفعلوا من مضايقة البلد اي عكا
حين قدومه ، فانه ذورأي في الحرب محروب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية
ورهبة . وقال بعد ان ذكر كيف كان ملك الانكليز يكرر الرسائل الى الملك
لتعرف قوة النفس وضعفها وكيف كان يوهن المسلمين على تعرف ما عنده من ذلك
ايضاً: فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ،
وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره ، والله الولي في ان يقي المسلمين شره
فما بلينا بأعظم حيلة وأشد اقدماً منه .

وبقي صلاح الدين في كل يوم يقع بيته وبين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك

شدة شديدة واستولوا سنة ٥٨٨ على قلعة الداروم وخربوها وأسروا من فيها .
 عرض لملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب ان يصالح صلاح الدين
 فرضي السلطان بالصلح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا وفشل عكا هو الوحيد
 الذي أصابه وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه وقد ملّ الجنود الحرب التي دامت
 أعواماً ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا امان للفرنج على ان يخرجوا باموالهم وانفسهم
 على تسليم البلد ومائتي الف دينار والف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من
 المعروفين وصليب الصلבות ، وعشرة آلاف دينار للمركيس اربعة آلاف دينار
 لحجابه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها
 ثلاث سنين وثلاثة اشهر على ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
 وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وان تكون عسقلان خراباً ، واشترط
 السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في بلاد الهدنة واشترط الفرنج دخول صاحب
 انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وان تكون لدّ الرملة مناصفة بينهم وبين
 المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . وانتهت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير
 فلو انفق ذلك في اثناء وفاته كان الاسلام على خطر .

وفي التاريخ العام : ان صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في اوربا
 فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب . وان امارات الصليبيين لم تقا
 مدة نصف قرن سوى صفراء امراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون
 بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الامارات ، ولما قضى صلاح الدين على
 الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من المماليك ، لم يستطع المسيحيون ومصر
 تهاجمهم ان يقاوموا زمناً طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، واذا
 احتفظوا ببقايا الامارات قرناً آخر فذلك لان ملوك الاسلام لم يرضوا ان يقضوا
 عليها . لا جرم ان هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين اه .

مزايا صلاح الدين	} ولا عجب اذا انتثر سلك الامارات الصليبية في الجنوب والغرب جملة فان تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ،
ووفاته	

والنجيدات كانت تأتيه سراعاً دراكاً ، والفكر متجه الى مقصد واحد ، واستمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، وحاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر وصنوف الدهاء والخديعة ، وما الحرب الا خدعة — قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين ، مرة بالابراج ، وأخرى بالمتجنقات ، وراذفة بالديابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والنهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويخالف التوفيق اعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الامر بادي الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفره الباهر بهم في الأردن والجليل وبيت المقدس كيف فتح لاعدائه السبل لينهبوا الى صور ، ويجتمع هناك فل جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قوية بما جاءها من البحر من الانكايذ والفرنجية ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لادافع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب ، ولعل ذلك يدخل في باب مراحمه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس ، فلم يعامل اعداءه الا بما اقتضته سياسته وسيرته .

كان صلاح الدين يُعنى بجنده ويتعهده ويسأل عن صحة امرائه ومن دونهم في راحتهم ومنامهم واكلهم وشرابهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار او الليل ثم يستريح او يحارب مدة معينة ثم يذهب الى ذويه ، على ارقى الاصول التعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتنى أفرادهم وجماعاتهم دع مالهم من الاموال الدارة من اموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفع الشان ، يأخذون اما رواتب او اقطاعات ، ولم تكن اقطاعاتهم كاقطاعات الغرب تورث على الاغلب بل تزول عن صاحبها بموته او بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين ابدأً بسلطانهم واميرهم ، منفانين في احسان الخدمة كائنتهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين الى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يجب دمشق ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد . فلقى الاهل والبلد بعد تغيب اربع سنين

وذهب بتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لاهله
 واولاده ومرايع نزهه وأنسه . ثم مرض اياماً وهلك حميد الأثر ففجعت البلاد لفقدته ،
 وبكت العيون ، وانتحبت النفوس ، لانه لم يحي مصر والشام ، بل احيا بعمله المسلمين
 والاسلام ، وكان كما ذكره ابن شداد : رؤفياً رحيماً ، ناصرراً للضعيف على القوي ،
 يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ،
 ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة
 وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سغراً وحضراً ، على انه كان في جميع زمانه قابلاً
 لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، وكان يجلس مع
 الكتاب ساعة اما في الليل او في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ،
 ولم يرد قاصداً ابداً ، وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته
 واعتنى بقضته .

مات صلاح الدين وقد ملك مصر اربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة ،
 وملك الجزيرة واليمن ، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ، فان صدقة النفل استنزفت
 جميع ما ملكه من الاموال ، فلما ملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة
 الا سبعة واربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً
 ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من انواع الاملاك ، وكان
 رحمه الله يهب الاقاليم ، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان
 نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم مهم ، اعلمهم بانه متى علم به
 اخرجه . وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين
 ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية ، وعدله وكرمه وشجاعته ،
 واهتمامه بامر الجهاد وصبره واحتسابه ، وحلمه وعفوه ومحافظته على اسباب المروءة ،
 ما هو العجب العجيب . وبعضه اذا جمع في شخص كان مفخراً من المفاخر على
 توالي الاحقاب .

ملأت خيرات صلاح الدين جميع البلاد التي خفق علمه عليها ، وملأت اوقافه
 مصر والشام وهي غير منسوبة اليه . قال ابن خليكان : ولقد افكرت في نفسي في

امور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة ، فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه .

بل قد تجدد للمالكة وخواصه اوقافاً نسبت اليهم اكثر منه وكان كل ممالك صلاح الدين وخواصه وامراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد والناس على دين ملوكهم . ومن كرم صلاح الدين انه اخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، واما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً الا وقد وعد بان يعطيه لطالب من جماعته ، وقد فرق من ذخائر الفاظهم لما فتح مصر ما يفوق الاحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً . ومن رسالة له الى الديوان العزيز ببغداد : فقد علم ان الخادم بهوت امواله ، في بهوت رجاله ، وان مواطن نزوله ، في مواقف نزاله ، ومضارب خيامه ، اكنة ظلاله ، وانه لا يذخر من الدنيا الا شكته ، ولا ينال من العيش الا مسكته . وكان يعيش عيش المتوسطين ، وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف ، ويكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ، ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل ، وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته التضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية ، وكان من جالسه لا يعلم انه مجالس السلطان ، بل يعتقد انه مجالس اخ من الاخوان . كان من عطاء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله امر . وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد الا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً اي يسرح عسكره في اوائل الشتاء وبقى في شذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، اذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة الف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنته وسائر ملاذه ، قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضر بها الرياح يمينه ويسرة ، وكان لا بد له من ان يطوف حول العدو كل يوم مرة او مرتين اذا كان قريباً منهم ، واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، ويحرق العساكر من اليمين الى اليسرة ، يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره .

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقعت انكاسات
والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فالتحاز الى الجبل يجمع الناس و يردهم و ينجلهم حتى
يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء
سبعة آلاف ما بين راجل و فارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوفرة ، الى ان
ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فان الضعف والهلاك كان
فيهم اكثر ، واكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة
في الصلح .

سئل ابن بيزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا
وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة الف الى ستائة الف قتل منهم اكثر
من مائة الف وغرق معظمهم . وكان صلاح الدين يدور على الاطلاب اي الكتائب
ويقول وهل انا الا واحد منكم .

وذكروا من مراحم السلطان انه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل
ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبيها رضيعاً ، فباتت امه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج :
ان ساطنهم رحيم القلب ، فاذهبي اليه فجاهته وهو على تل الخروبة راكب فعمرت
وجها وبكت فسأل عنها ، فاخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، وتقدم الى مقدم
الاصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى احضروه فلما رآته بكت واخذته
فارضعته ساعة وضمته اليها ، و اشارت الى ناحية الفرنج فامر ان تحمل على فرس
وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : ويقال ان صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على
نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر
ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً . قلنا ان نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف
كان في امته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

(من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧)

اهتزت اعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لانه الفاتح الثاني لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الاول . وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة ، وناب بعض اولاده عنه في اكثر بلادها ، وخلف اخاه الملك العادل ابابكر وكان ينوب عنه في مصر والشام في حياته فوق الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن اولاً ثم اعلن كل واحد لصاحبه خصومته . وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية وراوا من العدل الصلاحي ما لم يكذب يسبق له مثيل الا في دولة نور الدين ، يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى الشقاق والنزاع ، ومن الذين اوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الاكبر فقد كتب الى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة اهنونها موته وهو الهول العظيم » .

وكان الملك الافضل نور الدين علي اكبر اولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عند ما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وبلادها المنسوبة اليها ، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ،

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب ،
 وبجامة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
 نقي الدين عمر ، وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه وبجص والرحبة وتدمر
 شيركوه بن محمد ، وببصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة
 اخيه الملك الافضل ، وبهد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون ، منهم سابق الدين
 عثمان بن الداية وبهده حصن شيزر وحصن ابي قبيس ، وناصر الدين بن كورس بن
 خمارد كين وبهده صهيون وحصن برزية : ودلدرم بن بهاء الدين ياروق وبهده تل باشر
 وعز الدين اسامة الحلبي وبهده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين
 ابن المقدم وبهده بعربين وكفر طاب وافامية . ولما اتى الملك الافضل زمام
 السلطنة بعهد ابيه استوزر ضياء الدين بن الاثير الجزري فحسن له طرد امراء ابيه
 ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بلبل ولما اجتمعوا بمصر حسنوا الملك العزيز
 الانفراد بالسلطنة ووقعوا في اخيه الافضل فحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل
 والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينها فسار العزيز في عسكر مصر وحصر اخاه
 الافضل بدمشق عشرة اشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الافضل الى عمه العادل واخيه
 الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا الى دمشق واصلحوا بين
 الاخوين وعاد كل ملك الى بلده . قال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن
 دمشق شرع الافضل في اللهو واللعب واحتجب عن الرعية وانقطع الى لذاته فسبى
 الملك النوام وفوض الامر الى وزيره الجزري وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي فافسدا
 عليه الاحوال وكانا سعيما لزوال دولته واستبدلا اراذل الناس بكبراء الامراء والاجناد
 ففسدت امور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل واخذ الافضل
 من الفرنج جبلة واللاذقية .

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك
 الافضل فسار ونزل الفوار من ارض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة
 من الامراء الاسدية وفارقوه فعاد العزيز الى مصر . وكان الافضل استنجد بعمه العادل
 لما قصده اخوه فلما رحل العزيز الى مصر رحل الملك الافضل وعمه العادل ومن انضم

اليها من الاسدية وساروا في اثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بليس وقصد الملك
الانسل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى
شئت . وكاتب العادل العزيز وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين .
وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملاسة اولاد صلاح الدين لما رأى من فساد
احوالهم على مارواه المؤرخون — والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في
ملاء من الناس : لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشير
في اموره — فدخل الملك العزيز على القاضي الفاضل وسأله ان يتوجه من القاهرة
الى الملك العادل ففعل واجتمع به وانفقا على ان يصلحا بين الاخوين فاصلحا بينهما واقام
الملك العادل بمصر عند العزيز ابن اخيه ليقرر امور مملكته وعاد الافضل الى دمشق
واموره يهد ابن الاثير يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكروه . وكان الاعتماد
على مشورة الوزير ابن الاثير الذي زين للملك الافضل اقضاء امراء ابيه ليحلوه الجو
اول خطوة نحو خراب بيت بني ايب ، وبعبارة اصح ابناء صلاح الدين يوسف . وقوة
الدولة على نسبة تعقل القامين بها ، الدافعين عن حوزتها ، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك
الافضل سيرة ابيه فاقصى العقلاء وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم
وكان لسان حال الملك العادل وقد رأى اختلاف ابناء اخيه المثل المأثور « لم آمر بها
ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الافضل الى دمشق ازدادوز يرد الجزري
من الافعال القبيحة وآدى اكبر من الدولة والافضل يسمع منه ولا يُعدي احداً
ولا يخالفه ، فكاتب قياز النجمي واعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فارسل العادل
الى الافضل يقول : ارفع يد هذا الاحمق السيء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ،
وانفق مع العزيز على النزول الى الشام فسار الى الشام فاستشار الافضل اصحابه فكل
اشار عليه ان يلتقي عمه واخاه ولا يخالفها الا الجزري فانه اشار عليه بالعصيان فاستعد
للحصار وحلف الامراء والمقدمين وفرقهم في الابراج وعلى الاسوار .

انفق العادل مع العزيز على ان يأخذ دمشق وان يسلمها العزيز الى العادل
لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع البلاد كما كانت لابيه ، فخرجا وسارا من مصر
فارسل الافضل اليها فلك الدين وهو واحد امرائه وهو اخو الملك العادل لأمه ونزل

العادل والعزیز علی دمشق وقد حصنها الملك الافضل ، فكاتب بعض الامراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه وانهم يسلمون المدينة اليه فزحف الملك العادل والملك العزیز فدخل الاول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فاجاب الملك الافضل الي تسليم القاعة وانتقل منها باهله واصحابه ، وأخذت بصرى من الملك الظافر خضر اخي الافضل وكان معاضداً له ، وأعطى الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها واخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتال فاخذوا الا عظيمة وهرب الي بلاده . سلم الافضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلما العادل بعد ان كان وقع الاتفاق على ان يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للافضل وهو السلطان ، ورحل العزیز وابقى العادل السكة والخطبة بدمشق لملك العزیز .

* * *

استنثار العادل) توفي الملك العزیز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع
بالمملك الصلاحي) وعشرون سنة وأشهر وكان في غاية السباحة والكرم والعدل .
والرفق بالرعية والاحسان اليهم فنجحت الرعية بموته فجعة عظيمة لانه شبل من أسد ،
وكان الغالب على دولته نحر الدين جهار كس فأقام يه الملك ولد الملك العزیز الملك
المنصور محمد وانفقت الآراء على احضار احد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة
بمحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الافضل وهو حينئذ بصرخد فأرسلوا اليه فسار
محتماً ووصل الي مصر على انه اتاك اي مرابي الملك المنصور بن الملك العزیز ، وكان
عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وأشهرًا . ولما وصل الافضل الي بليس النقاہ
العسكر فننكر منه نحر الدين جهار كس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا الي
الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين ، وأرسل الملك الظاهر الي أخيه
الملك الافضل يشير عليه بقصد دمشق واخذها من عمه الملك العادل ، وان ينتهز
الفرصة لاشتغال العادل بماردين ، فبرز الملك الافضل من مصر وسار الي دمشق
فبلغ الملك العادل مسيره الي دمشق ونزل الملك الافضل على دمشق وجري بين العم
وابن أخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الافضل المدينة حتى وصل الي باب البريد ولم
يهدم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد ، ثم تحاذل العسكر

فتأخر الافضل الى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الى الملك الافضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد الى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقلت الاقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الافضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الاخوين الافضل والظاهر من الخلف .

روى سبط ابن الجوزي : انه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها ومياهها الداخلة اليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل الى الظاهر يقول له : انا أسلم اليك دمشق على ان تكون انت السلطان وتكون دمشق لك لا للافضل ، فطمع الظاهر وأرسل الى الافضل يقول : انت صاحب مصر فأترني بدمشق . فقال : دمشق لي من ابي وانما أخذت مني غصباً فلا اعطيها احداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع التقاعد . وكان لقاء الخلف بين الاخوين من جملة دهاء عمهما ، وفي هذه السنة قصد المنصور صاحب حماة بارين وحاصرها وفتحها وأصلح امورها ، وكانت لعز الدين ابراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وهذا محصور في دمشق مع الملك العادل .

ودخلت سنة ٥٩٦ ، والملكان الافضل والظاهر محاصران دمشق وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفساق والحوانيت وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الانهار وأحرقت غلة حرسها وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان الى أرض يلبا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لها ، ولما تغير الظاهر على أخيه الافضل ترك قتال العادل فظهر النشل في العسكر فتأخر الافضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصفة ، ثم سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الافضل الى مصر ، وضرب مع الافضل مصافاً فانكسر الافضل وانهمزم الى القاهرة ونازلها العادل ثمانية أيام فأجاب الافضل الى تسليمها ، على ان يعوض عنها ميافارقين وخاني وسيمساط ، فأجابه العادل الى ذلك ولم يف له به ، ثم سار الافضل الى صرخد وأقام العادل بمصر على انه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور واستقل العادل في السلطنة فقطع اولاً خطبة ولد العزيز بعد ان جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية

الصغير على الكبير فقالوا: الصغير مولى نليه قال: فهل يجوز لكبير ان يولي عليه وينوب عنه قالوا: لا لان الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة .
فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأ سلطنة العادل الكبرى ، فان استثنائه بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما اليها من بلاد الشرق .

لما تم الامر بمصر للعدل كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمغنين شقيق ابيه وابو امراته) وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه ، واشترط ان يخدم الملك العادل على صاحب حلب ان يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كما خرج الى البهكار (الحرب) والتزم الظاهر بذلك الا انه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل وأرسل الملك المنصور للعدل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعين من ابن المقدم ، فقبل العادل عذره وامره بردها الى صاحبها الاول . وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرب قلعتها وملك قلعة نجم واقامية وكفرطاب من شمس الدين عبد الملك بن المقدم ، وأرسل الى الملك المنصور صاحب حماة ببذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل ، فلما ايس الملك الظاهر منه سار الى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب ثم سار الى افامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فلم يسلم هذا القلعة الا بعد الحرب الشديدة فرحل الملك الظاهر وتوجه الى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال يحملة اليه قيل انه ثلاثون الف دينار صورية ، ثم رحل الظاهر الى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الافضل ، وانضم اليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الاخوين الافضل والظاهر انها متى ملكا دمشق يتسلما الملك الافضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلما الملك الافضل ، وتسلم دمشق حينئذ الى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الافضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر .

وبلغ العادل حصار اولاد اخيه دمشق فخرج بعساكر مصر ، وأقام بنابلس ولم
يجسر على قتالهم ، واشتدت مضايقة الملكين الافضل والظاهر لدمشق وتعلق النقا بون
بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الافضل على دمشق وقال له :
أريد ان تسلم اليّ دمشق الآن فقال له الافضل : ان حريمي وحريمك على الارض
وليس لنا موضع نقيم فيه ، وحب هذا البلد لك فاجعله لي الى حين تملك مصر
وتأخذه . فامتنع الظاهر من قبول ذلك ، وكان قتال العسكر والامراء الصلاحية
لاجل الافضل فقال لهم الافضل : ان كان قتالكم لاجلي فاتركوا القتال وصالحوا
الملك العادل ، وان كان قتالكم لاجل اخي الملك الظاهر فانتم واياه . فقالوا : انما
قتالنا لاجلك وتحووا عن القتال وارسلوا وصالحوا الملك العادل ، ثم تفرقت العساكر فرحل
الملك الظاهر عن دمشق ، وسار الافضل الى حمص ، فقدم العادل الى دمشق
بعد رحيل اخيه الافضل والظاهر عنها وتسلمها . وخرب الظاهر منبج خوفاً من
انتزاعها منه وأقطعها لعاد الدين المشطوب ونزل ابن المقدم عن افامية فأقطعها الظاهر
الراوندان وكفرطاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة
فعصى ابن المقدم بالراوندان فسار اليه الملك الظاهر واستنزله عنها وأبعده فلحق
بالمملك العادل .

وفي سنة ٥٩٨ سار الملك العادل من دمشق ووصل الى حماة ونزل على
تل صفرو و قام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكفه ، وبلغ الظاهر
صاحب حلب وصول عمه العادل الى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار ،
وراسل عمه ولاطفه واهدى اليه ، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه
مفردة المعرة واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، واخذت من الملك الظاهر ايضاً
قلعة نجم ، وسلمت الى الملك الافضل ، وكان له سروج وسميساط ، وسلم الملك العادل
حران وما معها لولده الملك الاشرف مظفر الدين موسى وسيره الى الشرق . ولما استقر
الصلح بين العادل وابن اخيه الظاهر ، رجع العادل الى دمشق واقام بها وقد انظمت
الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها
وضربت السكة فيها باسمه :

الاحداث في عهد العادل } مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح
 واهتمامه بحرب الصليبيين } الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لاخيه الملك
 العادل ابي بكر بن ايوب وتخلص من ابناء اخيه الافضل والظاهر وغيرها بل توفيق
 الى مقاصده باستنفاء العلماء بان ملك مصر وأنقذها من حفيد اخيه صلاح الدين ،
 وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك اخيه الا قليلاً ومقدمة لتسلسل الملك
 في اولاده ، اذ ليس في ابناء اخيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر
 وكثرة التجارب والدهاء ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشيره في معضلات
 الامور فبين عن رأي وحنكة . وسار بعض الامراء الصلاحية الذين غزوا بنعمة
 صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل ، ولكن كانت الافضل
 والظاهر والعزيم متخالفين متشاكسين وكل منهم يطمع في الملك ويسر لاخيه وعمه
 حسواً في ارتقاء ، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه
 صلاح الدين من اكثر الوجوه . اما الافضل فقد ركب هواه وأخذ الى اللذات
 والمنكرات لاول امره واستسلم لوزيره ابن الاثير وكان صاحب دعوى عريضة
 لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان فكتبت الغلبة للعادل ، ولو ترك الاخوان
 الافضل والظاهر وشأنهما بدون ان يعدل عمهما من جماعها لاشتد غزو احدهما
 لاخيه وهلك الناس بسببهما وكثرت الغوائل والحصارات ، هذا ان لم نقل انه كان
 للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين اولاد اخيه ، فقد اتخذ الملك العادل سياسة
 غريبة معهم يريد ان يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على
 مصر والشام وبلاد الشرق ، وذلك بان أخذ بعض المتشاكسين لحزبه وكان بعد ذلك
 يفتنم فرصة حمل الاخ على اخيه فيملك البلاد مثل الشام وغيرها على نحو ما ملك
 مصر ويخطب له فيها وتضرب السكة باسمه ويزال اسم ابناء صلاح الدين .
 مثل ابناء صلاح الدين صورة من صور خلاف الاخوة بعد موت ابيهم ،
 والسبب في ذلك ان اباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً بين لكل واحد حقه
 من هذا الملك الذي فتحه ووطد اساسه ، بل ترك الامر للاقدار . واذا حلف
 العسكر في دمشق لا كبر اولاده الملك الافضل فان المملكة ليست عبارة عن دمشق ،

بل حلب والقاهرة تنازعا عنها فضل التقدم ، ولو كانت اصول الوراثه في الملك متبعه في ذلك العصر لتوفر على الامه و ابناء الدوله عناية كبيره وشر كثير مستطير ، ولما تعب الفاتح بفتوحه وخلف لابنائهم ميراثاً يورثهم همماً ونهماً ، و يجنون بعملهم على الامه الجنايه بعد الاخرى . هذا وبقايا الصالبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس ، ومن حين الطالع انهم لم يتحركوا للفتنه طول هذه المده سوى مرة واحده (٥٩٣) وقد وصل جمع عظيم منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت فسار العادل ونزل بتل العجول وانه النجده من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس ثم سار الملك العادل الى يافا وهجمها وملكها بالسيف وقتل الرجال المقاتلة وخربها وكان هذا الفتح ثالث فتح لها . وخرب صيدا ايضاً ونازلت الفرنج تبين فارس العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمة العادل على تبين فرحل الفرنج الى صور ثم عاد الملك العزيز الى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل اليه امر الحرب والصلح ، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع العادل الى دمشق .

ومن الاحداث في الشام على عهد الملك العادل بعد ان صناله ملك الشام ومصر وخضع ابناء اخيه صلاح الدين له ظاهراً وان لم يخضعوا باطناً ، حصار ابنه الاشراف ماردين وسعى الملك الظاهر (٥٩٩) في الصلح ، فاجاب الملك العادل الى ان يحمل اليه صاحب ماردين مائة وخمسين الف دينار ويخطب له ببلادهم ويضرب السمكة باسمه ويكون بخدمته متى طلبه فأجيب الى ذلك . وسار الملك المنصور صاحب حماة الى بعين مرابطاً للفرنج وكتب الملك العادل الى صاحب بعلبك والى صاحب حمص بالنجاده فانجده واجتمعت الفرنج من حصن الاكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعين وانفقوا معه فانهزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الاكراد والمرقب وانضم اليهم جموع من الساحل والثقوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو على بعين فانهصر عليهم ثانياً واسر منهم عدة كثيرة وهادنهم (٦٠٠) وارسل العادل وانتزع

ما كان بيد الملك الافضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير
 سميساط وتوسلوا اليه في ابقاء ما كان بيده فلم يجب الى ذلك .
 وخرج الفرنج (٦٠٠) اقصد بيت المقدس فبزع الملك العادل من دمشق
 ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم الى الفرنج يافا والناصره ونزل عن
 مناصفات لدة والرملة . جاءت الفرنج (٦٠١) الى حماة بغتة واخذوا النساء الغسالات
 من باب البلد على العاصي وامتلات ايديهم من الغنائم وخرج اليهم الملك المنصور بن
 نقي الدين وابلى بلاءً حسناً وكسر الفرنج عسكره وحاصر الحلبيون المرقب وكادوا
 يفتخونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين وقتل خلق من
 المسلمين وطمعت الفرنج في البلاد ثم صالحهم العادل ووقعت الهدنة بين صاحب حماة
 وبينهم . واغارت الارمن (٦٠٢) على اعمال حلب فتسارع اليهم العسكر فيبتوهم
 وهزمهم ، وذهب الارمن بالغنائم ، ثم ثابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون
 على البلاد الحلبية وهابته العسكر . قال سبط ابن الجوزي : وبلغ الظاهر صاحب
 حلب اغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق ، وجاء الى حارم فهزم
 ابن لاون الى بلاده ، وكان قد بنى قلعة فوق در بساك فاخر بها الظاهر وعاد الى
 حلب . ونازل الملك العادل (٦٠٣) عكا فصالحه اهلبا على اطلاق جمع من الاسرى
 ثم سار الى حمص واستدعي العساكر فأنشده من كل جهة ونازل حصن الاكراد وفتح برج اعزاز
 واخذ منه خمسمائة رجل ثم نازل طرابلس وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها واخذ
 بالامان القليعات قرب طرابلس وخر به حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) .
 واستولى الملك الاوحد ايوب ابن الملك العادل على خلاط ، ووصل للعادل التشریف
 من الخليفة الامام الناصر وتقليد بالبلاد التي تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل
 شاهنشاه ملك الملوك خليل امير المؤمنين ، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس
 وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على حمص وولايتها فانجد الظاهر غازي صاحب
 حلب صاحب حمص فتمنعوا الفرنج عن ولايته .
 وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من اولاده ونزل حران
 ونازل سنجار ثم خاضت العساكر التي صحبته ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب

الصلح معه ، فرحل عن سنجار واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٢) الى دمشق وقصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الاوحد ابن الملك العادل بها وبعد ان نال ملكهم منه حمل ملك الكرج الى الملك الاوحد فرد على الملك الاوحد عدة قلاع وبذل اطلاق خمسة آلاف اسير ومائة الف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط ان يزوج ابنه بالملك الاوحد فتسلم ذلك منه وتحالفوا وتوفي الملك الاوحد من قابل فسار اخوه الملك الاشرف وملك خلاط عاصمة ارمينية الوسطى واستقل بمملكها مضافاً الى ما يده من البلاد الشرقية .

وفي سنة ٦٠٢ ارسل نساء دمشق الى سبط ابن الجوزي العلامة الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل في الادوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاً للخيول وكرفسات ولما صعد المنبر في الجامع الاموي امر باحضارها فحملت على الاعناق وكانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم سافر المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فخرّبوا في البلاد الواقعة تحت حكم الفرنج وقطعوا اشجارها واسروا جماعة منهم ولم يجسر احدهم ان يخرج من عكا وخاف الفرنج فارسلوا الى العادل وصالحهم .

وقبض الملك المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون بأمر الملك العادل متها بمكاتبة الظاهر صاحب حلب ، فقال له المعظم بعد ان لاطفه : انت شيخ كبير وبك نقوس وما تصلح لك قلعة سلم الي كوكب وعجلون وانا اخلفك على مالك وملكك وجميع اسبابك وتعيش معنا مثل الوالد ، فامنع وشم المعظم وذكر كلاماً قبيحاً فلما ايس المعظم منه اعتقله في الكرك واستولى على قلاعه وامواله وذخائره وخيله ، فكانت قيمة ما اخذ منه الف الف دينار . وحبس أسامة في الكرك الى ان مات وامر العادل بتخريب كوكب وتعزية اثرها فخرّبت ، وابقى عجلون وملك المعظم بلاد جهار كس وهي بانياس وما معها لآخيه الملك العزيز عماد الدين ، واعطى صرخد مملوكه عز الدين أبك المعظمي ، واعطى العادل ولده الملك المظفر غازي الرها وميافارقين وفيها استولى الببال القبري على انطاكية فرميت تلك الاعمال منه

بداهية ، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فجمعوا واخذوا عليه المضايق وحمل
في واد فقتلوه وجميع رجاله وطاقوا برأسه في اعمالهم ثم حملوه في البحر الى الملك
العادل بمصر .

واستولى (٦١٢) الملك المسعود بن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن واستولى
ابن لاون الارمني على انطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الملك الظاهر غازي ابن السلطان
صلاح الدين صاحب حلب واوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لانه من بنت
عمه العادل وطلب بذلك ان يستمر الامر له لاجل جده النادل واخواله وارلاده لانهم
ملوك البلاد يومئذ وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين احمد
وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز بن عثمان ، وحلف الامراء والاكابر
على ذلك ، وجعل الحكم في الاموال والقلاع الى شهاب الدين طغريل الخادم ،
وكانت مدة ملك الظاهر لحلب احدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش واقدام على
سفك الدماء ثم أقصر عنه ، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصالحي ولكن
اختلفه مع اخيه الافضل كان من اهم الاسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين
وكان الظاهر ذكياً فطناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت
دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، مزينة بالملوك والامراء ، وكان مستناً الى الرعية ملجأ
الفقراء والغرباء وكهنناً للملئوفين . وفي سنة ٦١٣ كانت الحادثة بدمشق بين أهل
الشاغور والعقبة وحملهم السلاح وتتلهم بالرحبة وركوب العسكر للفصل بينهم
وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة وكان مقيماً به وقبضه جماعة من
مقدمي الحارات .

الحملة الصليبية) بينما كانت داخلية البلاد مشتغلة بالنصب والعزل ونقاتل
الخامسة) ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان اجتمعت الفرنج من
داخل البحر ووصلوا الى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩
— ١٢٢١ م) وكانت مؤلفة من المان ومجر اما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها
الى الشام واستولت (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) على الاستانة فانسخت بذلك الهدنة

بين المسلمين والفرنج فخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج اليه ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع ندامهم الى عقبه فيق فأزاروا على بلاد المسلمين وكانوا في خمسة عشر ألفاً ووصلت غارتهم الى نوى من بلد السواد ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم عدوا الى الطور وقتل منهم ما ثم رجعوا الى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا الى جزين قرب دمشق فانهال عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة اشخاص .

نال المؤرخون : لما قتل كند من اكسادالفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه ورجعوا الى عكا واختلفوا هناك فقال ملك هنكر : الرأي انما نمضي الى دمشق ونحاصرها فاذا أخذناها ملكنا الشام ، فقال الملك النورمان قالوا : انا سمي بذلك لانه كان اذا نازل حصناً نام عليه حتى يأخذه أي انه كان صبوراً على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش لان ايلامه كانت الريش فقال : نمضي الى مصر فان العساكر مجتمعة عند العادل ومصر خالية ، فأدى هذا الاختلاف الى انصراف ملك المنكر مغاضباً الى بلده فتوجهت باقي عساكرهم الى دمياط فوصلوها ، والعادل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره الى مصر . وأمام العادل بمرج الصفر وأرسل الى ملوك الشرق مستحثاً لعساكرهم . ثم سار الفرنج الى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل بن الملك العادل من مصر ونزل قبائلهم وارسل الملك العادل العساكر التي عنده لندفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد ان غرّم المسلمون على بنائها اموالاً كثيرة واشتغلت فيها جيوش وذلك مخافة ان تكون سبباً للاستيلاء على دمشق . ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب وأجلس ابنه العزيز في المملكة وكان طفلاً طمع صاحب بلاد الروم كيكارس في الاستيلاء على حلب وكان موت الملك ونصب طفل من ابناؤه سبباً كبيراً لطمع اعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الملك الافضل صاحب سيمساط وانفق معه كيكارس ان يفتح حلب وبلادها ويسلمها الى الافضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف بن الملك العادل ويسلمها كيكارس وتحالفنا على ذلك فاستولى

كيكاوس على رعبان وسلمها الى الافضل ، فمالت اليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار الى تل باشر فأخذها لنفسه فنزح الافضل منه وتغيرت خواطر أهل البلاد ، ووصل الاشرف الى حلب لنفع كيكاوس عن الملكة ، ووصل اليه بها الامير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم ، وكان كيكاوس سار الى منبج وتسلمها لنفسه ، وانقح بعض عسكر الاشرف مع عسكر كيكاوس فانهمزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً ، ثم حاصر الاشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها وتوجه الافضل الى سميساط . وفي هذه السنة ورد الامر الى العتد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب قصر حجاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا الى القلعة ونغريق اراضيها بالماء فان الفرنج مظنون قصدها . والنقى المعظم بالفرنج على القيمون فنصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

* * *

توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمرج الصفر وقد ارسل العساكر الى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً عزيز العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة ، صبوراً حليماً يسمع ما يبكره ويغضي عنه ، وأنه السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته ، وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات ، ورأى في اولاده ما يجب « ولم ير احد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في اولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في اولاده » وقد خلف العادل آثاراً مهمة في البلاد التي تولاه لا يزال بعضها ماثلاً في البلاد ، وطهر جميع ولاياته من الكرخ الى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والحمور والخواطي والقار والمخائث والمكوس والمظالم وكان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة الف دينار . واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة وساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد ايقاع اخيه بهم وتشنت كلمة أبناء صلاح الدين . ولما ملك العادل لم يكن عنده احد من اولاده حاضرراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان بنابلس وكنم موته ، وأخذ ميتاً في محفة وعاد به الي دمشق ،

واحتوى المعظم على جميع ما كان لابييه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان في خزانته سبعمائة الف دينار ، وحلف له جميع الناس وكتب الى الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، ولما بلغ الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض ائقال المسلمين ، وكان في العسكر عماد الدين احمد المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الاكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على منارفة البلاد والحقق باليمن . وبلغ الملك المعظم ذلك رحل من الشام ووصل الى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر الى الشام فانظم امر الملك الكامل ، وقويت مضايقة الفرنج لدمياط وضعف اهلها بسبب الفتنه التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين اولاده فجعل بمصر الكامل محمداً وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنة المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميفارقين وخالط واعمالها لابنه الاشرف موسى ، واعطى الرها لولده شهاب الدين غازي ، واعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه . فلما توفي ثبتت كل منهم في المملكة التي اعطاه اياها ابوه وانفقوا انفاقاً حسناً ولم يبر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين اولاد الملوك بعد آباءهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه . قال ابن الاثير : « فلا جرم زاد ملكهم وراوا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره ابوه ، واعمرى انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام » .

ودخلت سنة ٦١٦ والملك الاشرف مقيم بظاهر حلب يدير امر جندها واقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لثغر دمياط ، وكتب الكامل متواصله الى اخوته في طلب النجدة ، ثم سقطت دمياط في ايدي الفرنج ، فأرسل الملك المعظم عيسى وخرّب اسوار القدس مخافة ان يصيبها ما اصاب دمياط ، ولما استولى الفرنج على دمياط عظم الامر على آل ايوب ، فكتب المعظم الى الواعظ

سبط ابن الجوزي : أريد ان تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على اخوانهم
 أهل دمياط ، واني كشفت ضياع الشام فوجدتها التي قرية منها الف وستائة
 املاك لانها وأربعائة سلطانية ، وأريد ان تخرج الدماشقة ليزدبوا عن املاكهم
 الاصاغر منهم والاكابر . فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا ، فأخذ ثمن الخمس
 من أموالهم لثقتاعسهم ، ثم فتح المعظم قيسارية وسار الى الزهر ففتحته وهذه وشرب
 في بلاد الفرنج .

* * *

فتح الصليبيين دمياط } وفي سنة ٦١٨ قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في
 وذلكهم بعد العزة } مدينة المنصورة التي بناها الكامل ، وأشد الناس
 بين الفريقين برأً وبحراً وكتب الملك الكامل الى اخوته وأهل بيته لتحثهم على تجاده
 فسار الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف صاحب البلاد الشرقية عسكر
 حلب وصاحب حماة وصاحب بعلبك وصاحب حمص فوصلوا القطر المصري والتال
 مشد بين المسلمين والفرنج ، ورسل الملك الكامل واخويه مترددة الى الفرنج في الصلح
 وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبله وجميع ما فتحه
 السلطان صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك ، على ان يجيبوا
 الى الصلح ويسلموا دمياط الى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك وطلبوا ثمانمائة
 الف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس ، وقالوا لا بد من تسليم
 الكرك والشوبك .

وبينا الامر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر الخلة الى
 الارض التي عليها الفرنج من بر دمياط فنجروا فجرة عظيمة من بحر النيل ، وكان
 ذلك في قوة زيادته ، فركب الماء تلك الارض وصار خائلاً بين الفرنج وبين دمياط ،
 وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الامان على ان ينزلوا عن جميع ما بذله
 المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح . فنجت بلاد الشام بل بلاد مصر
 من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث
 يقدرن منازلهم ومنازلهم ، فخابت آلامهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيعون

عليهم و يشتطون في مطالبتهم . وكانت مدة اقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً .
ولما انكسر الفرنج على دمياط واسر ملكهم سان لوي وثلاثون الفاً من رجاله دخل الناس كما قال ابن ابي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومعهم المغاني والمطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال : . وبلغني ان النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالي وامر اليهود بصفعهم وضربهم واهانتهم .

* * *

اختلاف بين لبناء العادل) وقصد الملك المعظم عيسى حماة لان الملك الناصر
ونقدم الكامل عليهم) صاحبها كان قد التزم له بمال يجمعه اليه اذا
ملك حماة فلم يف ، ونزل بعين وغلقت ابواب حماة فجري بينهما قتال قليل . ثم ارتحل
الملك المعظم الى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه الى المعرة فاستولى
عليها . وبلغ الملك الاشرف ما فعله اخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك وانفق
مع اخيه الكامل على الانكار على الملك المعظم وترحيله فارسل اليه الكامل ناصح الدين
الفارسي فوصل الى الملك المعظم وهو بسلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال :
السمع والطاعة ، وكانت اطاعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضباً ،
وتسلم المظفر سلمية من اخيه الملك الناصر ، واستقر بهد هذا حماة والمعرة وبعين ،
ثم سار الاشرف من مصر واستحب معه خلعة وسناجق سلطانية من اخيه الكامل
للملك العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين ، ووصل الاشرف بذلك الى حلب واركب
العزيز في دست السلطنة ، ولما وصل الاشرف بالخلعة الى حلب انفق مع كبراء الدولة
الحلبية على تزيين قلعة اللاذقية فارسلوا عسكرياً وهدموا الى الارض .
كان الملك الاشرف انعم على اخيه الملك المظفر غازي بخلاط الارمنية وهي مملكة
عظيمة وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين اخويه الكامل
والاشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة ، أرسل المعظم وحسب لـ لاخيه المظفر
غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الاشرف ، فأجاب المظفر الى ذلك وخالف

اخاه الاشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمنظف غازي صاحب اربل مظفر الدين
كوكبوري بن زين الدين علي كجك ، وكان بدر الدين لولو منتمياً الى الاشرف فسار
مظفر الدين وحصر الموصل عشرة ايام ليشغل الاشرف عن قصد اخيه بخلاط ، ثم
رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها وسار الاشرف الى خلاط وحصر اخاه
شهاب الدين غازي فسلمت اليه مدينة خلاط ، وانحصر اخوه غازي بقلعتها الى الليل
فنزل من القلعة الى اخيه الاشرف واعتذر اليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على
ميافاارقين وارنجع باقي البلاد منه .

وذكر ابن شامة في حوادث سنة ٦٢٠ ان الاشرف بن العادل عاد من مصر
الى الشام فاصداً بلاده بالشرق فانتماه اخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول
بالقلعة فامتنع . وبعد ان ذكر كيف عما اخوه عليه في خلاط قال : انه كتب الى
اخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء اليه فكتب اليه : يا اخي لا تفعل
انت ولي عهدي والبلاد والخزان بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الاعداء
فوالله ما ينفعوك ، فأظهر العصيان فجمع الاشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير
الى خلاط وكان صاحب حمص قد مال الى الاشرف فسار المعظم الى حمص ووصل
الى حماة ونزل على بعربين فأقطع بلاد حماة وعاد الى حمص وخرج اليه
العسكر فظفروا عليه ونهبوا اصحابه فعاد الى دمشق ولم يظفر بطائل .

وتوفي الملك الافضل (٦٢٢) نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف
وايس يده غير سمي ساط وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والاخلاق الحسنة
وكان مع ذلك قليل الحظ وله شعر جيد .

وفي سنة ٦٢٢ كان بأبدي الاسماعيلية بالشام ثمان قلاع وهي قلعة الكيف
والعلية والقدموس والحواشي والميقة ومصيف والرصافة والنليعة فان ابن صباح
لم يمت حتى ملك بالشام جبل عاملة وتلك الحصون . قال ابن ميسر : ان الذين بالشام
منهم يقال لهم الحشيشية ، ومن كان بالموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان
بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية .

وفي سنة ٦٢٣ سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص

وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص الى دمشق وورد عليه اخوه الاشرف طلباً للصلم وقطعاً للفنن فيقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كلاً سيرا معه ولما رأى الاشرف حاله مع أخيه المنظر وأنه لا خلاص له منه الا باجابته الى ما يريد أجابه (٦٢٤) كما ذكره الى ما طلبه منه وحلف له ان يعاضده ويكون معه على اخيهما الكامل ، وان يكون معه على صناعي حماة وحمص فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم . قال ابن الاثير : ان انفساق الملوك اولاد الملك العادل ابي بكر بن ايوب كان سبباً لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس اجمعون بذلك . وفي سنة ٦٢٤ قدم رسول الانبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم (بدمشق) بعد اجتماعه بالكامل يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين فأغظ له وقال : قل لصاحبك ما انا مثل العزيز ما له عندي الا السيف .

ولما استقر الاشرف ببلاده رجع عن جميع ما نقرر بينه وبين أخيه المعظم ، وتأول في أيمانه التي حلفها انه مكره ، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك ، وكتب الانبرور ملك الفرنج في اب يقدم الى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الانبرور ان يعطيه القدس ، فسار الانبرور الى عكا فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الاشرف واستمطنه .

قال ابن الاثير : ان الكامل لما سار من مصر الى دمشق خاف المعظم ان يأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الاشرف يستنجده ، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريداً فدخل دمشق ، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد حاربه من يمنعه ويحميه ، وأرسل اليه الاشرف يستمطنه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق الا طاعة وموانة لا غراضه والانفساق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول : انني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنهم عما يريدونه ، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا ، وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على نقضي الاجصار وعمر الايام ، فان أخذته الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا ، واي وجه يبقى لنا عند الناس وعند

الله تعالى ، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون الى غيره ، وحيث قد حضرت
انت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ، ولست بالذي يقال عني اني قاتلت
اخى او حصرته حاشا لله تعالى وتأخر عن نابلس الى الديار المصرية .
واتزرع هذه السنة الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح احمد ابن
الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب والراوندات وفيها توفي الملك المعظم عيسى
ابن العادل وكان شجاعاً عالماً وعسكره في غاية التجميل يجامل أخاه الملك الكامل ويحطب
له ببلاده ولا يذكر اسمه معه ولا يجب التكف والعظمة . ذكر سبط ابن الجوزي :
ان المعظم كان في ايام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا
وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس
علامات ، وكان له في عكا أصحاب أخبار واكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في
قبالة الكرمل فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة
فارس او قدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون
قصد حوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان
قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة .
وترتب في مملكة المعظم واعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكته
مملوك والده واستأذ داره الامير عز الدين ابيك المعظمي وكان لا يبك صرخد .
ولم يظل الامر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر
حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا اجابه اليه ، فسار الملك الكامل من مصر
الى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولي على نابلس والقدس وغيرهما من
بلاد ابن اخيه الملك الناصر داود ، فاستجد الناصر بعمه الملك الاشرف لجهاد من
بلاده الشرقية فوقع الاتفاق ان يسير الناصر داود والملك المجاهد شيركوه مع الملك
الاشرف الى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، ويتوجه الاشرف الى اخيه الكامل
الى غزة ، شافعاً في ابن اخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك ، ولما وصل الاشرف الى
اخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على اخذ دمشق من ابن اخيهما الناصر داود ،
وتعويضه عنها بجران والرها رازقة من بلاد الاشرف ، وان تستقر دمشق للاشرف

ويكون له الى عقبه فيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل . وان ينتزع حماة من الناصر فليج ارسلان ويعطي المنظر محمود بن الملك المنصور ، وان ينتزع سلمية من المنظر محمود وكانت اقطاعه ويعطي لشيركوه حمص . ووقعت سنة ٦٢٥ وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة انفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لترك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة .

* * *

الحملة الصليبية السادسة
وهذه هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩م) وكانت
بزعامة الانبرور فريدريك الثاني وكان سياسياً داهية فلم
يدخل في حرب مع المسلمين بل فاوض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصر لمدة
عشر سنين واليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الانبرور فريدريك صاحب صقلية وبولية وانكبرديه على صيدا ،
وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا عليها ،
وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما . وبتنا كانت
الرسل تتردد بين الملك الكامل وبين الانبرور رحل الناصر داود وهو يتابلس الي
دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الاشرف وعرفه ما امر به عمه الكامل ، وانه
لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر الى ذلك فسار الاشرف في اثره
وحصره بدمشق ، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الجديد وفي
الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لاهل دمشق ، ووقع الحريق والنهب في باب توما ،
وأحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد ايام قريات
من قرى الغوطة وأخرجوا منها اهلهما مثل جوبر وجديا وزملكا وسقبا وغيرها .
قال في النيل : وتمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصار المتقدم
في دولة اولاد صلاح الدين يحكمون انهم ما رأوا اشد من هذا الحصار وفي هذا
الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة اسد الدين وحاتقاه خاتون وما يليهما من الخانات
والدور والبساتين والحمامات والحقاها .

طالب الامر ولم يجد الملك الكامل بدأ من المهادنة فأجاب الانبرور الي تسليم

القدس اليه ، على ان تستمر اسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج ، ولا يتعرضوا الى قبة
الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ، ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين و يكون
لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا الى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك
وتحالفوا عليه وتسلم الانبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت
العظام ، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء يا حجلة ملوك المسلمين لمثل هذه اسنادثة .
قال ابن ابي شامة : جاءنا الخبر بان الكامل اخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه الى
الفرننج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ،
وكان هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سبباً في ان توغرت قلوب
اهل دمشق على الكامل ومن معه ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة . وقد ذكر سبط
ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين اذ ذاك قال ما نصه : كان الكامل
قد تقدم الى القاضي شمس الدين قاضي نابلس ان يأمر المؤذنين ما دام الانبرور في
القدس ان لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم ، فأبى القاضي ان يعلم المؤذنين وصعد
عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والانبرور نازل في دار القاضي فجعل
يقرأ الآيات التي تخص بالنصارى مثل قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ذلك عيسى
ابن مريم » ونحو هذا فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : ايش عملت
السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد
الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الانبرور القاضي وكان قد دخل القدس في
خدمته وهو الذي سلم اليه القدس فقال له : يا قاضي اين ذاك الرجل الذي طلع
البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه ابن السلطان ارضاه ، فقال الانبرور :
اخطأتم يا قاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي
هل ابطل ضرب الناقوس لاجلكم ، الله الله لا تفعلوا هذا ، اول ما تنقصون عندنا ،
ثم فوق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة اعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يبق
بالقدس سوى ليلتين وعاد الى يافا وخاف من الداوية فانهم طلبوا قتله .

وكان هذا الانبرور مثل اكثر ملوك ايطاليا يحسنون العربية فان فريدريك
هذا مثل غلبام الذي ذكر ابن جبير انه كان يحسن العربية كان كثير الثقة

بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم امراء دولته ، وهو يتشبه بامراء المسلمين ويعني بالعلماء كما كان يعني روجر . ملك تلك البلاد بالعلم وهو الذي قدم له الشريف الادريسي كرة ارضية من الفضة وافضل عليه كثيراً .

اختلافات جديدة بين
آل العادل
بعد ان « أُحيط بدمشق من كل جانب وحل بها
من الخراب والفساد العجائب » واشتد عليها الحصار
عرض الناصر داود عنها بالرك وابلقاء والملك والاعوار والشوبك ، واخذ الكامل
لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر وهي حراب والرأها وغيرهما التي
كانت بيد الاشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها
فقبلها ، وتسلم دمشق الاشرف ، وتسلم الكامل من الاشرف البلاد الشرقية المذكورة
ولما سلم الملك الكامل دمشق الى اخيه الاشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج
ثم نزل على سلمية وارسل عسكرياً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج ارسلان وكان
فيه جبن . وكان في العسكر الذين نزلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم اليه
راخذه الى الملك الكامل وهو نازل على سلمية فشمته وامر باعتقاله وان يتقدم الى نوابه
بحماة بتسليمها الى الكامل ، فارسل الناصر قليج ارسلان علامته الى نوابه بحماة ان
يسلموها الى عسكر السلطان الملك الكامل ، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد
المنصوريان ، وكانت بقاعة حماة اخ للملك الناصر يلقب الملك المعز بن الملك المنصور
صاحب حماة فدكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل : لانملك حماة لغير احد من اولاد
نقي الدين . فارسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة اتفق مع غلمان
ايك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكامل فواصل المظفر
الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا المظفر ان يحضر بجماعته خاصة وقت السحر الى باب النصر
ليفتحوه له فدخل البلد وتسلم القاعة ، وفوض تدبير حماة الى الامير سيف الدين علي
الهدباني ، ولما استقر المظفر في ملك حماة اتزع الكامل سلمية منه وسلمها الى شيركوه
صاحب حمص ورسم الكامل لاختيه المظفر ان يعطي اخاه الناصر قليج ارسلان بعرب
بكالها ، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعرة ، ثم رحل الكامل عن سلمية الى البلاد

الشرقية التي اخذها من اخيه الاشرف عوضاً عن دمشق وارسل الاشرف اخاه صاحب
بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بهامك وبها صاحبها
الملك الامجد بهرام شاه ، ولما طال الحصار عليها سلمها الامجد ، وعوضه الاشرف عنها
الزبداني وقصير دمشق ومواقع أخر . وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده
واعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في
ولاية بارين فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ .

وفي سنة ٦٢٧ شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد
الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل .
وفيها جمعت الفرنج من حصن الاكراد وقصدوا حماة فخرج اليهم صاحبها المظفر محمود
والنظام عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها افيون وكسروهم كسرة عظيمة .

وفي سنة ٦٢٨ سار الكامل من مصر الى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك اهل بيته
في جمع عظيم ثم سار بهم الى آمد وحصرها وآلمها من صاحبها المسعود بن الملك
الصالح محمود ، وكانت سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه
لحریم الناس ، وحاصر المظفر صاحب حماة اخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً
من ان يسلمها للفرنج لضعفه عنهم ، وانتزعها منه واكرمه وسأله الاقامة عنده بحماة
فسار الى أخيه الكامل في مصر . وسار الكامل من مصر (٦٣١) الى قتال كيباز
ملك الروم وقد استصحب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام والجزيرة من اخرته
وآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهمزم العسكر الكامل على خرتبرت ، وذلك
لان الملوك الذين في خدمته خا مروا عليه (خاتلوه) ونقعدوا عن الحرب لان شيركوه
صاحب حمص سعى اليهم وقال : ان السلطان ذكر انه متى ملك بلاد الروم فرقها
على الملوك من اهل بيته عوض ما بايدهم من الشام ، يأخذ الشام جميعه لينفرد بملك
الشام ومصر ، فنقعدوا عن القتال وفسدت نيابهم فرجع الكامل الى مصر وعاد كل
واحد من الملوك الى بلده .

وفي سنة ٦٣٣ سار الناصر داود من الكرك الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة المستنصر
لما حصل عنده من الخوف من ٤٦ الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع

حمران والرثا من كيقباز صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن بلاده ، وبدأت في هذه السنة طلائع الشر . قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب حميد صلاح الدين يوسف بن ايوب وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة واشهر وتقرر في الملك بعده . ولده الملك الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الارمني وعن الدين عمر بن مجلي وجمال الدين اقبال الخاتوني ، والمرجع في الامور الى والدة العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . ذكروا انه لما ولدت ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ابنها العزيز هذا في سنة عشر بعد الستمائة بقيت حلب شهرين مزينة والناس في اكل وشرب ولم يبق صنف من اصناف الناس الا افاض عليهم السلطان النعم ووصلهم بالاحسان وسير الى المدارس والخوانق الغنم والذهب وامرهم ان يعملوا الولايم ثم فعل ذلك مع الاجناد والعلماء وعمل للنساء دعوة مشهودة اغلقت لها المدينة واما داره بلقعة فزينها بالجواهر واداني الذهب ولما ختن ولده قدم له نقادم جليلة فلم يقبل منها شيئاً رفقا بهم لكن قبل قطعة سمندل ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت واولقوها حتى نفذ الزيت . وفي ذلك برهان جلي على رفق آل ايوب برعيتهم وحبهم لهم . وقويت الوحشة بين الكامل وبين اخيه الاشرف ، وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فانفق الملك الاشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون اخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امنع تهدده الملك الاشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك الى دمشق ، وحلف للملك الاشرف ووافق على قتال الكامل وكاتب الاشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال اخيه الكامل ان خرج من مصر . وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعد ما فتحها صلاح الدين يوسف وخربها واشرف عسكر حلب على اخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب انطاكية ، ثم ان الفرنج اغاروا على ريف دريساك وهي حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منزمين وكثير

فيهم القتل والاسر وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤوس الزنج وكانت هذه الواقعة من اجل الوقائع .

توفي الملك الاشرف (٦٣٥) وتملك دمشق بعده اخوه الملك الصالح اسمعيل بعهد منه . قال ابوالفداء : وكان الاشرف مفرط السخاء يطلق الاموال الجلييلة النفيسة ، وكان ميمون القبسة لم تنهزم له راية ، وكان سعيداً وبتفق له اشياء خارقة للعقل . وعلل الاشرف سبب الوحشة بينه وبين اخيه الكامل صاحب مصر ان الاشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لانفي بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم اخيه الكامل الى دمشق ، ولما فتح الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئاً ، وبلغه ان الكامل يريد ان ينفرد بمصر والشام ويتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ولما بلغ الكامل في مصر وفاة اخيه الملك الاشرف سار الى دمشق وكان الملك الصالح اسمعيل قد استعد للحصار ووصلت اليه نجدة الخليليين وصاحب حمص فبازل الكامل دمشق واخرج الملك الصالح النفاطين فاحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات واسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين رجلاً نجدة للصالح اسمعيل فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الكامل على دمشق ارسل توقيعاً للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الملك الصالح اسمعيل دمشق الى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً الى بصرى . قال ابن ابي شامة في هذا الحصار : انه كان اكثر خراباً في ظاهر البلد وحريراً ومصادرة واقل غلاء ولم تطل مدته فان الصلح جرى ووافق اليوم الذي كسرت فيه الزنج على دمياط واليوم الذي فتح فيه آمد .

وفاة الملك الكامل) توفي الكامل بدمشق هذه السنة (٦٣٥) بعد ان حكم
وحال الشام بعده) في مصر نائباً وملكاً نحو اربعين سنة ، واشبه حاله حال
معاوية بن ابي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين . وكان
الكامل ملكاً جليلاً مهيئاً حازماً حسن التدبير امنت الطرق في ايامه وكان مباشراً
تدبير المملكة بنفسه . قال ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، محباً
للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد ، معاشرراً الارباب الفضائل حازماً في

اموره ، لا يوضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا افتقار . وكان يخطب له بمكة : « مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصغيدها ، والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها ، سلطان القبليتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل ابو المعالي ناصر الدين محمد خليل امير المؤمنين » .

وكان مع الكامل بدمشق الملك الناصر داود صاحب الكرك فانمقت آراء الامراء على تحليف العسكر للملك العادل ابي بكر بن الكامل ، وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فخلف له جميع العسكر واقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل نائباً عن العادل ابي بكر بن الكامل ، ونقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه ان اقام فرحل الى الكرك ونفرت العساكر . وارسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة ، وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فبست بساقيها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسدته مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين .

لمبالغ الحلبيين موت الكامل انفق آراؤهم على اخذ المعرة ثم اخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقة الملك الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب الى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحصروا قلعتهما ، وخرجت المعرة عن ملك المظفر ، ثم سار العسكر الحلبى ونازلوا حماة ونهبوا بلادها ، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبهرين خاف ان تخرج بهرين بسبب قلعتهما فتقدم بهدمها فهدمت الى الارض .

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس التتوي على دمشق . مضاف بين جينين ونابلس ، انتصر فيه الجواد يونس وانهزم الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الواقعة وكان في عسكر مصر والشام وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر واثقاله . واستولى الملك الصالح ايوب بن الكامل على دمشق واعمالها بتسليم الجواد يونس واخذ العوض عنها سنجار والرقعة وعانة ، ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه الى مصر ليملكها فذهب وجعل نائبه في دمشق ولده الملك المعني فتح الدين عمر وكان الجواد لما بش من ملك الشام فرق الضياع على الامراء وخلع عليهم ، وفرغ الخزانين وكان

فيها تسعمائة الف دينار . وفي رواية انه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف الف دينار
 وخلق خمسة آلاف خلعة .

وفي سنة ٦٣٧ هاجم الملك الصالح اسمعيل صاحب بعلبك وبعه شيركوه صاحب
 حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخرت بذلك دور ومدارس تحت القلعة ثم تسلّم
 الصالح اسمعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين ايوب حمص ولما بلغ الصالح ايوب
 استيلاء عمه اسمعيل على دمشق رحل من نابلس الى الغور وكان هناك قاصداً الى مصر
 للاستيلاء عليها ففسدت زيات عساكره عليه وشرعت الامراء ومن معه من الملوك
 يحركون تقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح ايوب الى الصالح اسمعيل بدمشق ، فلم يبق
 عند الصالح ايوب بالغور غير مماليكه فاصبح لا يدرى ما يفعل ولا له موضع يقصده
 فامسكه الناصر داود صاحب الكرك واغنقله عنده مجبلاً . وقصد الناصر داود القدس
 وكان الفرنج قد عمزوا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وضرب
 برج داود . وتوفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك
 حمص نحو ست وخمسين سنة ملكه اياها صلاح الدين يوسف .

انقراض الايوبيين

« وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر »

— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —



ظهور الخوارزمية } بينما كان ابناء ايوب يتقاتلون على الملك والصليبويوب قد
أخذوا الى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم واكتفوا
بما ملكوه من مدن الساحل والقدس ، جاء الخوارزمية يعيشون في البلاد ويروعون
أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . والخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي احد
ملاوكم الذي استولى على ايران والعراق وأذربيجان وكرجستان وكانت عاصمة ملكه
تبريز . جاؤا سنة ٦٣٤ الى البلاد الشرقية فاستخدمهم الملك الصالح ايوب بن الكامل
وكان في آمد وحمص كيفا وحران وغيرها نائباً عن ابيه جاؤا بعد ان قتلوا ملكهم
الى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين ، فلما مات كيقباز
وتولى ابنه كينسرو قبض على بركت خان اكبر مقدميهم ، فنارقت الخوارزمية حينئذ
خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم ، فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين
ايوب بن الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال
هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المنظر .
كثرت عيث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح ايوب البلاد الشرقية وساروا
الى قرب حلب (٦٣٨) فخرج اليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح

الدين ووقع بينهم القتال فانهمز الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير ، منهم الملك الصالح بن الافضل بن السلطان صلاح الدين ، وأسر مقدم جيش المعظم ، واستولى الخوارزميون على انتقال الحلبين وأسروا منهم عدة كثيرة . وكانوا يقتلون بعض الأسرى ليشتري غيره نفسه منهم بما له فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً . ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان وكثير عيشتهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا الأقوات التي في القرى ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار ، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه النتر ، ثم سار الخوارزمية الى منبج وهجموها بالسيف وفعولوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا الى بلادهم وهي حران وما معها . ووصلوا الى الجبول ثم الى تل عزاز ثم الى سرمين ودخلوا دار الدعوة المنسوبة الى الاسماعيلية وادفوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، وقد جنف الناس من بين أيديهم .

وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبين ، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية الى جهة حماة ولم يتعرضوا الى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر الى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية الى سلمية ثم الى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان اليهم ولحقهم العرب فألقت الخوارزمية ما كانت معهم من المكاسب وسبوا الأسرى .

ووصلت الخوارزمية الى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص فاطع صفيين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم الى الليل ، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا الى حران فسار عسكر حلب الى البيرة وقطعوا الفرات منها ، وقصدوا الخوارزمية وانقعدوا قريب الرها ، فولى الخوارزميون منبزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أفيقتهم يقتلون ويأسرون . ثم سار عسكر حلب الى حران فاستولوا عليها ، وهربت الخوارزمية الى بلد عانة وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الي

نصیبین ودارا و كانت للخوارزمية فاستولى عليهما ، وخلص من كان بهما من الاسرى ، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الخلبين ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين ومامع ذلك . واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الحسايبور ثم سار عسكر حلب ووصل اليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم بن الملك الصالح ايوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم .

* * *

كان الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل	} اختلاف بني ايوب واعتضاد بعضهم الفرنج وعودة الخوارزمية
قد استولى بمد ملك دمشق على سنجار وعانة ، فباع	
عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو	

صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب عنها فاستولى عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء ، فسار على البرية الى غزوة وارسل الى الملك الصالح ايوب صاحب مصر يسأله في المصير اليه فلم يجبه الي ذلك فسار يونس حينئذ ودخل الى عكا ، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالاً للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعنقه ثم خنقه (٦٣٨) .

وكان قد قوي خوف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيه الصالح ايوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح اسماعيل صند والشقيف الى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن اخيه صاحب مصر مما لم يهد له مثال في تاريخ بني ايوب حتى الآن اللهم الا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر الملك الفرنج سنة ٦٢٤ في ان يقدم الى عكا ليشغل سر اخيه المعظم عما هو فيه ووعد له باعطائه القدس ، وكان ذلك خديعة من الكامل ل اخيه المعظم حتى لا يستنجد باحد من ملوك الاطراف عليه اذ لم يتم شيء من ذلك . وقد انكر على الصالح اسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بامشق فعزلا من وظائفها وسجنوا بقلعة دمشق .

وكان في سنة ٦٤٠ مضاف بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور ابراهيم صاحب حمص وذلك بالقرب

من الخابور فانهزم الخوارزمية وصاحبهم اقيج هزيمة ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهبت وطائفت (١) الخوارزمية ونساؤهم . وتوفيت هذه السنة ضينة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل ، وكانت تصرفت في ملك حلب تصرف السلاطين وقامت بالملك احسن قيام ، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه انه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف اليها ، والمرجع في الامور الى جمال الدين اقبال الاسود الخصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت النتر بلاد صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالخلاطين فأرسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم والحلبيون . وسار الصالح وحاصر عجلون وقتل من عسكره يوم انزحف عليها فوق المائتين وغرم اربعمائة الف دينار على هذه الحملة ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح ايوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح ، وانفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما ايضاً الى الفرنج عسقلان وطبرية فعمر النرنج قلعتهما وسلما ايضاً اليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) الى غزة باستدعاء الملك الصالح ايوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والزوج الى اطراف بلاد دمشق حتى وصلوا الى بلاد غزة ودمروا بيت لحم ، ووصل اليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية ، وأرسل الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع شيركوه صاحب حمص ودخل عسكراً فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه انفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر وكان اعطاهم الشقيف فخرجت الفرنج بالفارس والراجل ، واجتمعوا ايضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك والنقي الفريقات بظاهر غزة فانهزم الفرنج فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل ان القتلى زادوا على الثمانمائة وانه اسر من الفرنج ثمانمائة . قال ابن ابي شامة : كسرت الفرنج ومن انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة في عسقلان وغزة وغنم منهم اموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق

(١) الوطاق الخيمة او مجموعة الخيام والمعسكر .

من ملوکهم وکبرائهم وقتل منهم مقنلة عظيمة . واستولى الملك الصالح ایوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم ارسل باقی عسکر مصر مع معین الدین بن الشیخ واجتمع الیه من بالشام من عسکر مصر والحوارزمية وساروا الى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسمعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ولما ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح اسمعيل وزیره امین الدولة على العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن اخيه فلم يجب الخليفة الى ذلك . وتسلم عسکر الملك الصالح ایوب دمشق من الصالح اسمعيل بن الملك العادل على ان يستقر بهد الصالح اسمعيل بعلبك وصرى والسواد وتسقر حمص وما هو مضاف اليها بعد صاحبها . ثم ان الحوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح ایوب فانهم كانوا يعتقدون انهم اذا كسروا الصالح اسمعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات ما يرضي خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح ایوب وصاروا مع الملك الصالح اسمعيل ، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحاصروها فقاى اهلبا شدة عظيمة . قال الذهبي : اشتد البلاء بدمشق واحترقت العقبة والخوانيق ، ودام الحصار والويل خمسة اشهر ، وهلك العوام موتاً وجوعاً وقتل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح الفاً وستائة درهم وابع الخبز كل اوقيتين بدرهم واكلوا الميتة وابعت الاملاك والامتعة بالشيء اليسير ، وابع رطل اللحم بتسعة دراهم ، واثنت البلد بالموثى على الطرق ، وعظم الخطب واولئك يقاتلون على الملك ، والنجور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة . وقال غيره : وقطعت الحوارزمية على الناس الطرق وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً ، وبعث الصالح اسمعيل الزرقين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان الى العقبة بأسرها ، ونهبت اموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي : انه احرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة ، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من باي الجابية والصغير ، ونصبت مناجيق ايضاً من داخل البلد ، وتراعى الفريقان وامر بتخريب عمارة العقبة خارج باب الفراديس وباب السلامة وباب الفرج واحرق حكر السماق وخارج باب النصر . وارسل الصالح اسماعيل

فأحرق جوسق والده العادل . قال المؤرخون : وجرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلها قط .

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة ٦٤٢ اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الامير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض للمنتقام ، واستنجد بالامير عبد الله بن الامير سيف الدين المعني فجمع اهالي الشوف وسار الى نجدة الامير عامر والنقى الجمعان في مرج الخيام وصدمتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام ، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا اعلامهم وولوا مدبرين ، وعظمت بعد ذلك امارة الامير عامر واشتهرت صولته واخذ قطائع في البقاع وانشأ فيها مغارات عديدة .

وفي سنة ٦٤٤ انفق الخلبون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح ايوب بن الكامل وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحلابين وصاحب حمص والنقوا على بحيرة قدس فانهمزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها ، ومضت طائفة من الخوارزمية الى التتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة ونفروا في الشام وخدموا به .

وسار الملك الصالح اسمعيل صاحب دمشق الى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به وارسل الصالح ايوب صاحب مصر يطلبه فلم يسلمه الناصر اليه ولما جرى ذلك رحل حسام الدين الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق ، ونازل بعلبك وبها اولاد الصالح اسمعيل وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل اولاد الصالح اسمعيل الى الصالح ايوب بديار مصر فاعنقوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح اسمعيل فاعنقل فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها فارسل صاحب مصر عسكراً مع نجر الدين يوسف ابن الشيخ الى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى نجر الدين على جميع بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح ايوب عجلون ايضاً .

وفتح (٦٤٥) نجر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرتها مدة وكان

عمّرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة ٦٤١ . وسلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح ايوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام . وفي سنة ٦٤٦ ارسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لولو الارمني فحاصروا الاشرف بحمص فسلمهم اياها وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما يهده من تدمر والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح ايوب شق عليه وسار من مصر الى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ونصب عسكريه عليها منجنيقاً مغرباً يرمي بحجر زنته مائة واربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أخر ثم رحل عنها لمرض عرض له ولوصول الفرنج الى دمياط ولجئ رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح ايوب والحلبين وان تسنقر حمص بيد الحلبيين . ثم استولى الصالح ايوب على الكرك اعطاه مناتيحها الامجد فوهبه خمسين الف دينار .

* * *

وفاة الملك الصالح } توفي الملك الصالح ايوب في سنة ٦٤٧ وكان ملك مصر
ومبدأ دولة المماليك } والقسم الاعظم من الشام قال ابو الفداء : وكان مهيأً عالي
الهمة عفيفاً شديد الوفاق والصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من اهل بيته ،
حتى كان اكثر امراء عسكريه مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه
وسماه البحرية ، وهؤلاء كانوا اول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من النلس والقوا
دولة المماليك البحرية . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك الى احد فأحضرت شجرة الدر ،
وهي جارية الملك الصالح ، نغر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسنًا وعرفت بها بموت
السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج ، وجمعت شجرة الدر الامراء وقالت لهم :
السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بخصن كيفاً
فجاء وتسلم ملك مصر الا ان مدته لم تطل اكثر من شهرين وأياماً فقتله المماليك
البحرية الذين أنشأهم والده ، وكان اول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار
سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر ، والسبب في قتله انه أطرح جانب امراء ابيه
ومماليكه واعتمد على بطانته التي وصلت معه من خصن كيفاً وكانوا أراذل . وأقام
رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت

السكة باسمها ، وأرسل المصريون رسولا إلى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا اليه ، وكاتب الامراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب فسار اليهم وملك دمشق وعصت عليه بعليك وعجلون وشميميس مدة ثم سلت جميعها اليه ، ولما ورد الخبر بذلك الى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل الى الحلبيين .

لا جرم ان مقتل الملك المعظم توراثناه بيد بيترس البندقداري والماليك ажرية بمصر كان مبدأ زوال الدولة الايوبية من مصر والشام ، فان الاختلاف بين آل هذا البيت الذي تسربت الى أبنائه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد ان يستأثر بالامر دون اخيه او عمه او ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصلبيين لينجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك ، دعا الى نفي أوصال المملكة ، وان كان أكثر أسرة صلاح الدين ابن أيوب وأخيه ابي بكر بن أيوب على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الاخضر واليابس وعدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضة . فصارت المملكة بيد الماليك في الحقيقة وكان الذين أنشأهم الملك الصالح أيوب اشبه بالمعتصم العباسي في اصطناعه مماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح أدخل الوهن باصطناع الماليك حتى قضوا على الدولة الايوبية .

وكان الملك السعيد بن العزيز صاحب الصببية قد سلمها الى الملك الصالح ايوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصببية فسلمت اليه وتسلم الكرك والشوبك الملك المغيث فتح الدين عمر . ووقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الناصر صاحب حلب فاستولى الحلبيون على نصيبين ودارا وقرقيسيا .

وانفق كبراء الدولة في مصر على اقامة امير الجيوش ابيك الجاشنكير في السلطنة لئلا نفسد الامور اذا استقر امر المملكة في يد امرأة . وبين وفاة ضيفة خاتون صاحبة حلب وتملك شجرة الدر صاحبة مصر سبع سنين وهما اول من ملك في الشام ومصر من النساء ، ثم انفق كبراء السلطنة على انه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة وانفقوا على الملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وسلطنوه ، وكان

غزة حينئذ جماعة من عسكر مصر فسار اليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة الى الصالحية ، وانفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ، ولما جرى ذلك انفق كبراء الدولة بمصر ونادوا ان البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جدت الايمان للملك الاشرف موسى بالسلطنة ولايبك التركماني بقيادة الجيش ، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحى مقدم البحرية متوجهاً من مصر الى غزة ومعه تقدير النفي فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام وكاد الاجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الامر عنهم بالمرّة ، وهذا ما حدا ببعض بقايا الايوبيين في الشام ان يجمعوا شملهم ويسيروا الى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح اسماعيل والاشرف موسى والمعظم تورانشاه وأخوه نصره الدين والاجمجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم ونقي الدين عباس بن الملك العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم ، والنقي العسكرات المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة اولاً على عسكر مصر ، ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر ، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركماني بمن معه عليه ، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصالح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على ان يكون للمصريين الى نهر الاردن وللناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراي رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة واصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم الى مقره .

ثم اغتال المعز ايبك التركماني المستولي على مصر خوشداهش^(١) اقطاي الجمدار فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر الى الشام ، وكان الفارس اقطاي يمنع ايبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للاشرف موسى بن أيوب فلما قتل

(١) الخوشداهش اي المصاحب وهي كلمة فارسية .

أقطاي اسنقل المعز التركماني بالسلطنة وأبطل الاشرف موسى منها بالكلية ، وبعث به الى عماته . والاشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر .
ولما وصلت البحرية الى الناصر يوسف صاحب الشام اطمعوه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل الغور وأرسل الى غزة عسكراً فزولوا بها وبرز المعز ابيك صاحب مصر الى العباسية ، ومشى نجم الدين الباذراي في الصلح بين المصريين والشاميين وانفقت الحال ان يكون للناصر الشام جميعه الى العريش ويكون الحد بين الوردادة والعريش ، وقتلت شجرة الدر المعز ابيك التركماني الصالح ، وكانت امرأة أستاذه الملك الصالح ايوب ثم تزوج بها ، وكان سبب ذلك انه بلغها ان المعز ابيك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في الحمام ونصبوا نور الدين علي بن المعز ابيك ولقبوه الملك المنصور سلطاناً على مصر والشام .
ونقل الى الناصر يوسف صاحب دمشق ان البحرية يريدون ان يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وتقدم اليهم بالانتزاع عن دمشق فساروا الى غزة ، فأرسل عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه . ثم ان عسكر الناصر بعد الكلبة كسروا البحرية فانهمزموا الى البلقاء والى زعر ملتجئين الى المغيث صاحب الكرك ، فانفق فيهم المغيث أموالاً جلية وأطمعوه في ملك مصر فجهزم بما احتاجوه . وسارت البحرية الى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والنقي المصريون مع البحرية وعسكر المغيث فانهمزم عسكر المغيث والبحرية وفيهم بپيرس البندقداري الى جهة الكرك . وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر مع ممالك المعز ابيك فالنقي الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهمزماً الى الكرك في أسوأ حال .

* * *

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون
مع المماليك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الأيوبيين
هولاكو التتري } وكانت دخلت في حكمهم اولاً فأسسوا هناك بنيانها ولما انهار البناء كانت البيضية
الاولى أول ما هدمت وبقيت بعدها الاطراف وهي الشام وما اليها مدة قليلة ، جاء

هولاكو النثري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقرض الخلافة العباسية ، فدهشت البلاد ثم أخذ النثري يقدمون الى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبه زين الدين محمد المعروف بالحافظي من أهل قرية عقربا في الغوطة بفتح وبقاد (هدايا) الى هولاكو ملك النثر ، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملثقى النثر . وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصر بين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الامير مجير الدين بن ابي زكري مصاف بظاهر غزة انهم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين ، وقوي امر البحرية بعد هذه الكسرة واكثروا العيث والفساد ، وسار الناصر يوسف بعد ان عرف ما تم على عسكره ومعه صاحب حماة بعسكره الى جهة الكرك ، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ، فقبض المغيث على من عنده من البحرية وعلم ذلك في الحمال ركن الدين بهرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية ووصل بهم الى الملك الناصر يوسف فاحسن اليهم ، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وارسلهم الى الناصر فبعث بهم الى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك .

وقدم هولاكو (٦٥٧) الى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على البلاد الجزرية وارسل ولده سموط بن هولاكو الى الشام فوصل الى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن اخيه الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج اليهم ، واكن لهم التتر في باب الله فنقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد . ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والنثر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واختمنق في ابواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتر الى عزاز فتسلموها بالامان ولما بلغ الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق (٦٥٨) الى برزة وجفل الناس بين ايدي التتر وسار من حماة الى دمشق المتصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف بهرس البندقداري فاجتمع عند الملك الناصر ببرزة أم عظيمة من العساكر والجنال ، وبلغ الناصر ان جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك

به فهرب من الدهليز الي قلعة دمشق ، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية (بامان) الى جهة غزة ، وكذلك سار بيبرس البندقداري الى جهة غزة ، وانشاع المالك الناصرية انهم لم يقصدوا قتل الناصر وانما كانت قصدهم ان يقبضوا عليه ويسلطوا اخاه الملك الظاهر غازي بن الملك العزيز لشهامته ، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من اخيه الناصر فوصل الى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر واقاموه سلطاناً ، وكاتب بيبرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الامان ووعدته الوعود ففارق بيبرس الشاميين وسار الى مصر في جماعة من اصحابه .

واستولى التتر على حلب وسببه ان هولاء كو عبر الفرات يجمعوه ونازل حلب وارسل هولاء كو الى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة يجلب يقول له : انكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم مجلب شحنة وبالقلعة شحنة ، وتوجه نحن الى العسكر فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموها وان شئتم تتلتموها ، فلم يجيب الملك المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف . فتعجب هولاء كو من هذا الجواب وتألم ، لما علم من هلاك اهل حلب بسبب ذلك .

واحاط التتر بحلب وقتلوا مقللة عظيمة حتى لم يسلم من اهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخالقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بايديهم . وقيل انه سلم بهذه الاماكن ما يزيد على خمسين الف نفس . ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالامان ، وامر هولاء كو ان يمضي كل من سلم الى داره وان لا يعارض وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني .

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا اهل الاطراف والحواضر واجتمعوا كلهم داخل البلد ، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لاسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن احد انها تؤخذ بسرعة قال : وخرج العوام والسوقة واجتمعوا

كلهم يجبل بانقوسا ووصل جمع التتار الى اسفل الجبل ، وكنوا على القرية المعروفة
 بيا بلا ثم كرت التتار منهزمين ثم رجعوا وقتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند والعوام .
 وقتل هولاء في حلب اكثر ممن قتل في بغداد . وقال ابن تغري بردي : ان
 هولاء حاصر حلب ستة ايام ثم اوقع بها خمسة ايام حتى لم يبق بها احد ووصل الى
 هولاء على حلب الملك الاشرف صاحب حمص موسى بن ابراهيم بن شيركوه
 فاكرمه هولاء واعد عليه حمص ، ثم رحل هولاء الى حارم وطلب تسليمها
 فامنعوا ان يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فاحضره هولاء وسلموها اليه
 فغضب هولاء من ذلك وامر بهم فقتل اهل حارم عن آخرهم وسبي النساء ، ثم رحل
 هولاء الى الشرق وجعل مكان عماد الدين القزويني بجلب رجلا اعجميا وامر هولاء
 بخراب اسوار قلعة حلب واسوار المدينة فخرت عن آخرها وامر الاشرف موسى صاحب
 حمص باخراب سور قلعة حماة فخرت واحرقت زردخانها ، ولم تخرب اسوار المدينة
 لانه كان بحماة رجل يقال له ابراهيم بن الفرنجية بذل لخسرو شاه نائب هولاء في
 حلب جملة كثيرة من المال وقال : الفرنج قريب منا في حصن الاكراد ومتى خربت
 اسوار المدينة لا يقدر اهلها على المقام فيها ، فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الاسوار
 وكانت قد امر هولاء الاشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص ايضا فلم
 يخرّب منها الا شيئا قليلا لانها بلده ، واما دمشق فان نائب هولاء قدم الى اهلها
 بالفرمان والامان فتلقاه كبراء المدينة وانفذت مفايح دمشق الى هولاء . قال سبط
 ابن الجوزي : وكثرت الاراجيف بدمشق بسبب التتار فهرب كثير من الدمشقيين
 وبعوا اصلهم وخرجوا على وجوههم منفرقين في البراري والجبال والحصون ، وصادف
 ذلك ايام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي - في
 كلامه على البيت الهولاء كوهي : ولو تمكنوا من دمشق لمحو آثارها وانسوا اخبارها
 وان ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرص لينقوى به .

ولم يتعرض عسكر هولاء الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليه فحاصرها
 التتار وجرى على اهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة ثم تسلموا القلعة بالامان
 ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب اسوار القلعة واعدام ما بها من الزردخانات

والآلات ثم توجهوا الى بعلبك ونازلوا قلعتهما واخذوا نابلس بالسيف وتسلموا قلعة
عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدم الجميع ووقعوا
على العرب عند زيزاء وحسبان فيزموهم ، وغنموا اولادهم ونساءهم وانعامهم واستاقوا
الجميع ، وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد الى البراري فساوقا خلفه واخذوه
ثم قتلوه عندهم . واستولى النثار من بلاد الفرنج على صيدا ونهبوها واسروا منها
ثلاثمائة اسير . وعاث التتار في بلاد حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل
والخليل والصلت وما اليها و جاؤا بالاسرى الى دمشق فمنهم من افتدى نفسه
ومنهم من هرب .

وظل التتار يتنقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة واستقرت شخائهم فيه لان
الناصر صاحب دمشق لما بلغه اخذ حلب رحل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية
وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تحلي ملكهم عنهم توجهوا الى
حلب ومعهم مفااتيح بلدهم وحملوها الى هولاءكو وطلبوا منه الامان لاهل حماة وشحنة
تكون عندهم فأمنهم هولاءكو وأرسل الي حماة شحنة رجلاً أعجمياً اسمه خسرو شاه
فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى النثار (٦٥٨) على ميفارقين بعد ان حاصروها
سنتين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن
المظفر بن العادل ابي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطاقوا به في البلاد فرؤا
بجلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس الى ان
عادت دمشق الى المسلمين .

قال الذهبي : ان نصارى دمشق شمخت اثناء مجي هولاءكو الى البلاد ورفعوا
الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت ، ونقضوا العهد وصاحوا :
ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاءكو على عين جالوت بين
بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل
في النصارى وأحرقت كنيستهم العظمى . وقال ابو الفداء : ان النصارى استطالوا
بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وادخل النجر الى الجامع . قال في المذيل : ان
النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة النثار وتردد ايل شبان وغيره من كبارهم

الى كنائسهم وذهب بعضهم الى هولاء كو وجاء من عنده بفرمان لهم اعثنا منهم
وتوجه في حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرئفة وهم ينادون حولها
بارتقاء دينهم دون دين الاسلام ويرشون الخمر على الناس بابواب المساجد ، فركب
المسلمين من ذلك هم عظيم فلما هرب النار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى
ينهبونها ويحربون ما استطاعوا فيها وخرّبوا كنيسة اليعاقبة وأخرّبوا كنيسة مرثم
حتى بقيت كوماً والجيطان حولها تعمل النار في أخشابها وقتل منهم جماعة واخفق
الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشقى به بعض الاشفاء صدور المسلمين ثم هموا
بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لانهم لم يصدر منهم ما صدر من
النصارى اه .

اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر هرباً من النار فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا
قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز ابيك على الخروج الى الشام لقتال النار ، وسار
ومعه صاحب حماة المنصور وأخوه الافضل علي حتى التقى مع النار في الغور وكان
كتبغا نائب هولاءكو على الشام ومعه صاحب الصببة الملك السعيد فانهمز النار
هزيمة قبيحة على عين الجالوت وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه ونفروا في البلاد ،
ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون ، وجرّد قطز ركن الدين بپرس في أثرهم
فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقية ، وكان في صحبة النار الملك الاشرف موسى
صاحب حمص ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما بيده وهو
حمص ومضافاتها ، وأسر صاحب الصببة وضربت عنقه ، وأقر المنصور على حماة
وبارين والمعرة وأخذ منه سلية وأعطاها أمير العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر
المسلمين على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على النار
لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا إقليماً الا فتحوه ، وتواقعوا مع
عسكر الازمومه . قال ابن ابي شامة : ومن العجائب ان النار كسروا وأهلكوا
بابناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب النار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلهم وبدد شملهم وكل شيء آفة من جنسه

ورتب شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وجزع عسكراً الى حلب لحفظها ،
وفوض نيابة السلطنة بدمشق الى الامير علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب
الى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل ، ولما استقر هذا في نيابه حلب
سار سيرة رديئة وكان دأبه التحيل على اخذ مال الرعية .

مقتل المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله ، فساروا معه وقتلوه في القصر بطرف الرمل على مرحلة من الصاحية في طريق مصر ، وتسلمن بيبرس البندقداري وتلقب بالملك الظاهر ، ودخل مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة . ولما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتل قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة ، فأجابوه الى ما أرادهم عليه ، ولم يتأخر عنه احد ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة : انا مع من يملك الديار المصرية كائنًا من كان . اما السعيد نائب السلطنة بحلب فحمله امراء حلب الى الشحر وبكاس معقلاً لما اندفع العسكر الحلبي من بين ايدي النار على البيرة وقدموا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار العزيزي ثم سار النار الى حلب وملكوها وأخرجوا أهلها الى قرينيا شرقي حلب فأفندوا غلبهم بالسيف واستولوا على اعزاز وخرّبوا قلعته واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم وسبوا النساء وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب النار حماة فخرج منها صاحبها وباقي العسكر واجتمعوا بحمص مع سائر الاجناد فوقع بين النار وعساكر المسلمين مصاف في حمص وكان النار اكثر من المسلمين فانهمزم النار وهاموا على وجوههم الى افامية ومنها الى الشرق ومنهم من دخل في خدمة المسلمين . وجزع الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكراً الى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على دمشق فخرج هذا لقتالهم فانهمزم الى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوا الى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت

له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها ثم استقر ايدكين
البندقاري الصالحى في دمشق لتدبير امورها .

وفي هذه السنة دخل الحلبي الى قلعة دمشق وتسلطن وحاصره المصريون وبرز
اليهم وحر بهم فلما كان الليل ركب وقصد قلعة بعلبك فعضى بها ثم أخذ وجسه
الظاهر زمناً . وفي سنة ٦٦٠ وصل من مصر الى دمشق عسكر مقدمه الامير
عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق
وقبض حواصله ، وكان طبرس قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلادهم والترسيم
عليهم واخراج عيالهم وإهانتهم ، وضيق على الناس وخوفهم من النار .

ولما بلغ هولاء كوه وهو في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا
ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر بن أيوب
واخاه الملك الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر : أنت قلت ان عسكر الشام
في طاعتك فعدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر : لو كنت في الشام ما ضرب
أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟
فضرب هولاء كوه عنقه . فقال الناصر : يا خوند^(١) ، الصنيعة . فنهاه اخوه الظاهر
وقال : قد حضرت ثم رماه فقتله . ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخوا
الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا
الملك العزيز بن الناصر لانه كان صغيراً .

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حران وارثها والرقه ورأس عين وحمص
ودمشق وبعليك والاغوار والسواحل الى غزاة ، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر
وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبره شمس الدين
لولو الارمني ومحامرة بماليك ابيه العزيزية . وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم الى
حد أضر بالمملكة ، فكان اذا حضر اليه القاتل عفى عنه وقال : الحى أفضل من
الميت . فانتشرت اللصوصية في البلاد وأصبح المسافر في ايامه من دمشق الى حماة وغيرها
لا يقدر على السفر الا برفقة من العسكر ، وكثر طمع العرب والتركان في ايامه .

(١) الخوند السيد معرب خنداوند .

وبقتل الناصر والظاهر قتل الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب ، وضعفت
عصبيتهم وأنصارهم من الأكراد وغيرهم ، وكان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين
غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم ببض أيادهم وبهد السفاك هولاءكو وجماعة من النصار .
وكان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني العباس مع الأتراك ، ادخلوهم في خدمتهم
واحسنوا اليهم ورفعوا منزلتهم وولوه الاعمال ، فما كان منهم الا ان تقضوا بنيان تلك
الدولة وفتحوا السبيل لعدوها يستبج حماها ويستصفي ارضها .

ولم يشجع المغول بما سفكوا من الدماء ، وعادوا سنة ٦٥٩ الى حلب فانهمزم جميع
اهل القرى والمدن الى حلب فنقدم قائدهم ان يخرج اهل القرى والمدن الى ظاهر
البلد ويبقى اهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدونهم ويسيرون كل قوم الى
مكائهم وموطنهم ، ويسلمهم المغول كأنهم يسرون الى ضياعهم وعندما يبعدون
يقولون لهم : انتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمت من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم
ولم يفلت منهم غير اهل حلب لانهم لم ينقلوا عنها .

حروب الظاهر } وكان الملك الظاهر بين عاملين في خلال هذه المدة .
وفتوحه } عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين ، والغالب انه ترجح
عنده معاناة الثاني فأفلح فيه . وقد جيز سنة ٦٥٩ من مصر بدر الدين الأيدمرى
فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة الى حلب (٦٦٠) وكان
مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب وعادت الى الصلاح بعد افساد
المغول فيها ، ثم اوعز الى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومي ان يسيروا الى
انطاكية وبلادها للاغارة عليها ، فساروا اليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها . وقبض
الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طبرس الوزيزي وكان ردي السيرة في اهل
دمشق حتى نزع عنها جماعة كثيرة من ظلمه وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث
بتهمة انه كتب الى النصار يطعمهم في ملك مصر والشام ، وقيل لانه اكره امرأة
الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم الى الناصر يوسف صاحب دمشق

وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك ، فانتقم الظاهر منه بان اسلمه الى زوجته في قلعة الجبل بمصر وامرت جواريا فقتلنه بالقباقيب .

وفي سنة ٦٦١ ارسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكراً هدموا كنيسة الناصرة واغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ، ثم ركب الظاهر بنفسه واغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد . واغار صاحب سيس الارمني على العمق والمعرة وسرمين والفوعة . ومات في هذه السنة الملك الاشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم واوهم شيركوه بن شاذي . وكانت بقيت في ايدي الاسماعيلية الى آخر سنة ٦٦٢ ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والحوابي والمذيقية ومصيف والرصافة والقلعة . وروى ابن مسيران النثار لما ملكوا الشام سلموا اليهم اربع قلاع ، فلما كسروهم قطز عادت الاربعة قلاع اليهم فسلمها رئيسهم وقتل اصحابه الذين سلموها للنثار قال : وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح والى سنة بضع وعشرين وستائة عظيماً . وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة والامير ادوارد من امراء انكلترا .

وفي سنة ٦٦٣ سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضابقها وفتحها من الفرنج وامر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف ونازلها وفتحها وفتح القليعات (٦٦٤) وحلبا وعمرة ونزل على صفد وضابقها وفتحها ثم قتل اهلها عن آخرهم . وجيز عسكراً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وامرهم بالمسير الى بلاد الارمن فانهزم الارمن وأمر ابنان لصاحبهم وامتلات ايدي العسكر الاسلامي من الغنائم . وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق للتحقق عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس اصدر امره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب اهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة ، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين وبيعونهم خفية من الفرنج ، واخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء . وشن الظاهر الغارة على بلاد الفرنج (٦٦٥) من اطرافهم واستدعى بالمناجيق من دمشق وفي سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر الى الشام ففتح يافا من الفرنج وهدمها وقلعتها وملك

الباشورة بالسيف وعوض اهل القلعة اربعين الف درهم ، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف
تبرون فنزل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على اخذها ، ثم صعد الى اعلاها
وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قناتها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها
ورماها فيها ، فلما اصبحوا وجدوا ماءهم منتنًا وهودم عبيط فملوها بعد حصار عشرة
ايام ، ووجد بها اربعمائة وثمانين رجلاً فارسهم الى الفرنج في صور ورتب عليها قومًا
من جماعته وبنى برجًا على باب القلعة .

ثم اغار الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وضرب اربعًا وعشرين
من قراها ، فانتهالت عليه المردة من الجبال فذهب الى حصن الاكراد ، ومن هناك
زحف على انطاكية فنازلها بغتة ، وبعد حصار اربعة ايام ملكها بالسيف فقتل اهلها
واحرق كنائسها وغنم منها اموالًا كثيرة ، وأحصي من قتل بانطاكية هذه المرة
فكانوا نيفًا واربعين الفًا ثم اطلق من كان بها من الاسرى ، وفي رواية انه قتل من
حماتها بين ١٦ و ١٧ الف صلبى واخذ مئة الف اسير واحرقها وقلعتها ونال من
غنائمها ما لا يدخل تحت حصر ، وخرج جماعة من اهلها يطلبون الامان وشرطوا
شرطًا لم يجب الظاهر اليها وزحف عليها فملكها . وكانت انطاكية للبرنس يميند بن
يميند وله معها طرابلس ، ولما فتحت انطاكية هرب اهل بفراس منها وتركوا الحصن
خاليًا فارسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيس الارمني على انه اذا حضر صاحب
سيس سنقر الاشقر من التتار ، وكانوا اخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاء ، وسلم
مع ذلك بهسنى ودر بساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد يطلق له ابنة ليفون الذي
كان في اسر الملك الظاهر فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى ودخل صاحب
سيس على ابا ملك التتار وطلب منه سنقر الاشقر فاعطاه اياه ، وسلم الظاهر بلاطس
من عز الدين عثمان صاحب صهيون واغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف
من الاسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمر عليهم
نجم الدين حسن بن المشغرافي وفرض عليه ان يرفع اليه في كل عام مئة الف درهم .
وانزل السلطان (٦٦٩) حصن الاكراد فملكه بالامان وملك حصن عكار بعد حصاره

له بالامان ، فتذلل له صاحب طرابلس وبذل له ما اراد وهدانه عشر سنين وتسلم
حصن القرين بالامان وهدمه . واغارت التتار على عينتاب وعلى الرّوج وقسطون الى
قرب افامية ثم عادوا . فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر وتوجه بهم الى حلب ونازل
التتار على البيرة واراد عبور الفرات الى بر البيرة ونصبوا عليها المناجيق وضائقوها
فقاتله التتار على الخاضة فاقحم الفرات وهزم التتار فرحلوا عن البيرة . وشن الغارة
(٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة اخرى على جبلة واللاذقية
والمرقب وعرة والقلبيات وحلبا وصافيتا والمجدل وانظرطوس . وفي سنة ٦٧٣ توجه
السلطان الى بلاد الارمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا الى دمشق .
وعاد التتار (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر اليهم وبلغه رحيلهم وهو بالقطيقة فاتم
السير الى حلب وعاد التتار (٦٧٥) فزحفوا على بلاد الشام وخرج اليهم الظاهر وقاتلهم
فكسروهم وقتل منهم خلائق وتبعهم الى نحو الابلاستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل
انه قتل فيها من الفريقين نحو مئة الف انسان . ثم سار الى قيسارية واستولى عليها
ووصل الى عمق حارم فدمشق .

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد ان بطش البطشة	} وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون
الكبرى بالصلبيين في الشام ودفع عادية المغول عنه ما امكن ، وغزا الارمن الذين اصبحوا	

يبدون لدولته نواجد الشر فخر ببلادهم وابد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً
شجاعاً عاقلاً مهيّباً وصل الى الملك بقتل آخر ملوك بني ايوب وما زال يتدرج في مراتب
القوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجليّة . اصله مملوك قيجاقى
الجنس وقيل برجهلي وكان ذا همّة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره
الا وهو بينهم ، ولولا انه ابلى البلاء الحسن في اعداء البلاد لما كفر عماتاه من قتل ابن
ايوب ، وبنو ايوب احببهم البلاد على علائقهم لغناء اكثرهم في خدمة الملة والدولة .
ترجم سو برنهايم في المعلة الاسلامية للظاهر بيبرس بقوله : انه كان السبب
بتوسيد ملك الشام الى قطن لما ابلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطن

الامراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ولكن بپبرس الذي كان يرجو ان توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالاعداء في الشمال ملك أرمينية المسيحي وكان في الغرب الصليبيون منتشرين على جميع شاطئ الشام وفي الداخل الحشيشية الاشداء ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام ، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المجاربون ، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى ان ينجم له نجاح في الداخل من بني أيوب ويسمو الى السلطنة ، فيجد على دعواته انصاراً على أيسر وجه ، فرأى ان يبايع لاحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد ان قرضها المغول من بغداد ، فتوفق الى ذلك وبايع له في مصر ، لان من مصلحته ان يظهر أمام العالم الاسلامي بانه حامي الخلافة وبذلك اصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم امراء الفرنج الشرقيين فعقد محادثات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن ، ثم عقد محالفة مع شارل دانجو و جاك داراغوت والفونس دي كاستيل ، وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين ، وكانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومع صاحب اليمن . ثم ذكر ان الظاهر رأى في الصليبيين أشد الاعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كلمتهم وكان المدد الذي يأتيهم من اوربا قد ضعف ، وكان في موت شارل التاسع انتقاذ بپبرس من أعظم خصومه من الفرنج ، وهكذا فان الظاهر ظل ظافراً بجميع اعدائه ، ولم يتوقف عن شيء لبلوغ غايته ، وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له ، وكان نجاحه مناط قريحتة في التنظيم وسرعته وشجاعته المتناهية ، وكانت مملكته كلها يسافر فيها البريد بسرعة حتى يصل الخبر من مصر الى الشام في ثلاثة ايام وكان اسعد سلطاناً من سلاطين الممالك وأقدرهم . وروى شمس الدين سامي ان السلطنة الاسلامية صارت ذات بهاء في ايامه وانه مات مسموماً بدمشق .

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بپبرس ولقبه الملك السعيد وجعله

ولي عهده ، الا انه خبط واراد تقديم الاصغر على الامراء الاكابر ، ففسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعه من السلطنة ، بعد ان دخل بلاد سيس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم . فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على ان يعطى الكرك فاجابوه الى ذلك فلحق بها وهلك بعد قليل .

وانفق الامراء لما خلع الملك السعيد نفسه على اقامة بدرالدين سلامش ابن الملك الظاهر بپرس في المملكة ، ولقبوه الملك العادل ، وعمره اذ ذاك سبع سنين وشهور ، ثم خلعه وأجلسوا على تحت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحی . ولما اضطرب امر المملكة استأثر بالشام سنقر الاشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سيس ان يتوسط لدى ملك النثار لاطلاقه من الاسر ففعل ، ونسي سنقر هذه اليد للظاهر ، وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الامراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر فجزى الملك المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر ، فبرز سنقر الاشقر بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والنقى الفریقان فولى الشاميون وسنقر الاشقر منزهين ، فجعل الامير لاجين المنصورى نائب السلطنة بالشام ، وهرب سنقر الاشقر الى الرحبة وكاتب ابغا بن هولاکو ملك التتار وأطمعه في البلاد ، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الاشقر وقاتل معه وكتب بذلك الى ابغا ايضاً موافقة له ، ثم سار سنقر الاشقر من الرحبة الى صهيون واستولى عليها وعلى برزيه وبلاطُوس والشُغر وبكاس وعككار وشيزر واقامية وصارت هذه القلاع له .

واحرق (٦٧٧) عسكر الشام بلاد الغرب وجبيل ببيروت وذلك ان قطب الدين السعد بعد ان استقطع قرية كفر عمية من امراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولاً فاتهم بقتله نجم الدين بن جمحي وكان ابوه وذو قرابته معنقلين في مصر فتوجهت اليه العساكر والعشيران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت واحترقت بلاده ، ونفرق النيوخيون أيدي سبا الى ان أمنهم الملك فرجعوا الى بلادهم .

وجاء التتار الى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهاها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والامراء وأقاموا بها

يومين وعادوا من حيث اتوا ، فهب الملك المنصور قلاوون الى غزوة لدفعهم فرحلوا قبل ان يوافيهم ، قال ابن ابي الحديد : وكانت للتتار نهضات وسرايا كثيرة الى بلاد الشام ، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم الى حلب ، فأوقعوا بها وصانعهم عنها اهلها وسلطانها ، ثم عمدوا الى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا فقهه وقضيضه وجيشه ولفيفه ، واستكثر من الاكراد العمريه من عساكر الشام وجند حلب فيقال انه اجتمع مائة الف فارس وراجل فلقية التتار في عشرين الفاً ، فحرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته ، وكانت المقدمة كلها او اكثرها من رجال حلب وهم انجاد ابطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى الى قلعة له على البحر تعرف بانطاكية فاعتصم بها ، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى .

واستأذن نائب السلطنة بخص الاكراد في الاغارة على المرقب لما اعتمد اهله من الفساد عند وصول التتار الى حلب فأذن له السلطان في ذلك ، فجمع عساكر الحصون فانفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة . وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الاشقر ، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتار ونفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي ، ووقع بينهما الصلح على ان يسلم سنقر قلعة شيزر الى السلطان ويتسلم سنقر الشغر وبكاس ، وكاننا قد ارتجعنا منه وحلفنا على ذلك واستقر الصلح بينهما ، كما استقر الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر بن الملك الظاهر بپرس صاحب الكرك .

وبعد ان استقر الصلح بين الاميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف (٦٨٠) العظيم بين المسلمين وبين التتار بظاهر حمص فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملتهم عسكر سنقر الاشقر وجاء الامراء كلهم في جيوشهم وكان التتار في ثمانين الف فارس وفي رواية مائة الف منهم خمسون الفاً من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم والمسلمون في خمسين الفاً فانهم التتار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . وعقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتركليام دهباجون مقدم بيت الداوية بعمكا والساحل وبين جميع الاخوة الداوية

بانظرطوس لمدة عشر سنين على ان لا ينال بلاده ولا بلاد ولده الملك الصالح ولا حصونها ولا قلاعها ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركانهما ولا اكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الاجناس ضرراً ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا اذية .

وسارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشرى (٦٨١) فصعدوا في وادي حيرونا وحاصروا اهدن حصاراً شديداً وبعد اربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل وفتحوا بقوفا وقضوا على اكبرها وهدموها وضربوا حصرون وكفر حارون وخرّبوا حدث البشرى وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكراً يكتنون للعصاة وهدموا جميع الاماكن العاصية وملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لانها داخله الشير . وتوجهت العساكر ايضاً الى بلاد الارمن فخرّبت فيها وسبت عقوبة لهم عماتوه من معاونة المغول على المسلمين .

وقصد المغول دمشق في سنة ٦٨٣ ثم ذهبوا الى وادي التيم فأحرقوها وسبوا اهلها وقتلوا منهم نحو سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد ان نقب جنده حصنها بسرعة وكان هذا الحصن للاستبار فنزل اهله بالامان وفتح حصن الكرك (٦٨٥) بالامان وجيز عسكراً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية الى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الاشقر بالامان . ثم سار جيش السلطان الى اللاذقية ، وكان بها رج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً اليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلموه بالامان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨) ، وكان البحر يحيط بغالب اطراف هذه المدينة ولا تقابل الا من جهة الشرق ، ولما نازله نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة والح عليها بالحصار ففتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة بعد حصار ٣٣ يوماً ، فهرب اهلها الى المينا وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسببت ذرارهم ، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وامر السلطان فيهدمت طرابلس ودكت الى الارض . وكانت في البحر قرباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطاس وبنها وبين طرابلس المينا ، فلما أخذت طرابلس

هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ،
فاقيم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بحيوهم سباحة الى الجزيرة ، فقتلوا جميع من
فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار — نقلت معظم هذا من تاريخ ابي
الفداء ويقول ميسو : ان المسلمين لما استعادوا طرابلس اهلكوا ساكنيها من الصليبيين
الا قليلا وامر السلطان باحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل
ما يزهو به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فخرّب كل ذلك تحت الفأس والمطرفة
وقال : لما نزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة ٣٦٦ م واستولوا على طرابلس
اوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك .

وقال مؤرخو لبنان : ان الكسروانيين والجردبين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في
طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الامر من حسام الدين لاجين
نائب دمشق الى قراسنقران يجمع العساكر الشامية ويحذف بها لاستئصالهم . ومن
ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من اهلها تشتتوا في كل صقع . قالوا ومن
جملة اوامر حسام الدين الى امراء غرب بمرت النوخين اذا توجهوا الى كسروان
وجرده يجمعونها ، ان كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية ، اوصباً كان له مملوكا
ومن احضر منهم رأس رجل فله دينار . وذكروا ان الخراب استولى على الاقطار الشمالية
بسبب ثقل احوال ملوك مصر والشام والحروب النائرة مع التتار من جهة ومع الفرنج
من أخرى فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك ، وقدم الى
جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم اهل بلاد وادي التيم وخت بلاد وادي
التيم من السكان خمسة اعوام ولم يكن فيها بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع . ثم
عاد الناس وعمروا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط .

توفي الملك المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً	} وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واثخانه في فرنح الساحل
مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو ،	
شجاعاً اقام منار العدل واحسن سياسة الملك	

وقام بتدبير المملكة احسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر احد من الملوك مثل

صلاح الدین وغیره علی مثلها وهو الذی وطد حکم المالیک علی الشام واصلح کما فی المعلمة الاسلامیة بالتدریج ما احدث المغول فیہ من التخریب وقام باعمال مهممة من مثل ترمیم قلعة حلب وبعلبک ودمشقی . وهو الوحید من ملوک المالیک الذین تسلسل الملک فی اعقابهم والفوا دولة فان اعقابه حکموا الی سنة (۷۸۳ ھ ۱۳۸۲ م) خمسة بطون . وقد عقد معاهدات مع الدول الی یحشی بأسها ویمکن الانتفاع بحسن الصلات معها ، مثل المعاهدة التجاریة مع جمہوریة جنوة ومعاهدة دفاعیة مع الملکین الفونس ملک قشتالة وچاک ملک صقلیة . وكانت سفراؤه تغدو وتروح الی امبراطور بیزنطیة والامبراطور رودولف دی هابسبورغ وملك الین وامیر سیلان وغيرهم من امراء الشرق . ولهذا السلطان آثار جلیلة فی العمران فی القدس ودمشقی وغيرها من ربوع الشام تدل علی بعد نظره وحبہ للمصلح .

وجلس فی السلطنة بعد قلاوون ابنه الاشرف صلاح الدین خلیل وسار علی قدم ابیه فی جهاد الصلیبیین . وكان اول عمل اتجهت الیه همته بعد ان قدم تجار الفرنج الی عکا وقتلوا من كان بها من المسلمین (۶۸۹) ان نهض من مصر لفتح عکا بالعساکر المصریة والشامیة فهرب جماعة من اهلها من الفرنج فی المراكب لماهاجمها المسلمون كما فعلوا فی طرابلس علی عهد والده . واستنزل الاشرف جمیع من عصى بالابرجة الی كانت داخل البلد . وهي بمنزلة قلاع دخلها عالم عظیم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزلهم السلطان وامر بضرب اعناقهم عن آخرهم حول عکا ، ثم امر بالمدينة فهدمت الی الارض ودكها دكاً . وكانت کما قال الذهبي من احسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر فلما فتحها الاشرف وهدم سورها هرب اهل المدينة منها وصارت خراباً وصار الناس من حينئذ ینزلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً علی باب كنيسة من کنائس عکا :

جمع الكنائس ان تكن عبثت بكم ايدي الحوادث او تغير حال
فلطال ما سجدت علی ابوابكم شم الانوف حجاج ابطال
صبراً علی هذا المصاب فانه يوم بيوم والحروب سجال
ولما فتحت عكا رعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخر بها السلطان وجز برتها

وقلعتها الجنوبية والشمالية . واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل . وكذلك عثليث وكانوا أوقدوا فيها النار . وسلمت انطربوس بالامان وطرد السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها . وهربوا من انفة والبثرون وصرفند واسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة واربعين يوماً وكان فتحاً مبيئاً .

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الاخيرة ولكن اسنقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينجصون عيش الدولة والامة ، ولا يؤخذ على الاشرف استئصاله شأفة اعدائه واهلاكه لهم عن آخرهم ، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس ان يغادروا البلاد جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وادرك كل من تولى زعامة الشام بعده انه يستحيل انقاذ البلاد من الفرنج الا بافنائهم وآخر الدواء الكي .

الحملة الصليبية السابعة } ولقد دخلت الجيوش الصليبية سنة ٤٩١ وخرج
وانتهاء الحروب الصليبية } منها آخر منهزمين سنة ٦٩٠ اي انهم ظلوا قرنين
يحاربون الشام ومصر . تعاقبت فيها عدة دول اسلامية على البلاد وكما حاربت
هؤلاء الدخلاء بما وسعها ان تحارب وربما قتل من الفريقين في خلال ذينك القرنين
مالا يقل عن خمسة ملايين من الانفس ، ولولم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل
النجداث بل الحملات الكبرى التي اصبح الباباوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى
لقتال المسلمين لطلال امدها اكثر مما طال .

فلما ان الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الامبر فريديك الثاني ، وهي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصره عشر سنين ، فلما انتهت المدة عادت القدس الى المسلمين وعندها عمدها عمدها سان لوي ملك فرنسا ان يسترجعه منهم وكان هو السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة جاء في الاولى الى دمياط وانهمزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأسر وجميع من معه فاضطر ان يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد الى بلاده

فزين له اخوه ان يذهب الى تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه .

ولقد عد الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية انهم اوقفوا سير المسلمين عن التقدم ، وتعلم ملايين منهم اموراً ما كانوا يحملون بوجودها ، واخذوا عن الروم والعرب ما كان عندهم من اسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فان كثيراً من اصناف البقول نقلوها الى اوربا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم وقد تعلم صناعة الورق رجالان افرنسيان كنا اسيرين في دمشق وادخلا صناعته الى فرنسا ، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل ، ومنها شاع صنعه في سائر بلاد الغرب ، وتعلموا صنع الاقمشة المدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة ونقلوها الى بلادهم .

ومع كثرة ما بذله اخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين امثال العادل والكمال وبيبرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل ، فان الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر وتصرف وجهة الصليبيين الى قتال العرب في الاندلس . وفي الحق ان تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون في البشر ، فقدت فيها اوربا اكثر مما رجحت من الانفس والاموال . وما يدرينا ان نتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال ونقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم نتقدم في فتوحها الى اوربا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين في الشام ومصر . وكانت الشام من جملة ممالك السليجوقيين وربما تبعتها مصر ففتحها صلاح الدين او غيره باسمهم بدلاً من ان يفتحها باسم نور الدين ، وما نور الدين الا صنعة السلاجقة ، وما جده وابوه الا عاملان من عمالهم .

شغلت اوربا بمسألة انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين قرنين ، وتطوعت شعوبها في هذه السبيل ، ومن الامم من لم ينلها الا قتل رجالها وذهاب اموالها ، وكان الراجح على الاكثر اهل ايطاليا فانهم حاربوا حرباً تجارية رجعوا منها ارباحاً طائلة من سفنهم وتجارتهم وخصوصاً البنادقة والجنوون والبيسيون منهم ، اما الالمان والبريطانيون

والفرنسيس والهولانديون والسويسريون وغيرهم فانهم خسروا خسارة كبيرة .
 ساق الفرنج الى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما فترت نعمة الدين بهلاك من
 كانوا يحسنون هناك الضرب على اوتارها ، ولم ير التجار في هذا الشرق ما يكفي لسد
 نهمتهم وأيقنوا ان الامر يطول اذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الاسلامية في
 آسيا فترت همهم بالطبع ، ولكن بلاد الشام خربت بعد هذين القرنين وان كانت
 الدول الاتاكية والنورية والصلاحية ودولة بيبرس وقلاوون وابنه بعمدون حالاً الى
 ترميم ما خربه الاعداء في داخل البلاد لا يقانهم انها بلادهم ولا بد لهم من دفع
 اعدائهم عنها وانهم يسترجعونها لا محالة وسيدلون منهم مها طال مقام من استصنوا
 بعض سواحل الشام وبيت المقدس فكان الامر كما اعتقدوا .

ما بلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكما طال احتلال الصليبيين كانت الامة تستمرى طعم الموت لاجراهم من
 البلاد ، وكما رأت من ملك او أمير نغاضياً عنهم او انقضاء عاديهم بالمعاهدات
 والمهادنات كانت تستهين به وتدعو ان لا تدوم أيامه . وعلى ما بذل الصليبيون من
 استمالة جيرانهم ما عددهم هؤلاء قط الا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الاسلامي .
 ولو لم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل
 عادل من طرازه اي صلاح الدين لما تم الفتح الاخير على يد الاشرف خليل ، ولما تم
 اخلافه بعده الخطة المرسومة . ولو كان الملك لا يوسد الا للكفاة من ابناء الملك
 او لا كبرهم سنًا ، ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل ايوب لضرب الصليبيون الضربة
 القاضية الاخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر او بعشرين سنة على الاكثر ، اذ
 كان يتأني للمسلمين ان يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء
 الصليبيين من انجندات العظيمة في البحر . ولكن مات صلاح الدين قبل ان يطبق
 خطته ، وشغل اخوه اولاده بالننازع على الملك ، وعدوا الهدنة الطبيعية التي وضت بين أخذ
 عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشبع نفس كل طامع منهم بالملك
 والسلطان ، والعهد في بلادهم وفي غيرها عهد الابطال والفرسان ، وغفلوا عن اعدائهم
 الذين لم يكذب يغفل عنهم نور الدين وخليفته صلاح الدين سنة واحدة الا ربنا يجمعان

قواہم، وقد کنا لهذا الغرض یصانعمان جمیع ملوک الاطراف لیسیروا معہما علی قتال الاعداء، اما اخلافہم فکانت سیاستہم فی الاکثر موجهة الی اختراع الطرق لقضاء بعضہم علی بعض او لاستئثار قومہم بملک مصر او دہشق او حلب او الکربک والشوبک او ماردين او خلاط، فشغلوا بداخلیتہم اکثر من اشتغالہم بامورہم الخارجیة وهي اہم وأعظم، هذا واكثر اولئک الملوک کانوا قد تشبعت نفوسہم بالتربية العالیة والعلم والادب الغزیر، وکانوا علی معرفة تامة باصول الجہاد وفتح المعقل والحصون، ومعرفة بعلم الحروب وقواعد السلم، واعطاء العہد وعقد الهدنة والصلح، ورثوها واقتبسوها من اخلاق البانین لمجدہم نور الدین وصنیعته صلاح الدین .

ومما آخر القضاء عشرات من السنین علی بقایا الصلیبیین فی الساحل ظہور النار فی البلاد بعد قضائہم فی منتصف القرن السابع علی الخلافة العباسیة، فأصبحت الشام بین عدوین أتی الاول من الغرب فأقام وظالم مقامہ وجاءها الثاني من الشرق، والشرق قد يأتي من الشرق، فكان یحرب فی بلادہما ویغنم ویقتل ثم یدہب ثم یعاودہا . ولكن ما حدث من حروب الخوارزمیة ثم اخلاف ہولاکو التتاری فی ہذا القطر یعد منارشات اذا قیس بالحروب والخراب الذی حدث بعد ذلك فأهلك الاخضر والیابس وغدت البلاد غرض النابل وفریسة الصائل .

وفي التاريخ العام انه كان من نتائج الحروب الصلیبیة اذا صُرف النظر عن ذلك فیہا من ملاہین الخلق احداث امارات کاثولیکیة فی الشرق انتزعت من المسلمین والبیزنطیین واحتلها فرسان فرنساویون وتجار طلیسان . وقد طرد ہؤلاء الاورببون لقلتہم بدون ان یتروکوا سوى آثار معاقلم فی الموانی وعلی صخور یونان والشام، ولكن ہیاً الصلیبیون لنصارى اذربا ان یكونوا علی صلات متصلة مع الشرق مدة قرنین اہ قلنا وهذه نتیجة من ربط الصلات مع الشرق کان یتأتی لاوربا الحصول علیہا بدون اہراق هذه الدماء واتلاف الاموال العظیمة وغرس البغضاء فی نفوس من احتلوا بلادہم .

وفي تاریخ فلسطین ان من اضرار الحروب الصلیبیة فی الشام ایقاد جذوة التعصب الدینی بین المسلمین والمسیحیین، ورأى ہؤلاء ان مسلمی العرب أحسنوا الیہم يوم الفتح

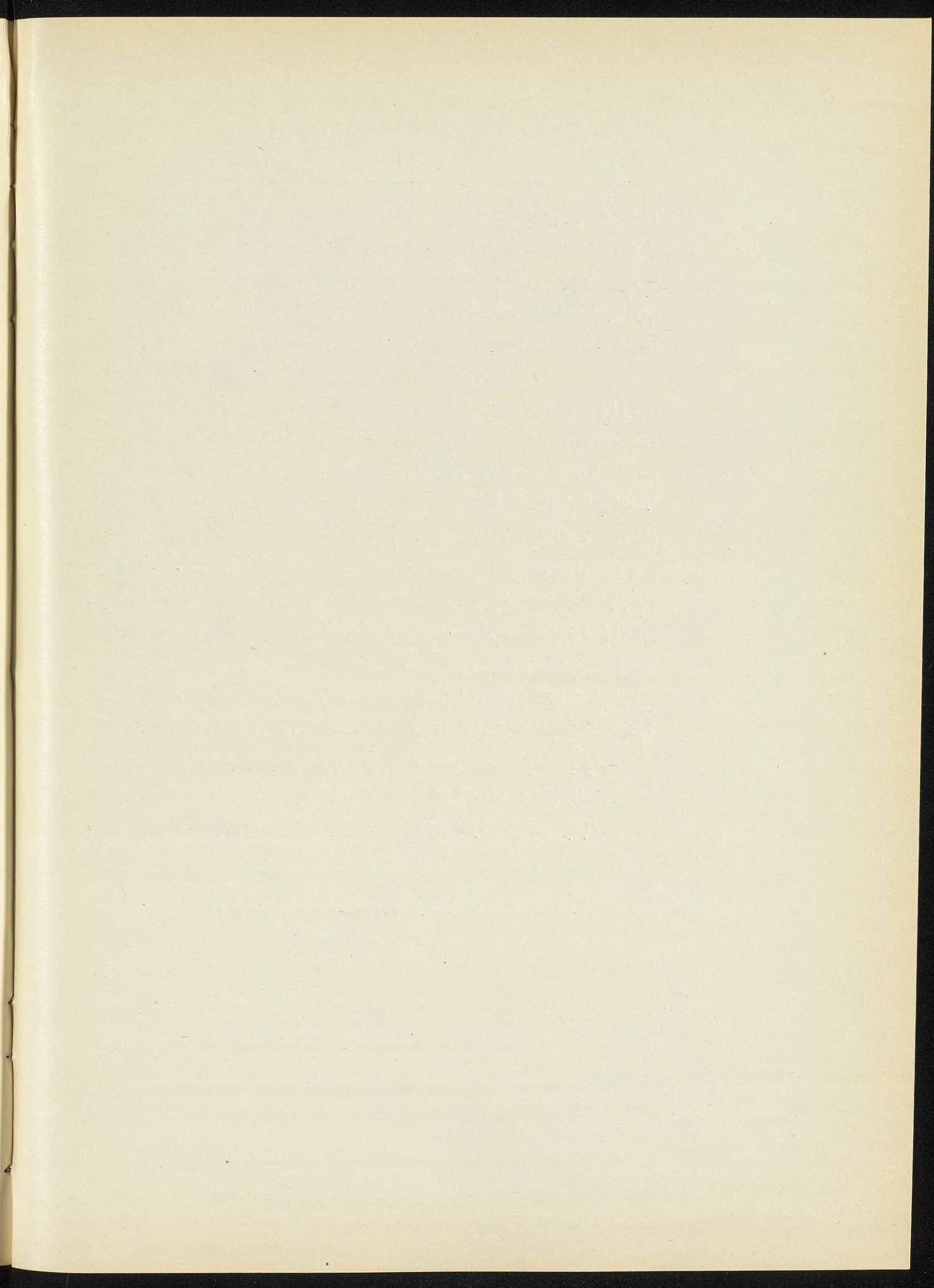
أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين انكروا أبناء دينهم . ومنها تخريب البلدات وقطع الأشجار حتى زادت الاسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ، لان مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم . وقد أجمع المؤرخون على ان المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية أكثر من الفرنج الناكثي العهود والقساتلي الاسرى والذين أخشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحرقوا الديانة المسيحية اه .

لا جرم ان الصليبيين افتضحوا في هذا الشرق باخلاقهم وقلة معرفتهم ، وعرفوا بعد ان أخفقت الحملة الثامنة واصطلموا من الساحل مبلغ قوة اعدائهم ، وانهم في أرضهم ، وهم يحتاجون الى الرحيل أشراً في البر وربما اشهراً في البحر . وذكر ميشو ان الفرنسيين والنورمانديين وسائر شعوب شمالي اوربا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على اعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت اولاً الى الملوك اصبحوا لا يرون الاعتزاز عن اوطانهم ولا الشعوب ان تفارق مساقط رؤوسها وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة ونفاليد كل شعب وقطر والالقب والامتيازات والحقوق المستحصلة والامل في نعيمها كل ذلك قد غير من اخلاق الفرنج وبذل من ميلهم لحياة النقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وقد كتب التوفيق للملاحه في القرن التالي ان اكتشفت اميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة واخذت الافكار نتجه وجهة جديدة والنشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو اميركا والهند الشرقية ، ففتحت امام الغربيين ممالك كبرى واقطار غنية تسد مطامعهم وتشيح نهمه التائقين الى المجد والثروة والوقائع . فأنست حوادث العالم الجديد مافي الشرق من عجائبها . هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي واليك ما قاله اديب كبير من ادبائهم المعاصرين كلود فارير : « في سنة ٧٣٢ للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم النجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى فغمرت العالم الغربي

مدة سبعة او ثمانية قرون ان لم نقل اكثر في طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على النهضة ، وكاد عهد الاصلاح يعيدها الى كذافتها الاولى ، وهذه الفاجعة هي التي أريد ان أمقت حتى ذكرها ، واعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهمزوا راجعين ادراجهم .

« في ذلك اليوم المشؤم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء ، ويكفي المرء ان يطوف في حدائق الاندلس او بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالابصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليلة لشاهد والام الغريب آخذ منه ما عساها ان تكون بلادنا الفرنسية لو انقذها الاسلام الصناعي الفلسفي السلمي المتسامح — لان الاسلام مجموعة كل هذا — من الاهاويل التي لا اسماء لها ، وكان منها ان انتجت خراب غالبا القديمة التي استعبدتها اولاً لصوص اوسترازيا ثم انقطع جزءاً منها قرصان النورماندين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في ارجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انفتحت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية والاهلية الكثيرة العدد ، حدث ذلك على حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير الى نهر السند يزهر كل الازهار في ظل السلام تحت اعلام اربع دولات سعيدة الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية . »

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله اقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من لطف حيلته لكن جدود بارزاق واقسام
كالصيد يحرمه الرامي المحيد وقد يرمى فيرزقه من ليس بالرامي



دولة المماليك

من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠

—>><<—

فتوح ارمينية وعصيان } اصبحت مصر والشام بعد انقراض الصليبيين من
الموارنة بعوامل صليبية } السواحل ووضع السيف في بقاياهم واعتصام جزء
قليل منهم بالموارنة في لبنان مملكة واحدة لا يتخللها ارض لغير مالكيها ، ولا يتازعها
سلطان من غير المسلمين ، واصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار
بالمملك والذهاب بفضل السبق ، والنفكر فيما يدفع العوادي عن حدود البلاد ، او يسعها
الى المدى المقدّر لها ، وبعد ان كانت الشام مصدر الاعمال والسياسة نازعتها مصر في
هذا الشأن ، فابتلع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر
لا قطراً مستقلاً بنفسه وسياسته . اي ان القوة اصبحت بعد عهد العادل تستمد في
الشام من مصر لغناها الطبيعي ولانها مقر السلطان ، ومصر بين بلاد تحيط بها الصحاري
من اطرافها لاسبيل كل حين الى غزوها كما تغزى الشام من اطرافها الاربعة ، وليس
في امراء طرابلس وبرقة وتونس والنوبة والسودان والحباشان من يستطيع ان يغزو
مصر ويحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأمويين اشبه بامارة سلطانها الاكبر
في مصر ويتولاها نائبه او نوابه .

ولم يكتب للشام ان تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية وكان
اهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فان الارمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد ان قضت
على سلطانهم الدولة الأيوبية وانتزعت منهم خلاط اوائل القرن السابع ، وكانت

خلاط قاعدة ارمينية الوسطى اخذها بنو ايوب لمكانهم فيها من عصبية الاكراد وهي قسم من ارمينية الكبرى وقاعدتها سيس ، وقد ذهب الملك الاشرف سنة ٦٩١ في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم ، وهي قلعة على جانب الفرات ويتم بها خليفة الارمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه اسرته ، ورم ما تخرب من تلك القلعة الحصينة .

تقدم ان فرنج الساحل لما اصابتهم الضربة القاضية اعتمص بعضهم باهل جبل لبنان ونزلوا عليهم ، وعاد آخرون الى بلادهم في المراكب ، وقد اثار هذا القسم اللاجئ الى لبنان في نفوس بعض اهله فكرة العصيان فعصوا ، فتوجست دولة الاشرف منهم خيفة فارسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة الامير بدر الدين بيدرا ، فسار الى جبل كسروان في العسكر وعدة من الامراء ، فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم ، وعاد العسكر شبه الكسور وحصل لاهل الجبل الطمع والقوة ، فاطاق محاييس لهم بدمشق من ارباب الجرائم العظيمة ، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم . قال مغلطي : وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير .

وجاء الاشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد بلاد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم ، فرضي على ان يستلموا لنواب السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسنى ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من ايدي المسلمين الى ايدي الارمن وقت سجي الذنار كانت منها على المسلمين اذى ، فلما فتح السلطان قلعة الروم واخذ خليفة الارمن حصل للارمن خوف عظيم فصانعوا عن انفسهم بهذه القلاع . قال مغلطي : ورسم السلطان في هذه السنة للامير عز الدين الافرم بان يسافر الى الشوبك وان يخرب قلعتها فعاوده في ابقائها فنهره فسافر واخر بها ، وكان هذا غاية الخطا وسوء التدبير فان هذا الملك كان طالعه يقضي الخراب فانه اخرج في قلعة الجبل اكثر بنيانها وكذلك في قلعة دمشق اخرج قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان الى تحت القلعة وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطلت بلاده من جميع الاصناف التي تجلب من البحر

وبقيت بلاد الشام معطلة . قلنا ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن البلاد واجتثنا اصولهم وفروعهم وادخلا البلاد في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة الناصر قلاوون حتى خطب باسمه في افريقية (تونس) ببلاد المغرب قال ابن اياس : وكان من اجل الملوك قدراً واعظمتهم نهياً وامراً واكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سرراً وجهراً اه . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض بلاد الشام تدل على ذوق وحسن هندسة وحب للعمران ، وتسلسل الملك في اولاده واحفاده لان الرعية كانت تحبه فاحبت آل بيته ، وخنت وطأة المماليك في ايامه ثم عادت تدرجاً الى القوة والعرامة .

قتل الملك الاشرف (٦٩٣) صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون اغتياً لا يبد بعض اعيان الدولة بمصر وانفق قاتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ثم انفق الحزب القوي منهم فبايعوا الملك الناصر ولد الملك المنصور ثم تغلب (٦٩٤) الاميرز بن الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة واستخلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل الملك الناصر في قلعة الجبل وحج الناس عنه ، فتزعزت اعصاب المملكة لهذه الحوادث المشؤمة التي تورث النفوس كآبة واعمال الناس فتورا . ولما عاد الملك العادل كتبغا من دمشق الى مصر بالعساكر (٦٩٦) ووصل الى نهر العوجا نفرقت مماليكه وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب الملك العادل كتبغا ومعه فريق من الامراء فيرب كتبغا الى دمشق ودخل قلعتها واهتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق ورأى منهم التخاذل فغلب نفسه من السلطنة وارسل الى لاجين يطلب منه الامان وموضعاً يأوي اليه فاعطاه صرخد . واما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا نزل بدله ليزه على نهر العوجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً التزمها منها ان لا ينفرد عنهم برأي ولا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا ، فاجابهم لاجين الى ذلك وحلف لهم ، فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ، ورحل بالعساكر الى الديار المصرية وارسل الى دمشق سيف الدين قبيح المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن اهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من احفاد هولاكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجعه عنها بعد ان بذل له اهله مالا عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على بلاد سبسطية فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم وغنموا حتى اضطر ملكهم ان يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام والاجابة الى ما يرسم به سلطان الاسلام والى الاعتراف بانه نائب السلطان في بلاده ، فطلب منه العسكر ان يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والارمن وان يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والبلاد ، فاجاب عظيمهم الى ذلك واخذ من البلاد حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع .

وفي سنة ٦٩٧ وفدا حدمقدمي المغول الى الملك المنصور لاجين وطلب نجدة ليعود الى الروم طمعاً في اجتماع اهل الروم عليه ، فجرد معهم من حلب عسكراً مقدمهم سيف الدين بختيار الجملي وساروا مع المقدم سلامش المغولي حتى تجاوزوا بلد سبسطية فخرجت عليهم النار واقتلوا معهم فقتل الجملي وجماعة من العسكر الاسلامي وهرب الباقيون .

وفي سنة ٦٩٨ وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتمر من امساك الكبار وسقي بعضهم ، وذهب نائب دمشق فيجق بالعساكر فنزلوا بارض حمص وهناك بختيار السليدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم وان منكوتمر لا يفتقر عنهم فانفقوا على المسير الى غازان ملك التتار لعلمهم باسلامه فساروا الى حمص ونزلوا بخواصها ، فاخذوا على ناحية سلمية وعديا القرات فلم يكن بعد عشرة ايام من مسيرهم الا وقد جاء البريد بقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتمر نائبة وعلم الامراء الخامرون بقتلها ، فانفق رأي ارباب الدولة في مصر على اعادة الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الى مملكته فجيء به من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة الى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بطاسة وفي كل واحدة سبعائة مقاتل من الفرنج للطوع الى الساحل والاغارة على بلاد المسلمين فاصابهم عاصفة اغرقت سفنهم الا قليلاً ورجع الباقيون خائبين .

وقائع النثار } لم تكن نازلة الصليبيين نخسّم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين والنصارى في سنة ٦٩٩ فسار غازان بن أرغون خان بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان وهو السابع من ملوك الأيلخانية في فارس ، يجمع عزيمة من المغول والنصارى والكرج والمزنده وغيرهم وعبر الفرات ووصل بمجموعه الى حلب ثم الى حماة ونزل على وادي مجمع المروج وسارت العساكر صحبة الملك الناصر الى جهة المجمع ، وكان سلاّر والباشنكيز متغلبين على المملكة فداخل الامراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الامور الفاسدة التي اوجبت هزيمة العسكر على رأي ابي الفداء . ثم ساروا والتقوا بالقرب من مجمع المروج في شرقي حمص على نصف مرحلة منها فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به النثار وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان الى جهة حمص ، فولت العساكر الاسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر وانهمز السلطان الى نحو بعلبك بعد ان تلاقى عسكر مصر وعسكر النثار على مرج زاهط تحت جبل غباغب ووقعت بينهما وقعة عظيمة . وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي الف انسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو أكثر .

تبع النثار المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها ، وساقوا في أثر الجفّال الى غزة والقدس وبلاذ الكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبيق الامان لاهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكان الامير بها سيف الدين ارجواش المنصوري فقام في حنظها اتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها — هذا ما قاله ابو الفداء وابن اياس . ووصف مغلطي ما حلّ بدمشق وضواحيها من النثار وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تم من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والحواضر البرانية من العقبة والشاغور وقصر حجاج وحسكر السماق وقد خرب منها واستبيح ما لم يصبه الحريق من الاماكن قال : انهم أسروا من الصالحية نحو اربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة او اربعمائة اكثرهم في التعذيب

على المال . ودام النار نحو اربعة اشهر . وكان عدد من دخلوا دمشق من النار اربعة آلاف مقاتل . وقد احترقت اماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الاشرفية وما قبلتها الى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها ، واحتاط النار بهذه النواحي والاماكن التي لم يصل اليها الحريق فنهبت ونقضت أخشابها ، وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الاثاث ، وكذلك فعل بجميع الصالحية .

وعقب ان تم كل هذا الحيف جاء رسول النار الى دمشق بالامان ومما شرطه في فرمانه اي امره وتقليده وكان مكتوباً بالعربية ، ان لا يتعرضوا لاحد من أهل الاديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فانهم انما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية . وقال صاحب النار : انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون من طريق الدين غير متمسكين باحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدد الايدي العادية الى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العدل والانصاف . قال مغطاي : انه حمل الى خزنة غازان ثلاثة آلاف الف دينار وستائة الف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك . وقال الصفدي : والى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستائة الف درهم والى الاصيل بن نصير الدين الطوسي مائة الف درهم .

ولقد أقام غازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية . ثم عاد الى بلاده الشرقية وعاصمتها تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستفد الا تخريب البلاد وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام ، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ، ثم انفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلاز وبهرس الجاشنكير بالعساكر الى الشام فساروا بالعساكر ، وكان قبجق وبكتمر والالبكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا النار وساروا الى مصر ، وبلغ النار بدمشق ذلك

نحافوا وساروا من وقتهم الى البلاد الشرقية ، ورتب الامير جمال الدين اقوش الافرم في نيابة السلطنة بدمشق ، وأقر سنقر في نيابة السلطنة بجلب ، وقطاوبك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون ، والامير كتبغا زين الدين المنصوري بجما . وسار جمال الدين اقوش الافرم من دمشق وصحبته من الرجالة والفلاحين جمع كثير الى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين واخذ عددهم ، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأقطعت بلادهم وأراضيهم .

وكان الارمن في السنة الماضية لما وصل غازان بجموع المغول الى الشام طمعوا في البلاد التي افنتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها ، فتركها الذين بها من العسكر والرجالة فاستولى الارمن عليها ، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان ، واستولى الارمن على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان ، فجردت مصر والشام في السنة التالية عسكراً الى بلاد سويس ونهبت وخربت . وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً الى الشام بدعوى ان عساكر صاحب مصر والشام أغارت على مارددين وبلادها فطرقت البلاد على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فاتاه أهل مارددين وبلادها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الاسلامية — وكان دان بالاسلام حديثاً — فلاقى العسكر وفرق شملهم ، وان سبب رحيله المرة الاولى عن الشام ان الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركتهم الرعية في الشراب والطعام فرحل وترك عندهم من يجرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين واكراده المتبردين .

ولما عبر الفرات في المرة الثانية جفل الناس من المغول ودخلوا بلاد حلب وعاثوا في ارجائها ، وسار نائب السلطنة بجلب الى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وجبال انطاكية وجبل السماق ينيبون ويقتلون ، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل الى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الامطار والاوحال فرجع الى مصر ، واقام المغول يتنقلون في بلاد حلب نحو ثلاثة اشهر ثم عادوا الى بلادهم . والمغول هم والنار

شيء واحد والبنار صنف من أمم المغول . فقول المؤرخين المغول او النار من الالفاظ المترادفة تقريباً .

وفي سنة ٧٠٢ فتح جزيرة أرواد قبالة أنطرموس وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يظلمون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل وكان الثائب على الساحل اذ ذاك سيف الدين اسدمر الكرجي فسأل ارسال اسطول من مصر فسار اليها وجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسرهم جميع أهلها وخرّبوا أسوارها وكان القتلى نحواً من الفين والاسرى نحو خمسمائة . وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت ورفعت الشكايات الى نائب دمشق الافرم في الجردين والكسروانيين - وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع باهل كسروان - فشدت جيوش الشام لمقاتلتهم وكانت الواقعة على ما روى ابن القلاعي عند مدينة جبيل فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا اكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم واخذوا اربعة آلاف رأس من خيلهم وقدمت الاكراد لنجدهم ، فصددهم كمينان في الفدار والمدفور فلم يخلص منهم الا القليل وخرّبوا بعض بلاد الغرب ، وكان امراء الغرب التتوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشلنج وعين زيتونة ومجطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : ان السبب في قتالهم ان الهاربين من وجه النار من العسكر نفعوا (٦٩٩) في البلاد فحصل لهم اذية من المفسدين وخصوصاً من أهل كسروان وجزين واكثرهم اذية للهاربين أهل كسروان فانهم بلغوا الى ان أمسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج واما السلب والقتل فكان كثيراً الى ان عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم . وفي هذه السنة عادت النار قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسارت منهم طائفة تقدير عشرة آلاف فارس وكانوا كلهم نحواً من خمسين الفا عليهم خطوشاه نائب غازان وغازوا على القريتين وتلك الارحاء ، وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة اسدمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل ومعاونة عسكر حلب وحماة فاقبلوا مع النار في موقع يقال له الكوم قريب من

عرض بين تدمر والرصافة فانهمز النار وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون الفأ وخمسمائة فارس والنار ثلاثة اضعافهم وهم الطائفة التي كانت وصلت الى القريتين ونهبت التركان .

ثم سار النار بجمعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا الى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين ايديهم واجتمعت عساكر مصر والشام في دمشق بمرج الزنبقية ظاهر دمشق ثم ساروا الى مرج الصفر لما قاربهم النار وبقي العسكر منظرين وصول الملك الناصر وسارت النار وعبروا على دمشق طالبين العسكر ووصلوا اليهم عند شقيب بطرف مرج الصفر فالنقى الفريقان واشتد القتال فانهمز التتار ولحق المسلمون اثر المنهمزين الى القريتين يقتلون فيهم ويأسرون ، ووصل التتار الى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقصدوا على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها الى بغداد فانقطع اكثرهم على شاطيء الفرات ، واخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب في ضيق صدر من كسرة اصحابه وتمزقهم لبعده المسافة وتحطف اهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتار مرة وكسرتهم تارة أخرى :

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الايام في الحكم بيننا فكانت له الاولى وكانت لنا الاخرى

غزوة الارمن والكسروانيين } ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من
وترزع السلطنة } النار عاد فجرد عسكراً من مصر وحماة وحلب
(٧٠٣) ودخلوا بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن
وهدموها الى الارض . وكان من نتائج معاونة النيوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق
على قتال الكسروانيين ان تأصلت العداوة بين الفريقين حتى اذا كانت سنة ٧٠٤
ارسل اقوش الافزم نائب دمشق الى الجبلين والكسروانيين الشريف زين الدين
عدنان ، يأمرهم ان يصلحوا شؤونهم مع النيوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم ارسل اليهم
ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فافتي العلماء حينئذ بنهب

بلادهم بسبب استمرارهم على العصيان وابتئهم الدخول في الطاعة ، ولذلك جردت
العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل تزداد الجموع الى سلب هذه السنة . وقال في
الدر المنظوم ان اقوش المذكور فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحاً
وقال آخر : ان الافرم جمع رجال الدرروز (٧٠٦) وكانوا عشرة امراء بعشرة آلاف
مقاتل والنقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على
الامراء فهربوا بجرمهم واولادهم واموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في
الغار غربي كسروان المعروف بغار تبيبة فوق انطلياس بالغرب من مغارة البلانة
فدافعوا عن انفسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم . ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر
نائب دمشق ان يبنوا على الغار سداً من الحجر والكس وهاوا عليه تلاً من التراب
وجعلوا الامير قطلوبك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار ، ثم احاط
العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل
اليها ، فخرّبوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا وامسروا جميع من صادفوا
من الدرروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها .

وكل حصن وان طالت اقامته على دعائه لا بدّ مهدم

ويقول مؤرخو لبنان : ان الافرم في هذه الحملة كان في خمسين الف فارس
وراجل . ويقول ابو النداء وابن الوردي : ان هذه الحملة كانت على بلاد الظننين^(١)
وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبعونهم من اعدائهم ويقطعون
الطرق . وفي تاريخ بيروت ان سيف الدين اسندُمر نائب طرابلس كان نسب
الى مباطنة الكسروانيين فالحش فيهم القنصل ليتفي عنه هذه التهمة اللاحقة به
وان الكسروانيين بادوا ونفروا في البلاد واقطع هذا النائب بعضهم املاكاً من حلقة
طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة ٧٠٥ ارسل نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه في عسكر حلب
للاغارة على بلاد سيس ايضاً ، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ، ففرط في حفظ العسكر

(١) جبال الظننين على ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بجبل

الضنية قرب عكار .

ولم يكشف اخبار العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من النصار وانضمت اليهم الارمن والفرنجة ووصلوا على غرة الى قشمر فالتقوا بالقرب من اياس فلم يكن للحلبيين قدرة من جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق . وتمكنت النصار والارمن منهم فقتلوا واسروا غالبهم واخذوا من سلم في تلك الجبال .

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شيء يستحق التدوين حتى سنة ٧٠٨ وقد خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه الى الحجاز ، فلما وصل الى الكرك امر الامراء الذين حضروا في خدمته بالمسير الى الديار المصرية واعلمهم انه جعل السفر الى الحجاز وسيلة الى المقام بالكرك . وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالامور وتجاوزا الحد في الانفراد بالاموال والامر والنهي ، ولم يترك له غير الاسم فاشتور الامراء فيما بينهم وانفقوا على ان تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير فجلس على سرير السلطنة على ان يكون سلار مستمراً على نيابتها .

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر ، ووصلوا الى السلطان بالكرك واعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبه ، فاعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وانهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت اليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك الى حمان وهي قرية قريبة من رأس الماء وعاد فرجع الى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بيبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد ان ساعفته الايام ولم يهتم الا انه ستجونه الاقدار ولا تظني ان ما بناه على شفا جرف هار .

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقاءهم على طاعته وولائه عاود المسير الى دمشق فسار الى البرج الابيض من اعمال البلقاء ، فاطاعه جند دمشق وجنود حماة والساحل ، وطلب نائب السلطنة الافرم الامان فآمنه ، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار الى مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً اقاموا في الصالحية بطريق مصر . ولما وصل السلطان الى

غزة قدم الى طاعته عسكر مصر اولاً فأولاً ثم ثابعت الأطلاب والكتائب ، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة ولما تحقق بپبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الامان واعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض وقتل . وكذلك فعل بسارلر واكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

وفي سنة ٧٠٩ وقعت فئنة في حوران بين اليمينية والقيسية وحشدوا وبلغت المقتلة الف نفس وكانت بقرب السويداء وفي سنة ٧١٠ اقام السلطان ملكاً على حماة اسماعيل بن علي الملقب بابي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة الملوك الاقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة ابي الفداء ما وصل الى هذا المنصب لان الدور اصبح دور المماليك والغرباء عن البلاد وجميع مواطن النيابة اصبح فيها مماليك السلطان او مماليك والده او مماليك مماليك والده ، وجميعهم مرتبون من الابواب الشريفة . ولم يكن كل ملك او قبيل من هؤلاء الملوك والاقبال حراً بمملكته كما زعم بعضهم ، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام اشبه باصحاب اقطاع لا يزالون في حربهم وسلمهم تحت امر السلطان . واذا شذ في الاحابن بعضهم وعدوا على سلطانهم فانهم لم يخرجوا عن كونهم ولاة او عمالاً خرجوا على السلطان ليس الا .

الغزوات في الشمال } وفي سنة ٧١١ قصد قراسنقر كبير الامراء في حلب
وظهور دعوة جديدة } امير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين
من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك ، على الملك وكان يريد أن يبطش به .
فركب مهنا فيمن اطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين الفاً ،
وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن
بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك ودخلت سنة ٧١٥ فارسل السلطان محمد بن
قلاوون عساكر الشام ومصر الى ملطية ففتحوها ، وسبب ذلك أن حكومتها كانت
تعتدي على ابناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع ، وان المسلمين كانوا يخططون
بالنصارى حتى انهم زوجوا النصراني بالمسلمة وثبت أنهم كانوا يطلعون التتار والارمن
على اخبار المسلمين ، ثم رجع الجيش الي مرج دابق قرب حلب ، وترددت الرسل الي

صاحب بلاد سيس الارمني في اعادة البلاد التي جنوبي جيجان وزيادة القطيعة اي الاتاوة فزادت حتى جعلها نحو الف الف درهم . وصدر امر السلطان بان لا تكون بحماة وبلادها حماية للدعوة الاسماعيلية اهل مصيف ، بل يتساوون مع رعية حماة في اداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجاعة من التتار والعرب على التراكمين والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في اغارته الى قرب البيضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه الى الشرق . وجهاز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكري حلب وغيرهم من التراكمين والعربان والطاعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا الى آمد وبعثوها ونهبوا اهلها المسلمين والنصارى . وبلغوا في النهب الحرام فغلت آمد من اهلها . وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية انسان من النصيرية وادعى انه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الائمة عند الامامية ، وقيل زعم تارة انه المهدي المنظر وأخرى انه علي بن ابي طالب وطوراً انه محمد المصطفى وان الامة كفرة . فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف ، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة ، وجرده اليه عسكري من طرابلس فلما قابوه نفرق جمعه وهرب واخفى في تلك الجبال فقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر ، بعد ان قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله .

وفي سنة ٧٢٠ تقدمت مراسم السلطان باغارة العساكر على بلاد سيس فيسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعة سيس حتى بلغوا السور ، وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي ونهبوا وخرّبوا . وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى ، وكانت منازلهم في سلمية ، حتى وصلوا الى الزحبة فعانة فهرب آل عيسى الى ما وراء الكبيسات ، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن ابي بكر بن علي بن حديثة بن عصبه ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الامير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب . موضع محمد بن ابي بكر أمير آل عيسى . وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية الى بلاد سيس ونازلوا اياها

فهربت الارمن منها واخلوها والقوا النار فيها فملكها المسلمون وخربوا ما قدروا على
هدمه وعاد كل عسكر الى بلده .

وفي سنة ٧٣٢ مات الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة وكان سلطان
مصر يحبه ويستدعيه كل سنة لزيارته ومرافقته في صيوده وينعم عليه حتى سلطنه
سنة ٧٢٠ لكثرة ما شاهد من علمه وحسن سياسته ، اي انه ارسل اليه شعار
السلطنة ، وكان مؤلفاً عظيماً وعالماً مفضلاً على العلماء . قال ابن الوردي : ولقد
رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون انه ليس في الملوك بعد المأمون افضل منه ،
وتملك حماة ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد .

وهذأت الاحوال في هذه الحقبة في البلاد ولم يحدث سوى امور طفيفة مثل
قدوم مراكب فرنج جنوبية (٧٣٤) الى بيروت ، قاتلوا اهلها يومين ودخلوا البرج
واخذوا الاعلام السلطانية والمراكب . وكان السلطان يعقل بعض الخوارج عليه
او من يرى في سيرهم ما يدعو الى الشبهة ثم يطلقهم وينعم عليهم ، وربما اخر اهلاك
من يخافهم على السلطنة مثل نكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله وكان قتل خلقاً
فارتاحت البلاد ، وما كانت افكار السلطنة موجهة الا الى قتال الارمن مخافة ان
يستطير شرم ، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر
حلب (٧٣٥) ، وكان الارمن ملكوا مدينة سبس وطرردوا من كان بها من المسلمين ،
فخربوا في بلد أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا ،
وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من
تبعهم ، فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسهم
في خان ثم أحرقوه وقل من نجا ، فعلوا ذلك بنحو النبي رجل من التجار والبغاددة
وغيرهم . وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الامراء بجلب علاء الدين
الطنبغا الى بلاد الارمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا اياس وحاصروها ثلاثة ايام ثم قدم
رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على ان يسلموا البلاد
والقلاع التي شرقي نهر جيحان ، فتسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير وبلاد كثيرة
كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار واياس وباناس ونجيمة والنقير وغير ذلك ،

فخرب المسلمون برج اياس الذي في البحر . قال ابن الوردي : وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك ملك الارمن جسداً بلا روح .

سياسة المماليك مع اكبر عمالهم وفاة الناصر وتولي المنصور
 كانت حكومة المماليك تكثرت من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق ، فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر ولم تطل مدة واحد من الولاة كما طاللت نيابة نينكر فان ولايته دامت من سنة ٧١٢ الى ٧٤٠ قال الكتبي : وهابه الامراء بدمشق ونواب الشام وأمن الرعايا ، ولم يكن احد من الامراء ولا ارباب الجاه يقدر ان يظلم احداً آدمياً او غيره خوفاً من بطشه وشدة ايقاعه . قال : وكان الناس في ايامه آمنين على أموالهم ووظائفهم . وهو صاحب الابنية العظيمة في دمشق وغيرها من بلاد الشام وكان ممن ينشط الزراعة . ولما اخذه ملك مصر وقتله في الاسكندرية تأسف عليه أهل دمشق .

وتوفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ بعد ان خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم ، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر ، وتآلم الناس لفقده لانه أبطل المكوس وعمر البلاد وانشأ جوامع ومدارس وكانت ايامه ايام أمن وسكينة ، فتولي الملك بعده ابنه السلطان الملك المنصور ابو بكر وكان تسلطن قبل موت والده . وملك الناصر محمد ابن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث واربعون سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً ، تملك المرة الاولى بعد وفاة اخيه الاشرف سنة كاملة ، والمرة الثانية بعد قتل لاجين ، ومدة ملكه ثمانية عشر سنين وستة شهور واثنا عشر يوماً ، والدولة الثالثة أقام بها ثنتين وثلاثين سنة وثلاثة شهور وخمسة ايام ، وكان في الثالثة حاكماً متصرفاً ليس له منازع ولا معترض ولا من يخالف امره بخلاف المدينين الأولين . وشأن قلاوون قليل في الملوك ، لانه ندر من يتخلى او يتخلع من الملوك ان يعود الى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات . ومن غريب ما وقع له ايضاً انه تسلطن ثمانية من اولاده لصلبه ، وهذا مما يعد في باب سعادة آل قلاوون .

وفي سنة ٧٤١ فتح الامير علاء الدين ايدغدي الزراق ومعه بعض عسكر حلب قلعة خندروس من الروم ، وكانت عاصية وبها أرمن وثار يقطعون الطرقات ، وفي السنة التالية (٧٤٢) بايع السلطان الملك المنصور ابو بكر الخليفة الحاكم بامر الله ابا العباس احمد بن المستكفي بالله ابي الربيع سليمان وكان قد عهد اليه والده بالخلافة فلم يبايع في حياة الناصر فلما ولي المنصور بايعه بمصر وجلس معه على كرسي الملك وبايعه القضاة وغيرهم ، وكان الخليفة من اولاد العباس يقيم في مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة و يبايع السلطان عند جلوسه .

* * *

<p>خلع السلطان الملك المنصور ابو بكر فاحتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة ابيه بحجج ونسب اليه اموراً ، فأخرجه الى قوص فقتله</p>	}	<p>خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من اخوته الذين خلفوه</p>
--	---	--

واليها ، وأقام في الملك اخاه الملك الاشرف بكك وهو ابن ثمان سنين . اي ان الخوارج على السلطنة بعد ان سكنوا بحسن سياسة الملك الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلع نفسه ومكثه في الكرك حتى رجع الى السلطنة بمسد ان اطاعه عسكر الشام ومصر ، عادوا يبدون نواجد الشر ويقتلون ملكهم ، وقتل الملوك من أشام ضروب الخراب في الممالك ، فقتل الملك الجديد ونصب اخوه الصبي ليكون الحكيم لقوصون الناصري كما وقع ذلك في أدوار مختلفة ، ثم أرسل قوصون مع الامير قطبغا الفخري الناصري عسكراً لحصار السلطان احمد بن الملك الناصر بالكرك ، وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج ارقطاي نائب طرابلس باشارة قوصون الى قتال طشتمر بحلب ، لان هذا انكر على قوصون ما اعتمده في حق أخيه المنصور ابو بكر ، ونهب الطنبغا بحلب مال طشتمر وهرب هذا الى الروم ، واستمال الملك الناصر في الكرك قطبغا الفخري وكان ذهب لقتاله وحاصره اياماً بامر قوصون من مصر فبايعه و بايع للناصر من بقي من عسكر دمشق انما اخرج من عن المضي الى حلب صحبة الطنبغا ، ثم سار الفخري الى ثنية العقاب واخذ من مخزن الايتام بدمشق مالاً ، ولما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل اليه الفخري لما قرب من دمشق القضاة ،

وطلب الكف عن القتال فقويت نفس الطنبغا وابى ذلك ، وظال الامر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخري ثم الميمنة وبقى الطنبغا وجماعته في قليل من العسكر ، فهرب الطنبغا ومن معه من القواد الى جهة مصر ، فجز الفخري وأعلم الناصر بالكرك وقد خطب له بدمشق وغزة والقدس فلما وصل الطنبغا الى مصر ، وهو قوي النفس بقوصون تغير امر قوصون . وكان قد غلب على الامر لصغر الملك الاشرف ، ثم قبض جماعة الامراء على قوصون وأرسلوه الى الاسكندرية وأهلك بها ، وقبضوا على الطنبغا وحبسوه ، وسافر الملك الناصر احمد من الكرك وعمل أعزية لوالده واخيه ، وامر بتسمير والى قوص لقتله المنصور وخلص الاشرف الصغير ، وجلس الناصر على الكرسي هو واخليفة ثم أعدم الطنبغا وغيره ، وتواتر عزل الولاة والنواب بجلب ، جرى كل هذا في مدة يسيرة . وجرى في هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجز في ثمان من السنين على رأي ابن الوردي .

ولم يصف جو السلطنة للملك الناصر احمد في مصر وسافر الى الكرك وحصنها واتخذها مقاما له ولما حصل بها وقتل بها طشتمر والفخري قتلة شنيعة (٧٤٣) انقلب عليه عسكر الشام وهو بالكرك وكتبوا مصر فخلع الناصر واجلس اخوه السلطان الملك الصالح اسماعيل ، واستتاب آل ملك وحصر السلطان الملك الناصر بالكرك واجتمع عليه اخوه الملك الصالح بما اخذه من اموال بيت المال ، وخرج الامير ركن الدين بپرس الاحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق ، فحاصروا الناصر بالكرك وذكر المؤرخون انه وردت المراسيم الى جميع ولايات الاعمال الشامية بتجريد العشران وغيرهم الى الكرك ، فذهبوا اليها سنة ٧٤٣ ووجدوا في القلعة مع السلطان احمد خلقا كثيرا ، وقد نصبوا على القلعة في اعلاها خمسة مناجيق ومدافع كثيرة ، ونصب المحاصرون على باب القلعة منجنيقا يرمي بججارة وزنها خمسة وثلاثون رطلا وخرجت السنة ولم يحصل فيها شيء يذكر واغار الترك مرارا على بلاد سيش فقفلوا ونهبوا واسروا وشفوا الغليل بما فتكت الارمن ببلاد قرمان ، وعاد العسكر (٧٤٤) المهز الى بلاد سيش وما ظفروا بطائل ، وكانوا قد اشرفوا على اخذ اذنة وفيها خلق

عظيم واموال عظيمة وُجفأل من الارمن فار تشى اقسنقر مقدم عسكر حلب من الارمن
وثبط الجيش عن فتحها واحجج بان السلطان مارسم باخذها . وحاصر يلبغا النائب بجلب
زين الدين قراجا بن دلغادر التركاني بجلب عسر الى جانب جيجان فاعتصم منه بالجبل ،
وقتل في العسكر واسر وجرح ، وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه
وعظم على الناس شره ، وكانت هذه حركة رديئة من يلبغا ثم اوقع دلغادر بالارمن
وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بجلب ان يستنيب فيها من جهة السلطان
فعثا ابن دلغادر عن ذلك ، فجهزوا عسكراً لهدمها ثم اخذتها الارمن . وفي سنة ٧٤٥
حوصرت الكرك ونقبت ، وأخذ الملك الناصر احمد وحمل الى اخيه الملك الصالح
بمصر فكان آخر العهد به ، وفي هذه السنة كانت الواقعة بين اهل البقاع ووادي التيم
وقتل من الفريقين خلق كثير ، واحرق ابن صبح قرية من وادي التيم ، وانقطعت
السبل لاسيا طريق الزبداني . وتوفي الملك الصالح اسمعيل بن الملك الناصر
محمد بن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه اخوه السلطان الملك الكامل شعبان . وفي سنة
٧٤٧ خرج نائب الشام يلبغا الى ظاهر دمشق خوفاً من القبض عليه وشق عصا الطاعة
وعاضد امراء مصر حتى خلع السلطان الملك الكامل شعبان واجلسوا مكانه اخاه الملك
المظفر امير حاج ، وسلموا اليه اخاه الملك الكامل فكان آخر العهد به ، وكان هذا
الملك الكامل شعبان سيي التصرف يولي المناصب غير اهلها بالبذل ويعزله عن قريب
ببذل غيرهم ، وكان يقول عن نفسه انا شعبان لاشعبان .

وفي سنة ٧٤٨ سافر الامير ناصر الدين بن الحسيني بعسكر من حلب لتسكين فزنة
ببيلد شيزر بين العرب والاكراذ قتل فيها من الاكراذ نحو خمسمائة نفس . وفيها
عزمت الارمن على نكبة اياس ، فاقوع بهم امير اياس حسام الدين محمد بن داود
الشيبياني ، وقتل من الارمن خلقاً واسر خلقاً ، واحضرت الرؤوس والاسرى الى حلب
واقنتل سيف الدين بن فضل امير العرب واتباعه مع احمد فياض من الامراء في جمع
عظيم قرب سليمة فانكسر سيف ونهبت امواله وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من
العرب اصحاب سيف و احمد فياض من النهب وقطع الطرق مالا يوصف وكانت هذه
الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطنق البدو ينهبون القرى ويغزرون على حماة

والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى . وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر امير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون بمصر واقيم مكانه اخوه السلطان الملك الناصر حسن ، وكان الملك المظفر قد اهلك اخاه الاشراف كجك وفتك بالامراء وقتل من اعيانهم نحو اربعين اميراً .

* * *

احداث وكوائن وعصيان } ومن الاحداث ان نائب الشام يلبغا الجياري
ومخاضرات } هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فنقاتل معهم
فقتل فقطعوا رأسه وحملوه الى السلطان بمصر . وفي سنة ٧٥٠ دخل الامير جبغا نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة من عسكر طرابلس ، وكان ارغون شاه نائب الشام مقيماً بالقصر الابلق فدخل عليه الامير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه ، فلما اصبح الصباح طلب الامير جبغا القضاة والامراء بدمشق واخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على ارغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا ان ذلك صحيح فسيجنه واحتاط على موجوده ، ثم وجدوا ارغون شاه مذبحاً في السجن ففشا الكلام بين الناس بان ذلك من فعل الامير جبغا فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه فيهرب جبغا الى المنزة فلم يتبعه احد من العسكر وخافوا عقبى ذلك ، وكاتب امراء دمشق السلطان بما وقع من الامير جبغا فانكر ما وقع لارغون شاه ، ورسم لامراء دمشق ان يجاروا الامير جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر جبغا وقبضوا عليه وشنقوه .

وفي سنة ٧٥١ اغار شخص من النار اسمه هندو على مدينة سنجار وملكيها، فارسل سلطان مصر والشام له تجر يدة فحاصروه فطلب الامان ثم رحل عن سنجار . وفي سنة ٧٥٤ قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج الى صيدا فقتلوا طائفة من أهلها وأسروا جماعة وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم ، فوصل الصريخ الى دمشق ، فاجتمعت العساكر من صدد ودمشق وأسرعوا الى فك الاسرى ، وأخذوا من ديوان الاسرى ثلاثين الفاً واعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم .

وان الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عطاء السلاطين من اولاد

فلاوون وسرعة قتلهم واستخلاف غيرهم من الممالك ، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن ، ومسألة الجيأوي مع أرغون شاه مثال منها . ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج بيغا اروس نائب حلب عن الطاعة وظهاره العصيان للسلطان ، وكذلك الامير بكش نائب طرابلس ، والامير احمد نائب حماة ، والامير الطنبغا بوقاق نائب صفد ، ولم يبق على الطاعة الا نائب دمشق الامير أرغون الكاملي ، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما قد جرى من النواب ، ثم اضطر نائب الشام لما رأى عين الغلبة الى الهرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزوة ، فأقام يعلم السلطان والامراء بما جرى ، والنف على الامير بيغا اروس العربات والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين اميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل الى نائب قلعة دمشق يطلب منه اطلاق امير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك الا بمرسوم السلطان ، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً وركب عليها المكاحل بالمدافع وارسل يقول لاهل المدينة لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبعوا عسكر حلب شيئاً ، فلما بلغ الامير بيغا اروس ذلك اشتد به الغضب ، وامر عسكره بان ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ويقطعوا الاشجار ، فلما سمعوا هذه المناداة ماأبقوا ممكناً من الاذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنسات والقماش ، وجرى على أهل دمشق من بيغا اروس ما لم يحجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق .

ثم ان سلطان مصر جهز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من امراء الطبليخانات والعشراوات (١) نحو ثمانين اميراً وكان صحبته القضاة الاربعة والخليفة الامام احمد الحاكم بامر الله فأمر بقتال جماعة بيغا فانهم هذا ولحق ببلاد التراكمة ، وجمي بجماعته في القيود يرسفون . ثم عاد السلطان الى مصر بعد ان عزل من عزل وولى

(١) الطبليخانات من الرتب العسكرية وظيفتها الضرب بالآلات الموسيقية وكان عدة من في باب السلطان منهم اربعين اميراً وبخدمة كل واحد منهم اربعون مملوكاً ولم الطبول الصغار والزمارات والابواق . قال الظاهري : وبالطبلخانات من الكوسات (الطبول الصغيرة) التي تدق على باب السلطان اربعون حملاً وأربعة طبل دھول وأربعة زمور وعشرون نفيراً ولها مهتار وبها عدة خدام .

من ولي . والسلطان هذا هو الملك الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك واولادهم . والثامن من اولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ثم انت نائب حلب ببيغا ونائب طرابلس بكش ونائب حماة احمد الذين كانوا هربوا من بلاد السلطان الى بلاد التركمان قطعوا رؤسهم وارسلوها الى السلطان بمصر .

وخلع السلطان على الامير ارغون الكاملي واستقر به نائب حلب عوضاً عن بيغا اروس وجرى ارغون الى قراجا بن ذي القدر امير التركمان في مرعش وحواليها ، وكان ذنب قراجا انه وافق بيغا اروس على العصيان فلما وصل اليه الامير ارغون هرب منه فتبعه الامير ارغون الى أطراف بلاد الروم فقبض عليه وارسله الى السلطان بمصر فسمره على جبل .

وفي سنة ٧٦٠ توجه الامير بهدمر الخوارزمي نائب حلب الى بلاد سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فتسلمها وكذلك المصيصة ، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع الى حلب . وفي سنة ٧٦٢ أظير بهدمر الخوارزمي نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الاخبار ، وخرج قاصداً الشام ، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيده .

وفي سنة ٧٦٥ جاء الفرنج الى قلعة ايباس وحاصروها فخرج اليهم الامير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبتة العساكر الخلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة ايباس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاستار فجاءوا في مائتي مركب حربي الى طرابلس ، وكان النائب غائباً عنها فظمعوها في أخذها ثم خرج اليهم بعض عسكرها فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة من المسلمين نحو الفتي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاؤا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت الفرنج كسرة قوية ورحلوا عن طرابلس .

وفي سنة ٧٦٧ عصا على السلطان نائب دمشق بهدمر واجتمع اليه مقدمو البلدان

وحضر اليه ابن اكش ومعه آلاف وقدم الزبداني ومعه الف نفس فأرسل السلطان اليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله .
وفي سنة ٧٧١ وقع تشاجر بين الامير جبار من آل الفضل امير العرب وبين نائب حلب قشتمر المنصوري فخرج اليه نائب حلب بالعساكر الحلبية فنقاتل مع الامير جبار فقويت العربان على نائب حلب فقتل في المعركة .

* * *

مقتل الاشرف شعبان } وفي سنة ٧٧٨ قتل في القاهرة الملك الاشرف
والاحداث بعده } شعبان . قال ابن اياس : وكان من محاسن الزمان
في العدل والحلم وكان ملكاً هيناً ليناً محباً للناس منقاداً للشرعة محسناً وكانت الدنيا
في أيامه دادئة من الفتن والتجار يد الى البلاد الشامية وفساد العرب وساس الناس
أحسن سياسة . وتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح بن الحاج وله من العمر نحو
احدى عشرة سنة وهذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بني قلاوون وبه زال
الملك عنهم وقد أقامت السلطنة في قلاوون وذريته مائة سنة وثلاث
سنين وأشهرًا .

وفي سنة ٧٧٣ شدد الامير سيف الدين منجك نائب الشام وكان تولها للمرة
الثانية منذ سنة ٧٧٠ على أهل اللهبو بدمشق وامر بقطع الاشجار والصفصاف الذي بين
النهر بن وتخريب المكان الذي أحدث في الشرف الاعلى وأزال المنكرات من هذا
المكان ومن الذي فوق الجبهة ايضاً وهدم الابنية والحوانيت المستجدة هناك . قال ابن
طولون : انه فعل الخيرات وبني المحطات في الدروب وبني زاوية بالكسوة وعمل لها
سماطاً وعزل الطرقات وعدل في الرعايا . وفي السنة التالية أرسل الجاي اخاه طقتمر
الحسني الى دمشق لعرض الاجناد فيها فحصل اموالاً عظيمة ، حتى قيل ان الذي خصه
خمسون الف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة اشياء نفيسة وبالغ في الظلم ، فاستغاث
الناس الى منجك نائب الشام فكاتب فيه ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في
بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق . قال ابن حجر : ولولا تطف الناب وناظر الجيش
س لهلكوا معه .

وفي سنة ٧٧٦ خرج نائب حلب الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتحها
وكانت في أيدي الارمن . وفي سنة ٧٧٩ خامر جميع نواب البلاد الشامية وخرجوا
عن الطاعة فساقط مصر تجريدة عليهم . وفي سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام بهدم
الخورزمي عن الطاعة وقصد الهرب الى بلاد التركان ببركة ورجاله فقبضه عسكر
دمشق وسجنوه بالقلعة فأرسل سلطان مصر واخذه منها وسجنه ثم اطلقه بعد ثلاث
سنين وأعيد الى منصبه . وفي سنة ٧٨٠ نازل الفرنج طرابلس في عدة سراكب
فالتقاهم بلبغا الناصري فهزموهم ، ثم امر العسكر ان يتأخروا فطمع فيهم الفرنج وتبعوهم
الى ان أبعدهوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزموهم وقتل منهم جمع كبير قبض على
أكثرهم وأقلع من بقي في المراكب . وثار اقبغا عبد الله (٧٨١) وجماعة معه على نائب
الشام وكان قد تجرد مع نائب حلب في عسكر البلدين بسبب التركان فوقعت بينهم
وبين اقبغا المذكور ومن معه وقعة فكسروهم نائب الشام وهرب اقبغا الى نعيم امير
عرب الفضل . وفي سنة ٧٨٣ نهبت طائفة من التركان بعض ضياع حلب وعاثوا
وافسدوا وعين لهم الاتابك برقوق في مصر تجريدة وخرج اليهم ثلاثة من الامراء
المقدمين وخمسة مملوك فالتقوا مع التركان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة
ونهبوا أموالهم وطردهم الى ملطية .

وفي سنة ٧٨٤ حضر الى القاهرة رسول صاحب سيس ومعه كتاب يخبر فيه
بان الارمن الذين هناك مات كبيرهم فامتروا عليهم زهجه فحكمت فيهم مدة ثم عزلت
نفسها ، فانفق رأيهم ان يفوضوا امرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم ، فانفق
لهم برقوق واحداً من الارمن الاسارى الذين يسكنون ظاهر القاهرة وبيعون هناك
الخمور فاخذوه معهم فلكوه عليهم . وفي السنة التالية جاءت رسل صاحب سنجار
ورسل صاحب قيسارية ورسل صاحب تكريت يسألون صاحب مصر ان يكونوا
تحت حكمه ويخطبوا باسمه فاجيب سؤلهم وكتب لهم بذلك ثقايلد وخلع عليهم . وفي
هاتين الواقعتين دليل على ان صاحب مصر والشام في تلك الفترة كان اقوى من جاوره
من الملوك خطب وده الاتراك والاكراذ والارمن من مجاوريه .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت بين قبلاي نائب الكرك وخاطر امير العرب بهامقنة عظيمة

فانكسر قبلاي وخلص خاطر ، وكان قبلاي امسكه قبل ذلك منهم ثم تحيل قبلاي على خاطر الى ان حضر عنده فذبحه وذبح ولديه غدراً . وفيها نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً فراسلوا نائب الشام فنقاعده عنهم واعتل باحتياجه الى مرسوم السلطان فقام اينال اليوسفي فنأدى الغزاة في سبيل الله ففر معه جماعة فخال بين الفرنج وبين الحجر وقتل بعضهم ونزل اليه بقية الفرنج فكسروهم وقبض من مراكبهم ستة عشر مركباً فسر المسلمون بذلك سروراً عظيماً ، وكان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فاحرزوا اموالهم واولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض امتعتهم فتهبوا واخذوا ما وجدوا من زيت وصابون واحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتداركهم المسلمون ثم رحل النائب وانكسر الفرنج ثم عاد الفرنج الى مباحلة بيروت فتيقظ لهم اهلها فخاربوهم ونزل طائفة من الفرنج فوجدوا بالساحل خمسة عشر نفسا فقتلوه ثم قتل من الفرنج جماعة .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت فتنه بين نعيم بن مهنا امير العرب وابن عمه عثمان بن قارا ، فساعد يلبغا الناصري عثمان فكسر نعيم ونهبت امواله حتى قيل ان من جملة ما نهب له ثلاثون الف بعير . وفيها سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وبعض الشامية الى جهة التركان ، فنازلوا احمد بن رمضان التركاني عند الجسر على الفرات فكسر التركان وأسر ابراهيم بن رمضان وابنه وابوه ، فوسطهم يلبغا الناصري ، ثم تجمع التركان وواقعوا الناصري عند اذنة فانكسر العسكر وقلعت عين الناصري وجرح ثم تراجع العسكر ولم يفقد منه الا العدد اليسير ، فطردوا التركان الى ان كسروهم فغدر التركان بنائب حماة وبيتوه فانهمز ثم ركب يلبغا الناصري فيزيمهم .

وفي سنة ٧٨٧ توجه نواب الشام الى قتال التركان فانكسر العسكر وفتك فيهم التركان وقتلوا سودون العلاءي نائب حماة وغيره . وكان اصل ذلك ان السلطان امر نواب الشام بالتوجه الى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركان فوصلوا الى طيون وهي بين مرعش وابلستين فالنقى بهم سولي فقتل سودون نائب حماة في المعركة وكذا سودون نائب بهسنى فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل اخاه .

سلطنة برقوق وحالة المماليك } دخل الهرم في دولة الاتراك المصرية وزاد
 الجرية والشراكية } فساد العربان في البلاد ، وخامر غالب النواب
 في الشام وخرجوا عن الطاعة ، فاجتمع الاتابك برقوق متولي الامر والقضاة مع
 الخليفة وسائر الامراء في مصر فأوا الحاجة ماسة الى إقامة سلطان كبير تجتمع
 عليه السكينة ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة الاربعة مع الخليفة في سلطنة
 الاتابكي برقوق فجمعوا الملك الصالح امير حاج من السلطنة وسلطنوا الاتابك
 برقوق (٧٨٤) وهو اول ملوك الشراكية بمصر والشام والخامس والعشرون من
 ملوك الترك .

وكانت هذه الدولة التركية والشركسية التي أولدها عجباً في ضعف الادارة
 وقيام الخوارج ، لان الملك على الاكثر كان ضعيفاً يُنزل عن عرشه كل من عصا
 عليه ، واستكثر من المماليك وقدر ان يتسلط على عقول السذج من العربان وارباب
 الدرارة والطمع من الناس « والمماليك السلطانية الذين جرت العادة على انهم يفعلون
 الامور المشهورة عنهم من اخذ اموال الناس وهتك حريمها » . والقاهرة لا شأن لها
 بعد ان يتقاتل المتقاتلون على الملك او يقاتل القواد ارباب العصيان والتمرد ويظفر
 احد المتنازعين على السلطنة ، او الامير الذي وسد اليه اجنثا دابر العاصي ، الا ان
 تزين أسواقها سبعة ايام او ثلاثة ايام على الاقل . نفل ذلك لاقبل حادث يحدث
 حتى ولو قبض جماعة السلطان على احد صعاليك المماليك ممن خامر عليه واستنبح أناساً
 من الغاعة . وكانت دمشق في ايام الشراكية ثم في ايام الاتراك اخلافهم تزين
 سبعة ايام لاقبل ظفر يقع ، فيفرح السلطان وتندق البشائر . وكان من سلاطين
 المماليك اهل خير تغلب عليهم الرحمة وحسن السياسة ، وكان ضعفهم آتياً من جماعتهم
 المماليك لان لكل امير منهم جوقه ينفانون في حبه اذا تغلب عليه خصمه سجنهم
 او اقصاهم او نكبهم ، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحيهم ثم
 يعودون الى ما نهوا عنه وهكذا دواليك . والامة من اجل هذا تحرب ديارها ،
 وتهلك ابناءؤها وتذهب اموالها وعروضها ، حتى يسعد الطالع احد المتخاصمين فيتغلب
 على من يريد التغلب عليه . وهناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد ،

و بيايعهم يوم نصابهم ، وربما سجنوه واقصوه عن انظار الامة اذا شعروا بان هواه مع
غيرهم او يمكن ان يكون كذلك : اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من
سلاطين السلجوقيين والبويهيين وغيرهم في بغداد .

وقائع تيمورلنك

من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣

—>000<—

بداة تيمورلنك | بينما كانت امور الدولة في الشام ومصر محتلة معتله لا تستقر
ومناوشة جيشه | الادارة الشركسية على حال ، والمتوثبون على السلطنة
بكثرون ويقلون بضعف الملك وقوته ، جاء تيمورلنك من الشرق واخذ يتقدم نحو البلاد
بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الامر بدفعها ان لم يستعينوا بجيوش أخرى
فاصبحت البلاد بين عدوين داخلي وخارجي ، كما اصبحت في اواسط القرن السابع بين
عدوين احدهما من الشرق وهم التتار والاخر من الغرب وهم الصليبيون . وتيمورلنك
هو ابن ترغاي بن ابغاي مؤسس مملكة المغول الثانية ، ومعنى تيمور الحديد والآنك الاعرج
او الكسح بلغتهم ، لان راعياً ضربه فيما قيل بسهم في نخذه ادخله به في زهرة العرجان ،
وفي رواية انه اصيب بسهم في الحرب في صباه . ولد تيمورلنك في قرية خواجه ايلغار من اعمال
كش من مدن ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م (ومات في اوترا سنة ٨٠٧—١٤٠٥
بينما كان ذامباً لفتح بلاد الخطا في الصين وحيء به الى سمرقند فدفن فيها) .

وكان تيمور يمت بقراية بعيدة الى آل البيت الملوكي من المغول ذرية جنكيز
خان ، وذلك من جهة الامهات لا الآباء ، ورأس ابوه قبيلة برلاس التركية وحكم
ولاية كش وقد تيمت صغيراً وسلبه جيرانه امارته ، فتوسل تيمور الى امير بلاد كاشغر
ملك الجغتاي فانعم عليه بولاية ماوراء نهر جيحون ، ثم نزع يده من يد امير كاشغر
وانضم الى عمه حسين ، ولما ماتت زوجته وقيل انه هو الذي قتلها بيده اصبحت تيمور في

حل من امره ، وداهم حسيناً وتغلب عليه واستولى على بلخ فاصبح ملكاً على بلاد الجغتاي كلها « ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الاقران تزوج بنات الملوك فزادوه في القابه كور كان وهو بلغة المغول الختن » وكان عهد تيمور كله عهد حروب وفظائع في القتل ، يقتل الناس بالالوف وعشرات الالوف ، اذا لم يخضعوا لسلطانه في الحال قاتل السخاوي : وكان يقرب العلماء والسمراء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف امره ادنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيبته لاتداني بهذا السبب ، وما اخرب البلاد الا بذلك فانه كان من اطاعه من اول وهلة آمن ومن خالفه ادنى مخالفة وهي ، انجد تيمور احد الخانات على اوروس خان ملك قسم من بلاد روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان وهرات وطوريس وقارص ونفليس وشيراز واصفهان وكشغر ومازندران والعراق بأسره وخرّب حفيده محمد بلاد بولونيا وروسيا ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غاب عليها وفتح افغانستان وجلب من الهند الى بلاده المهندسين والنقاشين . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) وطلبه ووضع يده في قفص من حديد واخذه يعرضه على الناس فهلك قيماً ، وباستيلائه على ازمير اضطر امبراطور القسطنطينية ان يؤدي اليه الجزية .

هذا الفاتح خرب عاصمى الشام حلب ودمشق وكم خرب من مدن عامرة جداً في آسيا وكان ملوك اوربا يخافونه وكثيراً ما ارسلوا الوفود لتهنئته بانصراته .

هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشؤومة الا باسباب اوجدتها النوب والامراء والملوك على الارجح ، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٨ ان اطمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركاني صاحب تبريز وارسله الى الملك الظاهر فاعتقله ، فكانت هذه الفعلة اعظم الاسباب في حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية . وقال في حوادث سنة ٧٩٩ وصلت كتب من تيمورلنك فعوقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم الى القاهرة ومضمونها التحريض على ارسال قريبه اطمش الذي اسره قرا يوسف ، فامر السلطان اطمش المذكور ان يكتب الى قريبه كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه من الخير والاحسان بالديار المصرية ، وارسل ذلك السلطان

مع اجوبته ومضمونها اذا اطلقت من عندك من جهتي اطلقت من عندي من
جهتك والسلام .

فالتقاءون بالامر هم الذين فتحوا تيمورلنك السبل لغزو البلاد فيما بعد ، غزوة اذلت
العزير وافقرت الغني وخربت العامر . قال ابن حجر ايضاً : لما رجع تيمورلنك الى الشرق
وكان هذا دأبه اذا بلغه عن مملكة كبيرة وملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها
الى ان يحصل مقصوده فيتركها بعد ان يخربها ويرجع ، فعل ذلك بالشرق كله وبالهند
وبالشام وبالروم .

ارسلت مصر في سنة ٧٩٠ عسكرياً على تيمورلنك في سيواس فانكسر عسكري تيمورلنك
وكان ذلك من الوقائع الاولى بين تيمورلنك وعسكر الشام ، ولو كان في الدولة اذ ذاك
رجال عقلاء لضموا شملها حتى تقوى على عدوها الزاحف عليها ولكن شغلت البلاد بنفسها .
ومن الاحداث في هذه السنة منازلة الفرنج طرابلس الشام فواقعهم المسلمون فكسروهم
واخذوا منهم ثلاثة مراكب .

القتال على الملك } حاصر يلبغا الناصري نائب حلب (٧٩١) وخرج عن
الطاعة وقتل الامير سودون المظفري الذي كان نائب
حلب قبله وقتل اربعة أنفس من مماليك سودون ، وامسك حاجب الحجاب بحلب
وجماعة من امرائها ، وأظهر يلبغا الناصري العصيان والنف عليه جماعة كثيرة من
مماليك الاشرف شعبان ، وكان من جملة من النف على يلبغا تمربغا الافضلي المدعو
منطاش مملوك الظاهر بزقوق ، وعهد سلطان مصر الى اينال اتابك العساكر بدمشق
ليكون نائب حلب وحلف السلطان الامراء من الاكابر والاصاغر بان يكونوا معه
كلية واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصري فحلفوا على ذلك جميعهم ، وأرسل الى
يلبغا تجريدة . وانتشب القتال بين امراء الغرب النوخية وبين عشيران البر أهل
كسروان والامراء اولاد الاعمى وكان النوخية ميالين الى الملك الظاهر وكان
الكساروة مع أرغون نائب منطاش في بيروت فاستظهر أهل كسروان على امراء
الغرب وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفرأ وأمسكوا جماعة فسهموا بعضهم ووسطوا آخرين

وأحرقوا عدة قرى من الغرب وتلقبوا بعشران البر . ثم اتت العساكر الظاهرية زحفت على تركمان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة .

ولما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة أحسن عمارة في أسرع وقت وكانت من وقعة غازان خراباً ، فلما انصر كمشبغا على اعدائه قتل غالب اهل محلة بانقوسا وكانوا زيادة على اربعة آلاف نفس وقتل كبيرهم احمد بن الحرامي وخربها الى ان جعلها دكا .

عوامل الخراب) ذكر الاسدي ان السبب في خراب الشام في القرن الثامن انتشار قيس ويمين) الشرور بين القيس واليمن ووقوع الحرب والقتال بينهم ، والسبب في ذلك تغيير العوائد والتدليس على الملوك والحكام وولاة الامور ، بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل ، والعسف في الحكم والميل مع القوي ، وانهاك الضعيف وعدم رد لطفة الملهوف ، ومع تغيير العوائد وقع الاغراء فيما بينهم والشر والتحاسد فاضطر كثير من اهل الزرع والضرع الى التردد والعصيان والتشرد عن الاوطان وتسلطت العربان والعشران^(١) على الاراضي والبلدان ، وتراكت الأهواء ووقع التحاسد والاغراء الموجبان لسفك الدماء ، فنهبت الاموال وقتلت الرجال وتخلت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل ، وصار اهل الزرع والضرع من الفلاحين على صهوات الخيول مارقين ، الى ان اوجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان ، وصارت دمناً ليس فيها انسان ، وفي ذلك ما يشهد به الديوان من اسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الدائر في هذا الزمان ، والموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة والامكان ، ونقض سنة العدل وسوء التصريف والاخذ في جانب النقص والنقصان الى ان صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشيران وصار الاعيان منهم يظهرون

(١) العشيران جمع عشير أطلق في الشام على بعض القبائل التي سكنت في البقاع وجبل لبنان . قال المقر يزي : عشير الشام فرقتان قيس ويمين لا ينفقان قط وفي كل مدة يثور بعضهم على بعض .

الطاعة للسلطان و يبطنون المخالفة والعصيان ، ويستخفرون الاموال بالظلم والطغيان ، ويرضون ببعضها من له في الدولة كلام وامكان ، وبما يحملونه من الهدايا والاموال يرشون به الاعوان ، فيسعى لهم ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدي الملك والامير والسلطان ، فيصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه اذا عاد اليه ذاقوة وسلطان ، وسطوة وأعوان ، وخيول وميدان ، واقطاعات ونعم وديوان .

فلما وهذا الاختلاف الدائم بين قيس وبين كان يقوى ويضعف بحسب الوازع ، فاذا وفقت البلاد الى حاكم يقول ما كان يقوله ويعمل به السندي والي دمشق في القرن الثالث وهو يسوي بين القحطاني والعدناني : « لسنا نقدمكم الا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم اخوة وليس للتزاري شيء ليس للياني مثله » وكان يتغدى مع جلة الفريقيين ويسوي بينهم في الاذن والمجلس . فاذا كان الحاكم من هذا الطراز تسكن نعمة القيسي والياني والافينقاتلون ويخربون العمران ويقتلون الانسان . وكانت هذه النعمة شديدة في بلاد دون أخرى من ارض الشام ، فقد كانت في القديم في حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا : « اذل من قيسي بحمص » وذلك ان حمص كلها لليمن ليس بها من قيس الا بيت واحد . ثم كانت ترى آثارها في حوران ولبنان وربما انتقلت نعمتها من حوران منذ عهد جلاء كثير من الأسر المسيحية الى جبل لبنان وبقيت في هذا الجبل الى القرن الماضي ثم اضمحلت .

وفي هذه الاثناء زكب عسكر طرابلس على النائب وقتلوا من امراء طرابلس جماعة وركب مماليك نائب حماة سودون العثماني مع عسكر حماة وأرادوا قتله فيهرب الى دمشق ، فوعدت الفتنة في سائر بلاد الشام . ولما تحقق يرفوق ان البلاد قد افنتت خاف على نفسه وامر نائب القلعة بمصر بان يضيق على الخليفة ويمنعه من الاجتماع بالناس ، وكان مسجوناً بالقيد في برج بالقلعة ، وأصدر امره بالتضييق على السادة اولاد السلاطين في دور الحرم ، ووصلت الخبر بدة من مصر الى دمشق والنعمي عسكر مصر مع عسكر بلبيغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وانصر عليهم بلبيغا ، ثم جيش بلبيغا وساق جيشه الى مصر فالتف اكثر امراء مصر عليه

وقاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق الى ترك سرير السلطنة وأعيد الملك الصالح امير حاج بن الملك الاشرف شعبان سلطاناً على مصر والشام ، وأخذ الظاهر برقوق الى قلعة الكرك فسجن فيها وانذبوا بعد حين لقتله رجلاً فقتله الرجل الذي بخدمة الملك الظاهر ، وأراد اقارب الرجل الذي بخدمة الملك قتل نائب الكرك فاستجار بالملك الظاهر فأجاره واستولى برقوق على القلعة بعد ان قام من الحن والاهوال امرأ عظيماً وانه مماليكه الذين كانوا بقوص من ارض مصر وقتلوا واليهما والتحقوا به والنف عليه العربان وقصد دمشق فجاءه نائب غزرة في خمسة آلاف مقاتل من عربان جبل نابلس فأوقعوا مع الظاهر برقوق واقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزرة فهرب عسكر برقوق عسكر غزرة فثقوا بتلك الغنيمة ، وكان الظاهر كمامر بقرية يخرج اليه اهلها ويلاقونه ومعهم العلف والضيافة ، ولما بلغ برقوق قرية شقبق خرج اليه عسكر دمشق وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة فقتل بها من امراء دمشق ستة عشر اميراً ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

وصادف ان خرج عن الطاعة كمشيغا الحموي نائب حلب واستولى ابناء اليوسفي على قلعة صند وهو من جماعة الظاهر فقويت شوكته ودخل الظاهر برقوق دمشق ، ونزل في الميدان فكبس عليه اهل دمشق واخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد ، لان بعض مماليكه عبت ببعض السوقة واخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقى فحضر اليه جماعة من اهل دمشق وتعصبوا له فاستطال ذلك المملوك وضر بهم فرجمه اهل دمشق ، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقالبع ، فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الامراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا فدخل العوام الى الميدان ونهبوا برك الظاهر برقوق وأغلقت ابواب دمشق وكان برقوق اشرف على اخذ قلعة دمشق وراج امره فتعطل بسبب ذلك .

ثم جرد الملك المنصور امير حاج عسكراً من مصر وجاء الشام لينزع الملك من الملك برقوق ، فلما وصل العسكر الى غزرة تسحب اكثر عسكر الملك المنصور الى الملك برقوق لان دواهم كان معه ، ووقعت بين عسكر الملك المنصور وعسكر الظاهر برقوق

على شقحب (٧٩٢) فانكسر الظاهر برقوق كسرة قوية فهرب برقوق في نفر قليل من
العسكر ونواري خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه
بعض العرب واختبره بان الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، وكان على يوم من دمشق
فكئيب عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو اربعين انساناً فذُعر عسكر المنصور
وغُلت ايديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالبلاذ على الطائر واحتوى على
كل ما معهم من البرك والاتقال والقياش والسلاح وخزائن المال ، فلما جرى ذلك
تسامع به الناس فجاؤا اليه افواجا من كل مكان ، وبلغ ذلك منطاش وحضر معه
عساكر دمشق وغيرهم فحصل بينهم واقعة اعظم من الواقعة الاولى وقتل بها كثير من
الخلائق فانكسر الاتابكي منطاش وعسكر دمشق فولوا هاربين الى نحو دمشق ، واقام الظاهر
برقوق بمنزلة شقحب ، ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين
الملك الظاهر برقوق وبين الملك المنصور امير حاج في ان يخلع نفسه ويسلم الامر الى
الملك الظاهر برقوق ، فاجاب الملك المنصور الى ذلك واحضر الخليفة المتوكل والقضاة
الاربعة وخلع نفسه من الملك واشهدوا عليه بذلك . ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا
الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب واقام الظاهر هناك تسعة ايام ،
ثم رحل الى مصر ومعه الخليفة والملك المنصور والقضاة الاربعة ودخل مصر بلا منازع ،
وكان مماليكه قد وطدوا له الامر قبل وصوله وخطبوا له على المنابر فعماد واستولى
على مصر والشام .

* * *

الخوارج على } وملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك والتف عليه جماعة من
ملوك مصر } عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ومن
عربان جبل نابلس ونهب عدة ضياع من الشام ، وارسل منطاش شخصا يسمى تمان تمر
الاشرفي الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كمشبغا الحموي قد ثقل امره على اهل
حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب اشد المحاصرة وتعصبوا لمنطاش
فنبقوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشبغا نائب حلب يقصاتهم من داخل النقب
على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة اشهر ، فانصر كمشبغا نائب حلب على

ثمان تمر الاشرفي الذي ولاء منطاش على حلب فانكسر ثمان تمر وولى هاربا ثم توجه منطاش الى طرابلس فحاصرها حتى ملكها وهرب من كان بها من الامراء والنائب وهرب اكثر اهلها الى دمشق ، ثم حاصر منطاش دمشق فانفق عوامها على ان يسلموه المدينة ليلاً وكانوا يحبونه اكثر من الملك الظاهر برفوق .

فلما بلغ ذلك الامراء الذين من قبل الظاهر برفوق خرجوا الى ظاهر دمشق ووقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو الف انسان . ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة ثم توجه منطاش الى عينتاب فالتف عليه جماعة كثيرة من التركان ، فحاصر المدينة اشد ما يكون من المحاصرة فملكها ، وهرب النائب الذي كان بها فلما دخل الليل جمع نائب عينتاب جماعة كثيرة من التركان وكبس على منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي انسان وهرب منطاش نحو الفرات ، ثم ان منطاش جمع قوته وخامر على السلطان اكثر التركان والعربان والنفوا على منطاش (٧٩٣) فتوجه الى دمشق وحاصرها فخرج اليه نائبيها فيرب منطاش الى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها احداً من الامراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باباً فدخل منه الى المدينة ونهب الاسواق واخذ اموال التجار والخيول ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته .

بلغ السلطان في مضر ما وقع في الشام فقوي عزمه على الخروج الى منطاش ، فجاء دمشق ونادى فيها بالامان لان اهل دمشق لما خرج الظاهر برفوق من انكره ودخل الى دمشق رجموه واخرجوه من بلدهم هائماً على وجهه ونهبوا اثقاله وقماشه ، فضج اهل دمشق له بالدعاء وسكن ما كان عندهم من الاضطراب ، واقام اياماً في دمشق . ولما توجه الى حلب جاء نعيم بن جبار امير آل فضل ونهب ضياع دمشق وكان نعيم عاصياً على السلطان وهو ملتف على منطاش واخرى غالب بلاد الشام ونهب ضياعها فلما بلغ نائب دمشق محيي نعيم خرج اليه ووقع معه واقعة قويت في قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق وقتل عسكر دمشق جماعة ثم رجع نعيم الى بلاده . اما منطاش فلما بلغه محيي السلطان من مصر هرب الى بلاد التركان .

ولما عاد سلطان مصر الى عاصمته هجم (٧٩٤) نحو خمسة عشر مملوكاً وقيل خمسة
انفس على نائب قلعة دمشق وتوجهوا نحو السجن الذي بها واخرجوا من كانه من الخايس
الذين من عصابة منطاش وكانوا نحو مئة مملوك ، فقويت شوكتهم بالسجناء وهجموا على
نائب القلعة وقتلوه وملكوا القلعة ، فقاتلهم عسكر دمشق وحاصروا من بالقلعة ثلاثة
ايام فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم عسكر دمشق على باب القلعة واحرقوه ودخلوا
الى القلعة وقبضوا على المالك كاهم ووسطوهم اي قطعوهم نصفين تحت باب القلعة
وامسكوا الثائرين فلم يبقوا منهم الا من هرب .

وعاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع جماعة التركان فخرج اليه عسكر حلب
وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً الى الزوات ، ثم ان منطاش ونعيم بن جبار
امير العربات اتفقا (٧٩٥) بمن معها من العسكر وحاصروا حماة فخرج اليهم نائبها
فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة وهرب ، فدخل منطاش ونعيم الى
المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا اموال التجار ، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو
وعساكر حلب وكبس على بلاد نعيم ونهب امواله واخذ اولاده ونساءه وأحرق بيوته
وقتل من عربانه كثيراً فأرسل نعيم يطلب من نائب حلب اولاده ونساءه الذين
أميرهم فأرسل نائب حلب يقول له : ما أطلق لك اولادك ونساءك حتى تسلمنا
منطاش . وكان منطاش قد تزوج من بنات نعيم واستنسل منهم . فلما رأى نعيم
ان السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا امواله ومواشيه وأسروا اولاده ونساءه ، قصد
ان يرضي السلطان بامر مساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان ،
فندب نعيم الى منطاش اربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجراً
شق به بطنه فغشي عليه فحملة العبيد واتوا به الى نعيم فقيده وارسله الى نائب حلب ثم
حمل الى القاهرة ، وجعل الموكل بحمله يعاقبه ويعصره ويقررده على الاموال التي غصبها
من البلاد فلم يقر بشيء ، ودخل عليه النزاع فقطع رأسه ووضع في علبة وحملة الى السلطان
في مصر ثم ارسل السلطان الى نعيم خلعة وأقره على عادته امير آل فضل .

قال ابن اياس : وعنه أخذنا هذه الحوادث فما صدق الناس بان فتنه منطاش
قد خمدت عنهم حتى امتدت لهم فتنه أخرى ، فوردت الاخبار بان ثيمورلنك اخذ

تبريز وشيراز وركب الظاهر برقوق الى الشام وجاءه في حلب قاصد من عند ابن
عثمان ومعه مطالبات مضمونها ان يكون هو والظاهر بدأ واحدة على دفع تيمورلنك
فأجاب الظاهر الى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره ، ثم حضر اليه قاصد
طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالبات تضمن ماقاله ابن عثمان فأجاب الظاهر
كما أجب ابن عثمان . فلما اقام الظاهر بحلب بلغه ان جاليش (اعلام) عسكر
تيمورلنك قد وصل الى البيرة . ثم بلغه ان تيمورلنك رجع الى بلاده فلما تحقق ذلك
عاد هو الى مصر . وفي سنة ٧٩٩ اخذ عسكر تيمورلنك مدينة ارزنجان وقتل اهلبا
ونهب ما فيها فلما سمع سلطان مصر والشام ذلك ارسل الى نوابه في الشام ان يتوجهوا
الى شاطيء الفرات ويحصنوا البلاد فخرجوا كلهم واقاموا هناك ، وكانت ارزنجان
من جملة البلاد التي خطب فيها لصاحب مصر والشام الملك الظاهر برقوق كما
خطب له في تبريز والموصل وماردين وسنجار ودوركي ، وضربت السكة باسمه في
هذه الاماكن .

وفي سنة ٨٠١ تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان ووصلت طلائعه
الى ابلستين وهو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربتة والخروج عليه ،
وان يؤخذ من اجرة الاملاك شهر واحد ينقوى بها العسكر على دفع العدو ، ثم ظهر
ان ابن عثمان وصل الى ملطية وملكها ولم يشوش على احد من اهلبا وامر عسكره
بان لا يذهبوا لاحد من الرعية شيئاً ، فأقام بملطية اياماً ثم رجع الى بلاده فبطل
امر التجريدة عليه .

وفي سنة ٨٠١ توفي الظاهر برقوق وتولى السلطنة	} وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
بعده ابنه الناصر فرج وله من العمر نحو اثني عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام	

كثير طمع القريب والبعيد في اكتساح البلاد . وكان من ذلك الحظ الاكبر لتيمورلنك
حتى انه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح واعطى من بشره بذلك خمسة عشرين الف
دينار ، وتهيأ للسير الى الشام فجاء الى بغداد واخذها ثانية .

وفي سنة ٨٠٢ خامر نائب الشام واطهر العصيان واطلق من كاث مسجوناً من الامراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب وكان اسمه نيم عسكرياً عظيماً من الشام وقصد نحو الديار المصرية ووصل ارائل عسكره غزوة ، بجيش السلطان الملك الناصر فرج وسار الى الشام ، فلما وصل كان اقبغا اللكاش نائب غزوة خرج هو ونائب حماة ونائب صفد الى قتال الملك فدهش النواب ، فكان اول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان — وكان مع نيم نائب الشام نواب طرابلس و حلب و حماة و صفد و كثير من العربان و ظن نفسه انه اصبح سلطاناً — خامر الجميع على نيم نائب الشام وتوجهوا اليه في غزوة فملك السلطان غزوة وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الامراء واتوا الى مدينة الرملة فصار السلطان في غزوة وهم في الرملة ، فواسلهم السلطان في الصلح فابوا فتلاقى العسكران (على مكان يسمى الحبطين) فكان بينهم هناك وقعة عظيمة فوقعت الكسرة على نيم نائب الشام وامسك واحتاطوا على بركة ودوابه ، وقبض الملك الناصر فرج على جملة من الامراء الذين خامروا عليه وقيدهم وحبسهم في قلعة دمشق . ودخلها في موكب عظيم وقدمه نيم نائب دمشق . وهو مقيد راكب على كديش ابلق ومعه عشرة من امراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة ، ثم قتل وخنق عدة امراء منهم وذكروا ابن حجر هذه الحوادث بما نصه : وفيه (٨٠٢) توجه اقبغا اللكاش ومعه جماعة الى غزوة من جهة نائب الشام فملكها في ربيع الاول ، وتوجه حلتان ومعه جماعة الى حلب فحاربوا صاحبها ثم تبعهم الامير نيم بن تآخر معه ، فلما وصل الى حمص تسلمها وتسلم القلعة ولم يشوش على النائب بل قرر غيره في النيابة ، ثم وصل الى حماة فحاصرها فاتصل به وصول التمش ومن معه فرجع منها الى دمشق ، ووصل اليه نائب طرابلس فبلغه بعد ان خرج من طرابلس ان اهلها وثبوا على نائبه واقفلوا ابواب البلد الجدد فرجع عليهم ودخلها عنوة وقتل من اهلها مقللة عظيمة ، حتى قيل ان اقل من قتل منهم الف نفس منهم مفتي البلد وقاضياها ومحدثها وهرب اكثر اهلها ومن تأخر اما قتل واما صودر قال : واراد يونس الرماح نائب طرابلس احراق البلد فاشترت منه بثلاثمائة وخمسين الف درهم جبيت ممن بقي بها من اهلها .

الحرب الاولى) وفي هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمورلنك - في وقعة
 مع تيمورلنك) مع صاحب بغداد القان احمد بن اويس وقرا يوسف امير
 التركان ، فلما انكسر النار اتوا الى ملطية وكانوا نحو سبعة آلاف انسان فارسلوا الى
 نائب حلب يقولون له عين: لنا مكاناً ننزله ، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب
 حماة فتوجهوا الى عسكر تيمورلنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة وقتل
 من عسكر حلب جماعة كثيرة ، وكانت هذه اول الفتن الكبرى بين عسكر مصر
 والشام وبين تيمورلنك في هذه الديار ، فأمر السلطان نواب دمشق وصيد وطرابلس
 بان يجتمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها ، فأرسل تيمورلنك الى دمرداش
 نائب حلب يعده بان يبقيه على نيابته بشرط ان يمكسك سودون نائب الشام ، فأطلع
 دمرداش على ذلك سودون فوثب على الرسول فضرب عنقه فلما بلغ ذلك تيمورلنك
 نازل حلب ، ولكن تيمورلنك اذا تظاهر الشرا كسة بالقوة امامه يعرف ما يندمج عليه
 نفوسهم وتصل اليه قرايهم ، واذا انكسر له فيلحق صغير لم يكن الا على اتم المعرفة
 بما عند من يريد فتح بلادهم ، وكان له « جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم
 يملكها ، فسكانوا ينهون اليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكتبونه بجميع ما يروم ،
 فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من امرها ، وبلغ من دهائه انه كان اذا اراد
 قصد جهة جمع اكابر الدولة وتشاؤروا الى ان يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني
 الى الجهة الفلانية ، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرها
 ويأمن غيرها ، فاذا ضربوا النفير واصبحوا سائر بين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين ،
 فالى ان يصل الخبر الثاني يكون دهم هو الجهة التي يريد واهلها غافلون » .

وذكر ابن حجر انه كان ابتداء حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية في سنة
 اثنتين وثمانمائة . وأصل ذلك ان احمد بن اويس صاحب بغداد ساءت سيرته وقتل
 جماعة من الامراء وعسف على الباقيين ، فوثب عليه الباقون فأخرجوه منها ، وكتبوا
 نائب تيمورلنك بشيراز ان يتسلمها فتسلمها ، وهرب احمد الى قرا يوسف التركماني
 بالموصل فسار معه الى بغداد فالتقى به اهل بغداد فكسروه ، واستمر هو وقرا يوسف
 منزهين الى قرب حلب ، وقيل بل غلب على بغداد وجلس على تحت الملك ، ثم صار

صحبة قرا يوسف فوصلا جميعاً الى أطراف حلب وسألا ان يطالع السلطان بامرهما فكاتب احمد بن اويس يستأذن في زيارته مصر ، فأجيب بتفويض الامر الى النائب نخشي دمرداش نائب حلب ان يقصد هو وقرا يوسف حلب فسار دمرداش نائب حلب ومعه طائفة قليلة منهم نائب حماة ليكس احمد بن اويس بزعمه ، فكانت الغلبة لاحمد فانكسر دمرداش وقتل من عسكره جماعة ، ورجع منهزماً وأسر نائب حماة ثم فدي بستمائة الف درهم ، ثم جمع نعيم والنائب بهسني جماعة والنقوا مع احمد بن اويس فكسروه واستلبوا منه سيفاً يقال له سيف الخلافة وصحفاً واثاثاً كثيرة . فوصلت الاخبار بذلك الى القاهرة فسكن الحال بعد ان كان امر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمرداش وأرسل يريدياً الى الشام بالتجهيز الى جهة حلب .

* * *

تيورلنك على ابواب حلب } وصل تيورلنك بعد فتح عينتاب الى الباب ويزاعا
بالقرب من حلب وأرسل الى نائب حلب قاصداً ومعه
المكاتبات من تيورلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . وذكر ابن حجر ان كتاب
تيورلنك الى نائب حلب يقول فيه : انا وصلنا في العام الماضي الى البلاد الحلبية
لاخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعني الظاهر ، وبلغنا امر الهند
وما هم عليه من النساد فتوجهنا اليهم فاظفرنا الله تعالى بهم ، ثم رجعنا الى الكرج
فاظفرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة ادب هذا الضبي ابن عثمان فاردنا عرك اذنه فشغلنا
بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم ، ونحن نرسل الكتب الى مصر فلا يعود جوابها
فنعلمهم ان يرسلوا قربنا اطلب وان لم يفعلوا فدماء المسلمين في اعناقهم والسلام .
حتى نائب حلب وامر بضرب اعناق قصاد تيورلنك ، فاضطربت عند ذلك
احوال مدينة حلب وحصنها سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين ، وقد ارتكب نائب
حلب خطأ فاحشاً بقتل الرسول والرسول لا تقتل في العادة ، ظاناً وجماعته من
الحلبيين ان لم قوة تقاوم قوة تيورلنك . قال بعض المؤرخين : لما كان اهل حلب
وصاحبها يتشاورون في دفع عادية تيور عنهم قال نائب طرابلس في جملة قوله : انا

نظير الى الآفاق اجنحة البطائقي الى الاعراب والاكراد والتراكمة فيتسلطون عليه من الجوانب . وفي ذلك دليل آخر على جهل امراء الشام بقوة تيمورلنك وعجزهم عن كشف اخبار جيوشه وتقدير مبلغ قوته . وذكر بعض المؤرخين ان عسكر تيمورلنك كان لما أسر سلطان العثمانيين اربعمائة الف فارس وستمائة الف راجل . وذكر ابن حجر عن ابن الشحنة عن الخوارزمي ان ديوان اللنك اشتمل على ثمان مائة الف مقاتل ، وعلى كل فeskره كان بضع مئات الالوف .

لما بلغ تيمورلنك ما فعل الحلبيون بقصاده زحف الى قرية حيلان واحاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع ، فخرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وخرج لقتال تيمورلنك من أهل حلب حتى النساء والصبيان ، ووقعوا مع تيمورلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقصد دهمتهم عساكر تيمورلنك كما موج البحر المتلاطمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مديرين الى المدينة ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وكان احتجى بالمزارات والمساجد الحم الغفير من النساء والاطفال ، فدخل النار اليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الابكار تفتنض في المساجد وأباؤهن يشاهدونها ، ولم يرعوا حرمة الجوامع وأصبحت كالمجزرة من القتل واستمر ذلك يتزايد أربعة ايام .

وفي كنوز الذهب ان جيش تيمورلنك لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبي وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها وينعلون بها ما لا يليق ذكره ، فلجأ النساء عند ذلك الى جامعها ظناً منهن ان هذا يقين من أبدي الكفرة وصارت المرأة تظلي وجهها بطين اء بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها ، فيأتي عدو الله اليها ويفسل وجهها ويجمعها في الجامع . قال : وحكى بعض من حضر الوقائع بان تيمور عرض الاسرى من بلاد الشام ونواحيها فكانوا ثلاثمائة الف اسير وستين الف اسير .

رأى دمر داش نائب حلب عين الغلب فنزل من القلعة هو وبقيّة النواب ، واخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا الى تيمورلنك يطلبون منه الامان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل احمر والبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : انتم صرتم نوابي ،

ثم ارسل معهم جماعة من امزائه يتسلمون القلعة ، وكان فيها من الاموال والذخائر والحلي والسلاح ما تعجب اللنك من كثرته ، حتى اخبر بعض اخصائه انه قال : ما كنت اظن ان في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، فاستنزلوا من كان بها وهم في قيود وغدر بهم بعد ان امنهم ، واخذ جميع ما كان فيها من الاموال والمتاع ثم خرب القلعة واحرق المدينة . واستمر مقيماً على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الاشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد اسرفوا في القتل ونهب الاموال ، وصارت الارجل لا تظأ الا على جثة انسان لكثرة القتل ، حتى قيل انه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً ، وصعودها في الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح وتركوا اجساد القتلى في الفلاة نهبها الكلاب والوحوش . فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين الف انسان ، عدا من هلك من الناس تحت ارجل الخيول عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك — هذا ما قاله ابن تغري بردي وابن حجر وابن اياس وعنه للخص . وقال ابن حجر : ان اعظم الاسباب في خذلان العسكر الاسلامي ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من القاء النمنمة بين التركان والعرب حتى اعانه بعض التركان على اموال نعيير فنهبها فغضب نعيير من ذلك وسار قبل حضور تيورلنك فلم يحضر الواقعة احد من العرب . وقال بعضهم : ان دمرداش كان باطن تيورلنك لكثرة ما كان تيورلنك خدعه ومناه .

* * *

تيورلنك على حاة } ووصل تيورلنك الى حاة وسلمية فأرسل جماعة من عسكره
وسلمية وحمص } الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا في وادي بين
جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب
والخجارة فولوا مدبرين . وذكروا ان ابن رمضان امير التركان جمع عساكره وجاء
حلب بعد رحيل تيورلنك وطرده من بها من عساكر تيورلنك النازلين بحلب . وفعل
تيورلنك باهل حاة كما فعل باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها ، ولم تطل

يده الى حمص فوهبها كما قال خالد بن الوليد . قال ابن حجر : وذكر بعض من يوثق به انه قرأ في الحائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحجة منقوشاً على رخامة بالفارسي ما نصه : ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد ، تخاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لنتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا ، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من اصلنا فسجنوهم ، فتوجهنا لاستخلاص قريبتنا من ايدي مخالفينا وانفق في ذلك نزولنا بحجة في العشرين من شهر ربيع الآخرة .

* * *

تيمورلنك على) وجاء تيمورلنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ)
دمشق) اي في غربي دمشق في قطننا واقليم البلان الى ميسنوف
وقوي عزمه على فتحها لما بلغه ان الملك فرّ منها الى مصر فأرسل تيمور الى نائب
دمشق رسولا من قبله فقتله قبل ان يسمع كلامه . جرى في ذلك على ماجرى عليه
نائب حلب فزاد تيمورلنك حنقا .

ومن الغريب ان نائب حلب ودمشق لم يتدبرا قوة تيمورلنك حق قدرها وهي
منها على قيد غلوة وظنا باعتصامها في قلعتي المدينة . وبالقليل ممن عندهما من العسكر
واحداث البلدين يستطيعان ان يتغلبا على جيوش تيمورلنك المؤلفة كما قال عرشاه :
من رجال توران ، وابطال ايران ، ونموز تركستان ، وفهود بلخشان ، وصقور الدشت
والخطا ، ونسور المغول وكواسر الختيا ، وافاعي نخند ، وثمانين ابدكاف ، وهوام
خوارزم ، وجوارح جرجان ، وعقبان صغانيان ، وضواري حصارشادمان ، وفوارس
فارس واسود خراسان ، وضباع الجبل وليوت مازندران ، وسباع الجبال وقماسيح
رستمدار وطالقان ، واهل قبائل خوز وكرمان ، وطأس ارباب طيالس اصهبان ،
وذئاب الري وغزني وهمدان ، وافيال الهند والسند وملتان ، وكباش ولايات
المور وتيران شواحق الغور وعقارب شهرزور ، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور .

قوم اذا الشر ابدى نالجديه لهم طاروا اليه زرافات ووحداً
مع ما أضيف اليهم من اعيار الخدم ، وفواعل التراكمة والاوباش والحشم ،

وكلاب النهاب من رعا ع العرب وهمج الهجم ، وحثالة عباد الاوتان ، وانجاس مجوس
الام ، ما لا يكثفه ديوان ، ولا يحيط به دفتر حسابان اه .

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه ومن معه من المتعصبة والمتلصقة
وارباب الدعارة من الشطار والاحداث الاغيار ، قضت على اعظم مدينة في الارض
كانت في غابر الايام . وذكر ابن اياس : انه كان بين اهل دمشق وبين عسكر تيورلنك
في اول يوم واقعة عظيمة فقتل من عسكر تيورلنك نحو النقي انسان ، فارسل تيورلنك
يطلب من اعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، يمشي بينه وبين اهل دمشق في الصلح فلما اتى
فاصد تيورلنك بهذه الرسالة اشتور اهل دمشق فيمن يرسلونه الى تيورلنك فوقع الاختيار
ان يرسلوا اليه القاضي نقي الدين بن مفلح الحنبلي فانه كان انساناً طلق اللسان يعرف
بالتركي وباللسان العجمي فأرخوه من اعلا السور بسرياق ضخم ومعه خمسة انفس من
ايعان دمشق ، فغاب عند تيورلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بان تيورلنك تल्पف
معه في القول ، وقال له : هذه بلد فيها الانبياء وقد اعنقها لهم . وشرح من محاسن
تيورلنك شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل اهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته ، فصار
اهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربهه وكان اكثر اهل
البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ثم غلب رأيه ورأي اصحابه ، فقصد ان يفتح باب النصر
فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : ان فعلتم ذلك احرقت البلدة جميعها ،
ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً قال :
ثم قبض تيورلنك على ابن مفلح واصحابه واودعهم في الحديد وآخر الطب الكي .

وصف افعال تيورلنك } وذكر ابن تغري بردي انه لما قدم الخبر على اهل
في دمشق } دمشق بأخذ حلب نوذي في الناس بالرحيل من
ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون
من حماة فعظم خوف اهلها ، وهموا بالجللاء فمنعوا من ذلك ، ونودي من سافر نهب
فعاد اليها من كان خرج منها ، وحصنت دمشق ونصبت المناجيق على قلعة دمشق
ونصبت المكاحل على اسوار المدينة واستعدوا للقتال ثم نزل تيور بعساكره على قطنا ،

فماتت عساكره الارض كثيرة ، وركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان والامراء قد تهيأوا للقتال ، وصفت العساكر السلطانية فبرز اليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان ، وانهزم العسكر الغزاوي وغيرهم الى ناحية حوران وجرح جماعة وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة لياخذ دمشق ، فدفعته ميمنة السلطان باسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه ، ونزل كل من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال اطمش احد اصحابه اليه وانه هو ايضا يبعث من عنده من الامراء المقبوض عليهم في واقعة حلب . ثم هرب الملك لانه بلغه انهم يسلطون غيره في مصر فاراً بجماعته .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والمحميين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ما عدا العساكر الذين خلفوا بدمشق من اهل دمشق ولما اصبحوا وقد فقدوا السلطان والامراء والنائب غلقوا ابواب دمشق ، وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل دمشقيون من اعلى السور اشد قتال ، وردوهم عن السور والخندق ، واسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الالف وادخلوا رؤوسهم الى المدينة ، ولما اعياى تيمور امرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور الطقزات اي التسعة الاصناف من الماء كحل والمشروب والمبلوس وغيره وهذه كانت عادته في كل بلد يفتحه صلحاً . فأجابه الدمشقيون الى ما طلب باقتناع ابن مفلح لهم ونقرر ان يجيى تيمور من دمشق الف الف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة اموالهم ، فلم يرض تيمور وقال : ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب . قال ابن حجر : واستقر الصلح على الف الف دينار فتوزعت على اهل البلد ثم روجع تيمور لملك فتنسخطها وقال : انه انما طلب الف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، ولما اخذه ابن مفلح

وحمله الى تيمور قال هذا لابن مفلح واصحابه : هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار وظهر لي انكم عجزتم ، ثم سلمت اموال المصريين وكراعهم وسلاحهم واموال الذين فروا من دمشق ، ولما كمل ذلك الزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها فأخرجوه كله ، فلما فرغ من ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته والزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بماليتهم وحواشيتهم ونزل كل امير في قسمة وظلب من فيه وطالبهم بالاموال فحينئذ حلّ باهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وجرى عليهم من انواع العذاب وهتك الاعراض شيئا نقشع منه الجلود ، واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم ، ثم امر امراءه فدخلوا دمشق ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها وسبوا نساء دمشق باجمعين ، وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعمت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت ابوابه ونفطر رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها الا اطفال . قال ابن تغري بردي : ولقد ترك المصريون دمشق اكلة تيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا واعمرها .

قال بهاء الدين البهائي يرثي دمشق المظلومة ويصف ما حل بها من النار في سنة ثلاث وثمانمائة ويذكر حلب وحماة :

لهني على تلك البروج وحسنا	حفت بهن طوارق الحدثان
لهني على وادي دمشق ولطفه	وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت	نور المنازل ابدلت بدخان

جنتها في الماء منها اضمرت
كانت معاصم نهرها فضية
ما ذاك الا تركهم ولجت بها
كرهت جدا ولها حوافر خيلهم
فنجبت للجنات في النيران
والآن صرن كذائب العقيان
فتخضبت منها باحمر قات
فتسابت هرباً كحيل رهات
فتلثمت بعوارض الريحان

* * *

لوعايت عينك جامع نكز
وتعطش المرجين من اورادها
لا ت جفونك بالدموع ملونا
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي
ابني امية اين يمن وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم
قصوا جناح النسر بعد نهوضه
الواحه اجرت دموعي اسطراً
ان انكروا يوم الحساب فعالمهم
لهفي على كتب العلوم ودرسها
اعرو سنا لك أسوة بجاننا
غابت بدور الحسن عن هالاتها
ناحت نواعير الرياض لفقدهم
حزني على الشهباء قبل حماننا
لاتدعي الاحزان يا شقراءنا
رتعت كلاب المغل في غزلانها
لهفي عليك منازلًا ومنازها

والبركتين بحسبها الفتان
وتهدم المحراب والايوان
دمعاً حكي اللولو على المرجان
فكأنهن قلائد العقيان
والمغل تفنل في ذرى الاركان
القوا عرا بدم على النسوان
في النتك صخر لا ابو سفيان
ياليتهم لو فاز بالطيران
كتبت على اللوحين من اجفاني
فشهيدنا عثمان ذو القران
صارت معانيها بغير بيان
في ذا المصاب فانما اختان
فاستبدلت من عزها بهوان
فكأنها الافلاك في الدوران
هو اول وهي المحل الثاني
السبق للشهباء في الاحزان
وتحكمت في الحور والولدان
ومقام فردوس وباب جنان

ثم رجع ورثي دمشق فقال :

لم ادر من ابكي واندب حسرة للقصر للشرفين للميدات
للجبهة الغراء ام خلخالها للزفة الفيحا ام اللوات

* * *

الحراب الاعظم واخلاق } وعلى ما منيت به دمشق من قتل سكانها وسي
تيمور ونجاة فلسطين منه } نساؤها واولادها ، واحراق مصانعها وبوتها ،
واستخراج اموالها وطرائفها ، اصابها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك في ارجاعها
القهرى واضعاف مادياتها اضعافاً لا يجبر كسره في قرون واليك ما قاله ابن عريشاه
في تفصيل هذا الهول العظيم : وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو
يتطلب الافاضل واصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضائل واستمر نهب عسكر
تيمور لدمشق ثلاثة ايام ، وارتحل وجماعته وقد أخذ من تناسل الاموال فوق طاقتهم ،
وتحمّلوا من ذلك ما عجزت عنه قوى استطاعتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب
والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً في اوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ،
وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الامتعة والاقمشة كأنها سوق
الدهشة ، وكان الارض فتحّت خزائنها ، وأظيرت من المعادن والنزات كامنها ،
وأخذ تيمور من دمشق ارباب الفضل وأهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون
بارع من النساجين والخباطين والحجارين والتجارين والاقباعية والبياطرة والخيمية
والنقاشين والقواسين والبازدارية وبالجملة اهل اي فن كان ، وأخذ جملة من العلماء
وربما أخذ أناساً من الاعيان والسادة النبلاء ، وكذلك كل امير من امرائه وزعيم
من زعمائه ، اخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والنضلاء واهل الحرف والصناعات
والعبيد والنساء والصبيان والبنات ما لا يسعه الضبط .

ونقل في الضوء اللامع ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يجب
المزاح ويجب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة ، وزاد فيها جملاً وبغلاً ، وجعل
رقعته عشرة في احد عشر بحيث لم يكن بلاعبه فيه الا افراد قال : وكان ذا رأي
صائب ، ومكائد في الحروب عجيبة ، وفراسة قل ان تخطي ، عارفاً بالتواريق لادمائه

على سماعها ، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سرفاً وحضراً ، مغرىً بمن له معرفة بصناعة ما اذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة ، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة ، ويعتمد قواعد جنكيزخان ويجعلها اصلاً ، ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع ان شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة .

ولما رحل تيمورلنك عن دمشق ، وقد أصبحت اطلاقاً لا مال ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان ، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس في وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجز عليهم من عسكر تيمورلنك ، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة ، فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثم بلغه ان تيمورلنك رحل عن دمشق وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمورلنك الى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قرابه الذي كان أمر في أيام الملك الظاهر برفوق وانه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الاسرى فأطلقه وكساه السلطان وأحسن اليه ، فلما وصلوا الى تيمورلنك اكرمهم وقبل مراسيم السلطان ونفارش وبكى واعتذر مما وقع منه وقال هذا كان مقدرأ . رحل تيمورلنك عن دمشق ولم يتعداها الى فلسطين وكان علماء القدس انذبوا الشيخ محمد فولاد بن عبد الله وجهازوه بمفاتيح الصخرة الى تيمور ولما بلغهم اخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع .

وكانت اكثر المدن الصغرى في أواسط الشام قد خضعت وصافت بحكم الطبيعة ومنها طرابلس أحضر له منها مال وقد اجتاح بعلبك ونهبها ، ولما وصل الجبول في عودته لم يدخلها وامر بتخربها واحراقها ، وحرقت حلب مرة ثانية وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل وأسر كل من وجد في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الانصارى والكمال عمر بن العديم وجماعة معها واخذ بقيتهم الى بلاده فمنهم من هرب من الطريق ومنهم من وصل الى بلاده . فقل تيمور راجعاً بعد ان أذاق الشام كأس

الذيل والحمام ، وربما اذا جمعت جملة تخر بياته لا يتأني وقوع مثلها في مئات من الاعوام ، عملها يجيشه الجرار في عشرات من الايام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدرًا فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين ، بيد انه كان مغرًا بغزو المسلمين والتغلي عن غيرهم صنع ذلك في بلاد الروم وبلاد الهند وغيرها ، ولكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من نفاني في الوصول الى غرض ، ويستحيل بعد ان فتحت عليه الاقاليم وفتح ثلاث آسيا تقربًا بالقهر والسيف وجعل جيشه مؤلفًا كالجيش العثماني من جميع العناصر التي كانت تحت حكمه ان لا يكون على شيء من العلم وبعد النظر . وكان يصحب معه في رحلاته زمرة من العلماء المحققين . ومن جملة ما قرأته في هذا الباب وهو مما ينم عن عقله وانه كان يرمي الى ان يفتح افريقية كما فتح آسيا قوله لما اجتمع بابن خلدون في هذه المدينة على ما نقل ذلك عنه تلميذه ابن الزمكاني : اين بلدك فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب فقلت : هو في عرف خطاهم معناه الداخلي اي الابدع . لان المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه فالاقرب الى هنا برقة وافر يقية ، والمغرب الاوسط تلسان وبلاد زناته ، والاقصى فاس ومُرَّاكُش . وهو معنى الجواني فقال لي : واين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته لان هناك نحو العشرين ميلاً فقال : وسجلاسة فقلت في الحد ما بين الارياف والرمال من جهة الجنوب فقال : لا يقنعني هذا وأحب ان تكتب لي بلاد المغرب كلها اقصاها وادانيها وجبالها وانهارها وقرانها وأمصارها فقلت له : يحصل ذلك بسعادتك قال ابن خلدون : وكتب له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في ثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع الى ان قال : وأقمت في كسر البيت واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ، فكاتبته في ايام قليلة ودفعته اليه فأخذه من يدي ، وامر موقعه بترجمته الى اللسان المغربي . ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجيًا بنفسه من تيمورلنك مخافة ان يسقط في يده أسيراً ويحمله الى بلاده ، وكان قدم له هدية

يوم اجتماعه الاول به منها علب حلوى مصرية ففتحها تيمور وأطعم منها رجاله ولم يذقها ،
وأهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه ، وأهداه مصحفاً شريفاً فقبله ووضعها الى
جانبه . وكان تيمور يتظاهر بالتدين والتصوف ويصدر عن رأي المتصوفة لانهم
اعانوه بنفوذهم في العامة على تدوين الاقطار وعقد القلوب على محبته .

ولو قدر للبلاد ان يكون فيها سلطان يحسن الانفعال بالقوة ، ويحالف ابن عثمان
صاحب الروم وغيره من امراء الشرق الذين فاضوا ملك مصر والشام في امر
تيمورلنك قبل انهبالك جمهرة جيوشه على بلادهم ، ونظموا قواهم وهم في أرضهم
وديارهم ، واستعملوا اللين تارة والشدّة أخرى ، ولم يفتحوا للفتح العظيم باباً من
أبواب الحجب التي يحجبهم بها في عرف السياسة والفتح ، لكانت البلاد أمنت عادية
تيمورلنك او لكان اكتفي بمعاهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل عن البلاد بسلام ،
لان تيمورلنك يعرف بان بلاده ومملكته أوسع مجالاً يتيسر بقاؤها لآله لقرهبا من
مهد عصبيته ودار ملكه .

بدا انه لم يكن في مصر ولا الشام على ذلك العهد رجل سياسي بعيد النظر
والغور في السياسة كالظاهر برفوق والظاهر بپرس مثلاً فكان ما كان لان البلاد
أصبحت بلا راعٍ يرعاها ، وأصبح الحكم لمالك الطبقة الثانية من عماله ، ولمن
يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون بلادهم بجهلهم الى الخراب . والغالب ان السبب في
مغادرة تيمور البلاد انتشار الجراد فيها حتى اكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر
عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم وبهذا الرأي قال ابن حجر فذكر ان رحيل
تيمورلنك انما كان لضيق العيش على من معه فخشي ان يهلكوا جوعاً .

وقيل ان تيمورلنك أراد ان يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له
الطرق ، فلما عادوا قصوا عليه مارأوه وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم :
ان مصر لا تنتج من البر بل تحتاج الى اسطول للفتح من البحر وبذلك صرف النظر
عن فتحها ، وهكذا نجت مدن الجنوب في الشام من تحربه وكذلك مصر وما اليها من
بلاد افر بقية فنجت الدولة الشركسية من عادية جيوشه .

عهد المماليك الاخير

٨٠٣ الى ٩٢٢

البلاد بعد الفتننة التيمورية . خرجت حلب وحماة ودمشق خصوصاً من بين مدن ومخامرة العمال في الشام بعد فتننة تيمور كالميكل العظمي لالخم ولا دم وأصبحت بتقص في الانفس وخراب في العمران ، بسببها لما كل من عرف ما كانت عليه قبل تلك الحقبة المشؤومة من العمران وكثرة السكان ، ولم يقيض للبلاد سلطان عاقل قوي يداوي جراحاتها فبقيت نائرة نغارة . ولما رحل تيمورلنك عن دمشق نصب صاحب مصر المقر السهني تغري بردي في نيابة دمشق ورسم له ان يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما افسده تيمورلنك من عاصمة البلاد ، ونصب نواباً آخرين على نيابات الشام ممن كانوا في أسر تيمورلنك فاطلقهم ، مثل نائب الكرك ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب بعلبك ونائب صفد وغيرهم ، وامرهم ان يعمروا البلاد المخربة وهيئات ان يعمر في قرب ما خربه تيمورلنك في ثلاثة اشهر . بيد ان الضعف المتأصل في جسم المملكة ابقى تلك الاوامر اللطيفة حبراً على ورق وطمع النواب في البلاد .

رجم اهل دمشق (٨٠٤) نائب الشام تغري بردي وارانوا قتله فهرب الى نائب حلب فلما بلغ سلطان مصر ذلك ارسل تقليداً الى المقر السهني اقبغا الجمالي بان يستقر نائب الشام . وخامر امير غزة وخرج عن الطاعة واسمه الامير صرقي الظاهري فواقع الامير جرم وعربان نابلس مع صرقي ، فانكسر صرقي ، وقبئل

في المعركة ، وخرج ايضاً عن الطاعة نائب طرابلس شيخ المحمودي وامسك حاجب طرابلس جماعة من امرائها سجنهم بسجن المرقب واستخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير وعمل له برك عظيم . وخرج دمرداش نائب حلب الى الامير ديمق المحمدي الذي خلفه في نيابتها ووقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش ونهب بركة وهرب الى ملطية . وفي سنة ٨٠٦ نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة ايام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض اليهم مسرعاً فانهزموا فأوقع بهم وكان ذلك مبدأ سعاده . ثم توجه الفرنج الى بيروت وكانوا في نحو من اربعين مركباً فواقعتهم دمرداش ومن معه من الجند والمطوعة وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير ، وكان نائب الشام بعلبك نجاه الخبر فتوجه من وقته وارسل الى العسكر يستجد به ومضى على طريق صعبة الى ان وصل الى طرابلس ثم توجه من فوره الى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها وأحرقوها وكان أهلها قد هربوا الى الجبال الا المقاتلة منهم ، فوقع بين الفريقين مقللة عظيمة فأمر النائب باحراق قنلى الفرنج ثم توجه الى صيدا ومعه العساكر فوصل اليها وقد أخذ الفرنج من البهار الذي للكتيلان شيئاً كثيراً فوصل النائب بالعسكر فوجدهم في القتال مع أهل صيدا ولم يتقدمه احد بل كان معه عشرة انفس فحمل على الفرنج فكسرهم وفروا في مراكبهم راجعين الى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض اصحاب النائب فغلبوه على الماء واخذوا حاجتهم وتوجهوا الى جبهة طرابلس — نقلته من ابن حجر .

ودامت الفوضى في البلاد حتى خامر النواب الا قليلاً في الشام (٨٠٦) واصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه الى ان خلع سنة ٨٠٨ وفي سنة ٨٠٦ اوقع نائب الشام بعرب آل فضل وكان كبيرهم علي بن فضل قد قسم بلاد الشام سنة ثلاث وثمان مائة فطمع ان يفعل ذلك هذه السنة فبلغ هذا النائب فقبض عليه ونهب بهوته وفيها وقع بين نعيم امير عرب آل فضل وبين حجا بن سالم الدوكاري التركماني واقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم وانكسر عسكره وغلب نعيم وارسل برأس ابن سالم الى القاهرة . وكان عسكر حجا طاف في اعمال حلب وافسد فيها الفساد الفاحش وذلك في بلد عنزاز وغيرها وكان وقع بينه وبين نعيم قتال بين جعفر

وابلستين واستمر اياماً الى ان قتل حجا . وفي هذه السنة وقع بين دمرداش والتركان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برقوق نصب الامير نوروز الحافظي على دمشق والامير جكم العوضي نائباً على حلب فلما توجهها الى عملها اظهر كل منها العصيان والمخامرة على السلطان فتسلطن جكم العوضي بحلب وتبل الامراء الارض بين يديه وتلقب بالملك العادل ووضع يده على البلاد الحلبية وكتب الى نواب الشامات فأطاعوه الا القليل منهم واخرج اوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام الى الفرات فاتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة .

وفارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من امرائها ورفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع اليهم العسكر وتحالفوا على طاعة السلطان وقام بتدبير امور حلب الامير يونس الحافظي وامتدت أيدي عرب ابن نعير والتركان الى معاملة حلب فقسموها ولم يدعوا لاحد من الامراء والاجناد شيئاً . ومدح المؤرخون جكم بانه كان يتجرى العدل ويجب الانصاف ولا يتمكن احد معه من الفساد .

وفي سنة ٨٠٧ حاصر دمرداش نائب حلب انطاكية وبها فارس بن صاحب الباز التركاني فأقام مدة ولم يظفر بها بطائل وكان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده الى طرابلس فغلب عليها وطرد عنها وهو شيخ السلياني ثم توجه الى حلب فنازلها وبها دمرداش فالتقيا وجرى بينهما قتال كثير فانكسر دمرداش وخرج من حلب فركب البحر الى القاهرة وملكها جكم ثانية ثم خرج الى جهة البيرة وغزا التركان وأسّر منهم جمعاً كبيراً .

والنف الامير نوروز الحافظي على الامير شيخ الحمودي نائب طرابلس واظهرها العصيان والنف عليها جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات وليس بيد الملك الناصر سوى مصر وأعمالها . وخربت صفد واعمالها خراباً شديداً وذلك لان شيخ الحمودي ومن معه من النواب والتركان حاصروها مدة لان واليها بكثرت جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر .

وخرج نعير بن مهنا الحيارى البدوي (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا

العساكر وتوافقوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانهمزمت عساكر الشام
وامراء غرب بيروت واستوات العرب على دمشق وزادوا سيف الجور والضرب .
واستولى التركان على كثير من البلاد الشمالية وكان رأسهم اياس ووصلوا الى حماة
فغلبوا عليها ثم ردوا عنها .

* * *

وقائع التركان مع
الناشزين على
السلطان

وفي سنة ٨٠٨ كانت الواقعة العظمى بين جكم نائب
حلب والتركان ورئيسهم فارس ويدعى اياس بن
صاحب الباز صاحب انطاكية وغيرها وكان قد غلب
على اكثر البلاد الشمالية ودخل حماة وملكها وكان عسكره يزيد على ثلاثة آلاف
فارس غير الرجال فواقعه جكم بن معه فكسره كسرة فاحشة وعظم قدر جكم بذلك
وطار صيته ووقع رعبه في قلوب التركان وغيرهم ، ثم انه واقع نعيم ومن معه من العرب
فكسره ، ثم توجه جكم الى انطاكية وأوقع بالتركان فسألوه الامان وان يمكنهم من
الخروج الى الجبال والى مواطنهم القديمة ويسلموا اليه جميع القلاع التي بأيديهم
فقرر الحال على ذلك وأرسل الى كل قلعة واحداً من جهته ودخل الى حلب مؤيداً
منصوراً ، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازي بن اوزر التركي وكان بينها عداوة
فقتله وقتل ولده وجملته من جماعته وكان اميراً كبيراً شجاعاً بطلاً استنجد بانطاكية
مدرسة بجوار تربة حبيب النجار . وكان قد استولى على معظم معامل حلب ومعاملة
طرابلس فصار في حكمه انطاكية والقصير والشغر وبغراس وحارم وصهيون واللاذقية
وجبله وغير ذلك ، فلما أحيط به تسلم جكم البلاد ورجعت معاملته كل بلد اليها على
ما كانت اولاً .

وبرز جكم الى دمشق فالنقي مع ابن صاحب الباز وجمعهم من التركان فكسروهم
كسرة ثانية وضرب أعناق كثير منهم صبراً وقتل نعيماً وأرسل برأسه الى القاهرة
واستعد نائب الشام لقتاله ووصل توقيع دمرداش بنيابة حلب عوضاً عن جكم من
القاهرة فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل اليهم المعجل بن نعيم طالباً ثار ابيه وكذلك
ابن صاحب الباز طالباً ثار ابيه وأخيه ، وكان معهم من العرب والتركاب خلق كثير ،

ووصل توقيع المعجل بن نعيم بأمره ابه ووصل نائب الشام ومن معه الى حمص وتكاتبوا مع جكم في الصلح ووقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر اهل دمشق ، ووصل شيخ ودمرداش الى دمشق منهزمين ، وكانت الواقعة في الرستن ثم رحل نائب دمشق الى مصر ، ودخل جكم الى دمشق وبالغ في الزجر عن الظلم وعاقب على شرب الخمر فأخش حتى لم يتظاهر بها احد وكانت قد فشت بين الناس .

ذكر هذا ابن حجر وقال في وفيات سنة ٨٠٨ ان فارس صاحب الباز التركاني كان ابوه من امراء التركمان فلما وقعت الفتنه اللنيكية جمع ولده هذا فاستولى على انطاكية ثم قوي امره فاستولى على القصير ثم وقع بينه وبين دمرداش في سنة ست وثمان مائة فانكسر دمرداش ثم جمع دمرداش لعياله بانطاكية فحاصره وكان جكم مع فارس ثم رجع عنه بغير طائل فاستولى فارس على البلاد الغربية كلها وعظم شأنه فبنى في انطاكية مدرسة حسنة واستولى على صهيون وغيرها من عمل طرابلس وصارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على اعمالهم ، فلما ولي جكم نيابة حلب تجرد له وواقعه فيزومه ونهب ما معه واستمر جكم وراءه الى ان حاصره بانطاكية سنة ثمان وثمان مائة ولم تزل الحروب بينهما الى ان طلب فارس الامان فأمنه ونزل اليه وسلمه لغازي بن اورت وكان عدوه فقتله وقتل معه ابنه وجماعة منهم في شوال واستنقذ جكم البلاد كلها من ايدي ابن صاحب الباز وهي انطاكية والقصير والشعر وحارم وغير ذلك وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان .

وفي سنة ٨٠٩ بعث شيخ الى نابلس جيشاً قبضوا على عبد الرحمن بن المهتار وأحضره له الى صفد فقتل بمحضرتة وكان المذكور قد عصى بأخرة على الناصر وانفق شيخ ونوروز فأرسله الى نابلس فصادر أهلها وبالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته . ووقعت وقعة بين شيخ والحزاي عند حلبين فقتل في المعركة أناس من الامراء وقبض على الحزاي . واستولى ترمبغا المشطوب على حلب وذلك انه لما هرب من الوقعة التي كانت بين جكم وبين قرابلك جاء مع طائفة من المغل الى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان وحاصرها فأوقع بهم وكسرهم ودخل البلد وعصت عليه

القلعة ولما بلغهم قتل جكم سلوها له فاستولى على ما بها من الحواصل وعلى ما يجاب ابيض
من الخيول والماليك الخلفة عن جكم .

ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق وبنى
ما كان هدم وامر الناس بالرجوع . وفي سنة ٨٠٩ نارت طائفة من الماليك ومعهم
عامه حلب على شركس المصارع . وهكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الاول من
القرن التاسع وكما قوي امير قتل رجال الامير الذي كان قبله ، وشأن الظلم في
الرعيا عجيب والمصادرات قائمة على ساق وقدم ، وبالجملة فقد كانت الدولة التي تولت
امر مصر والشام على حالة سيئة وكثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشهر معدودة ،
وناهيك بهذا التبديل قال ابن تغري بردي : وكثرت المصادرات بدمشق وغيرها في
ايام هذه الفتن (٨١٠) وأخرجت الاوقاف عن اربابها وخربت بلاد كثيرة بمصر
والشام لكثرة التجاريد وسرعة انتمال الامراء من اقطاع الى اقطاع .

قال ابن حجر : وفيها كملت عمارة قلعة دمشق وكان ابتداءها في العام
الماضي وصرف على عمارتها مال كثير جداً وظلم بسببه اكثر الخلق من الشاميين
وغيرهم . وبسط نورهز يده في المصادرات بدمشق فبالغ في ذلك حتى ان بعض
التجار كانوا يترحمون على تيمورلوك وفرض على جميع الجهات مثلها وتناول حتى
الخانات والحمامات وارباب المعاش حتى الذين يبيعون الخبز تحت القلعة
حتى باعة الشراطين حتى الباعة في الطبالي حتى انقطعت الاسباب وتعطلت المعاش .

ونازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها علي بك بن خليل بن قراجا بن دلغادر ومعهم
عدة من امراء التركمان وعدة من امراء العرب ونازلوا حلب اياماً وقاتلهم العوام
ومن بها ، وكان بها يومئذ قربغا المشطوب فدخلوا ولم يظفروا بطائل ، وكان لعلي بك
ولد محبوس بقلعة حلب فصانع اهل حلب اياه بارساله مكرماً فما افاد ذلك وجد في
الحصار ونازل المعجل بن نعيم حماة وحاصرها ، ونهب علي بك ومن معه القرى التي
حول حلب وجدوا في الحصار وبالغ اهل حلب بالذبح عن انفسهم واشتدوا للقتال
وهان عليهم الامر خشية على اموالهم وحرمتهم بحيث انهم كانوا كل يوم لا يرجعون

الا وقد انكروا في التركان نكاية كبيرة ، وواقع نوروز بالمعجل ومن معه من العرب على حماة وكسرهم فرحلوا .

وجرت في هذه السنة وقعة في وادي عقبة من كروم بعلبك بين انصار السلطان وبعض امراء المماليك الفارين من القاهرة فكأثرهم نوروز ومن معه ثلاثة وقتل منهم وحملت رؤوسهم الى مصر . وتصافى شيخ ونوروز بعد الخلاف وتوجها بعسكرهما الى بلاد ابن بشاره فواسعوها نهياً وهرب ابن بشاره . وقصد تمر بغا المشطوب نائب حلب النزول على التركان فبيتوه وكسروه ورجع منهزماً ، ونهب نوروز للعرب ابلاً كثيرة فكبسوا عليها واستنقذوها وحاصر شاهين دو يدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق .

وقال ابن اياس : ومن الوقائع الغريبة . جاءت الاخبار (٨١١) بان جاليش (اعلام) الامير شيخ المحمودي والامير نوروز قد جاء من غزوة وهم في عساكر لا تحصى فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والامراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينها واقعة عظيمة فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة فقوي حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرها كسرة قوية فرجعا الى الشام مهزومين وانصر عليها الملك الناصر ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الامراء والمماليك . وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم نفي نوروز عن نيابة الشام وأرسل السلطان تقليداً الى شيخ بنيابة الشام ونقله الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطالاً ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وهذا من العجائب ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان فجرد اليه ورجع عن غير طائل اه .

وذكر ابن حجر ان نوروز برز الى صفد ثم انثني الى سعسع ثم انثني الى بكتمر جلق ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشاره فاقتتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام بالرملة ، ثم قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ الى دمشق وكان قد جمع من التركان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع

نوروز فسبقه الى دمشق ، فتراسل شيخ ونوروز في الكف عن القتال ولم ينظم لها أمر وصم شيخ على اخذ دمشق وباتا على ان يباكرا القتال فأمر شيخ بوقيد النيران في معسكره واستكثر من ذلك ، ورحل جريدة الى سمسع فنزلها ، وأصبح نوروز فعرف برحيله وسار نوروز الى سمسع فلقى بها شيخ وهو في نفر قليل نحو الالف فالنقيا فانكسر نوروز ، ويقال انه كان معه اربعة آلاف نفس ولم يكن مع شيخ سوى ثلاثمائة نفس ، وركب شيخ أقيمتهم فدخل نوروز دمشق ورحل نوروز الى ملطية وأرسل شيخ عسكرياً الى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكري شيخ بالتركان بانطاكية وأوقعوا بهم واستنقذوها منهم . وفيها أئتم النائب اهل دمشق بعمارة مساكنهم والاقواف التي داخل البلد وضرب فلوساً جديداً ثم نودي عليها كل مائة واربعين بدرهم . وكتب الناصر الى الشام باسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان وتسعين الى سنة ثنتي عشرة وفي السنة التالية أئتم الناس في دمشق بعمارة ما خرب من المدارس . وفيها توجه الدويدار الى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام فوصلت كشافة برديك الى عقبة سخورا ثم نزل هو شحجبت فتأهب من بالقلعة بدمشق وخرج العسكر مع سودون بقمحه وحمل هو على عسكر برديك فكسروهم ثم انهم برديك على خان ذي النون فرجع الى صفد ونهب من كان معه . واشتد الحصار على نوروز ودمرداش بحماة فقتل بينهما اكثر من كان معها من التركان وانضم اكثر التركان الى شيخ ووصل اليه المعجل بن نعيم نجدة له بمن معه من العرب فحجم بظاهر حماة فوقع القتال بين الطائفتين واشتد الخطب على النوروزية فمالوا الى الخداع والحيلة ولم يكن لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشيعية مطمئنين اذ النوروزية قد هجموا عليهم وقت صلاة الجمعة فاقتنلوا الى قبيل العصر فكانت الكسرة على النوروزية ونفرق اكثر العساكر عن نوروز ولحق كثير منهم بشيخ وكتب الى دمشق فدقت بشارته وزينوا البلد وكبس اصحاب نوروز المعجل بن نعيم ليلاً فأنجده شيخ وكتب دمرداش الى الناصر يستنجده ويحثه على المجيء الى الشام والا خرجت عنه كلها فانه لم يبق بيده منها الا غزوة وصفد وحماة وكل من بها من جهته في اسوأ حال .

قال ابن حجر في حوادث سنة ٨١٣ : انه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر

في العام الماضي لما دخل القدس ان يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا في هذا العام الى يافا ومعهم عجل وصناع واخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالاجرة فأتاهم عدة وشرعوا في ازالة ما بطرقهم من الادغال ووسعوا الطريق بحيث تسع عشرة افراس ولم تكن تسع غير فارس واحضروا معهم دهنًا اذا وضعوه على الصخر سهل قطعها فلما رجع الناصر الى دمشق عرفه نصحائه بسوء القالة في ذلك فكتب الى ارغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والجمال والذهن فحتم على مخازنهم وحملهم ومعهم ما رسم به الناصر اه .

وفي سنة ٨١٤ ارنزع الطاعون عن دمشق وما حولها واحصي من مات من اهل دمشق خاصة فكانوا نحوًا من خمسين الفًا وخلت عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها .

* * *

المملك الكبير } وبقي الامر على ذلك في الشام منقلقلًا لان ملك مصر على
وقنله } هذه الصورة من السخافة والضعف وهو شارب الليل والنهار
تصدر الاعمال عنه مخنلة كلها ، ويتسلى في خلواته بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء
الفي مملوك للتسلية والتخلية ، ولما كانت سنة ٨١٣ قطع شيخ المحمودي ونوروز
الحافظي اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق واعمالها ، ونفرت قلوب المماليك من
الملك الناصر وصار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز
الحافظي وشيخ المحمودي ، يأتون الشام من العقبة الى غزة فتسحب من العسكر نحو
الثلث ، فقويت شوكة الحافظي والمحمودي والتف عليهما سائر النواب في الشام وغالب
عسكر مصر وكثير من العشير وعربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الامراء
ما يزيد على اربعة وعشرين اميرًا من مصر والشام . ولما تحقق الملك الناصر ذلك
جرد عليهم جيشًا فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد الى بلد والمملك الناصر خلفهم
ليلاً ونهاراً فاتعب العسكر وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب . ووصل
الملك الناصر الى اللجون (٨١٥) فتلاقى والنواب بعد العصر وكان الملك الناصر قد
اصطحب وهو لا يعي من شدة السكر ، فاراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمنعه

الامراء ذلك فابى ، فلما رأوا ذلك تسحبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه الا القليل من العسكر ، فكبس على النواب فانكسر الملك الناصر وهرب بن بقي معه من العسكر الى نحو دمشق ، واستولى شيخ ونوروز على اثقاله وخزائن المال وانصرا عليه . فلما دخل شيخ ونوروز الى دمشق طلعا الى دار السعادة واجتمع هناك الامراء واحضروا القضاة الاربعة ورسموا بان يكتبوا محضراً بافعال الملك الناصر بانه سفاك للدماء مدمن للخمر فكاتبوا محضراً بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من اعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ : لا انا ولا انت تسلمن . ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون الامير شيخ اتابك العساكر ومدير المملكة في مصر ، ويكون الامير نوروز نائب الشام ويحكم في البلاد الشامية من غزة الى الفرات ، يولي من يختار ويعزل من يختار ، فتراضوا على هذا وحلف جميع الامراء على ذلك وتعاهد الامير شيخ والامير نوروز ثم سلطنوا الخليفة واستمر الامير نوروز الحافظي نائب الشام .

واما ما كان من امر الملك الناصر فرج بعد انكسرة التي وقعت له على اللجون فانه ولي منهزماً الى نحو دمشق واقام في تربة نيم ، وارسل الى الامير شيخ يطلب منه الامان ، وكان الامير نوروز صهر الملك الناصر زوج اخته ، فلو طلب منه الامان اولاً لما اصابه شيء ولكن قصد الامير شيخ فارس الى من قيده واحضره الى السجن بقلعة دمشق ، ثم انهم اثبتوا عليه الكفر كما قيل ودخل عليه بعد ايام جماعة من الندوية وقتلوه بالخناجر وهو بالبرج بقلعة دمشق والقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس في وسطه وصار الناس يأتون اليه افواجا ينظرون اليه ، ولو امكن ممالك ابيه ان يجر قوه لفعلوا به ذلك مما ناسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة ايام ثم دفنوه « وكانت الدنيا على ايامه حائلة وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية في ايامه من تيمورلنك ومن عصيان النواب وخربت اوقاف الناس في الشام ، وكم قتل من ابطال و يتم من اطفال ، و جرت في ايامه امور شتى يطول شرحها » . قال المقر يزي : لم تزل ايام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . طرق بلاد الشام الامير تيمورلنك فخر بها كلها وحرقها وعمها بالقتل

والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتمزق اهلها في جميع اقطار الارض
ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع
اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن .

الخليفة السلطان } عهد الامراء الذين قضوا على سلطان الملك الناصر بالسلطنة
وسلطنة شيخ } الى الخليفة العباسي وكان المسكين اشبه بعامل محترم من
عمال الشراكية لاعصبية له ولا جيش ، الا ما كان له في نفوس الرعية من حرمة
بني العباس ، والغالب ان ذلك العهد بالسلطنة اليه كان دسيسة سياسية من الاميرين
نوروز وشيخ يوم قال الاول للثاني وهما يتفان فيمن يوسدان اليه السلطنة « لانا
ولا انت نتسلطن » فاستولى الامير شيخ على ملك مصر بالنعول واليه قيادة الجند
واستولى الامير نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك وبقي الامر على ذلك الى سنة
٨١٦ وقد بلغ نوروز الحافظي امير الشام ان المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر
وتسلطن عوضه فعز عليه ذلك ولم يقبل الارض للملك المؤيد شيخ واطهر العصيان
واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واعمالها ولم يخطب باسم
الملك المؤيد شيخ ولا ضرب باسمه سكة واستمر مستأثراً بملك الشام من غزوة
الى الفرات .

وفي سنة ٨١٧ خرج الملك المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصداً الى دمشق
للقضاء على سلطة نوروز الحافظي ، وكان نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها
المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ حصاراً شديداً طويلاً ونصب حول
مدينة دمشق عدة مناجيق حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ فقطع رأس نوروز
في قلعة دمشق ، وكان نوروز مهاباً شديداً البأس سفاكاً للدماء ما كان في عسكر
الا انهزم ولا ضبط انه ظفر في وقعة قط وهو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمورلنك .
ومهد الملك المؤيد شيخ البلاد الشامية وعزل من عزل وولى من ولى وخلع على
قازباي المحمدي واستقر به نائب الشام وخلع على الامير ايتال الصلافي واستقر به نائب
حلب ، وخلع على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على

الامير جاني بك الجياسي واستقر به نائب حماة ، ولم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) ان خاضوا على الملك المؤيد شيخ وخرجوا عن الطاعة فجرد اليهم الملك المؤيد ثانياً وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فاننصر عليهم ، وقبض على قانساي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على اينال الصصلافي وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب بعد ذلك ثم ولي جماعة من الامراء نواباً غير هؤلاء ، ورجع الى الديار المصرية فلم يبق سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب ايضاً فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف امير التركان فنصب الملك المؤيد نواباً غيرهم ممن يثق بهم ومهد البلاد الدمشقية والحلبية وقطع شأفة النواب الذين عصوا سلطانه . ومن الاحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق الى حلب (٨٢١) في نحو الف فارس فخنل من كان خارج مدينة حلب باجمعهم ، واضطرب من بداخل سور حلب وألقوا بانفسهم من السور ولم تسكن الحالة الا بعد رحيله .

* * *

هلك الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ وكان ملكاً جليلاً	} هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القطاط
كفوواً للسلطنة وافر العقل مقداماً في الحرب عارفاً بمكايدها وحيلها وقت الثقاء الجيوش حتى ضرب به المثل	

فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ومن حظمة نوروز الحافظي . هذه رواية ابن اياس بيد ان المقرئ يقول : انه حدث في ايام هذا الملك اكبر خراب مصر والشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن ايام نيابته بطرابلس ودمشق ، ثم ما افسده في ايام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط اتباعه على الناس ، يسومونهم الذلة ويأخذون ما قدروا عليه من غير وازع ولا عقل ولا ناهٍ من دين . وتولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه الملك المظفر ابو السعادات احمد وهو في القطاط فخامر نائب دمشق جتقمق الارغوني ونائب حلب يشبك المؤيدي وكذلك بقية النواب في الشام ، وكان الاتابكي الطنبغا القرشي لما توجه في العسكر المصري أوقع معهم بن معه من الامراء فهربوا الي نحو صرخد ثم ان الاتابكي الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربات

والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق وهرب منه الى نحو حلب ، فملك الاتابكي الطنبغا دمشق وقلعتها ، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظير العصيان وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والنف عليه العربان والعشير ، فلما بلغ الامراء بمصر ذلك خلعوا على ططر واستقروا به اتابك العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي . ثم انفق الحال على ان الاتابكي ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشي والنواب فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمد في محفة والمرضة معه وكانت امه خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام لتأمن عليه من القتل فدخل الملك المظفر الى دمشق وألقى الرعب في قلب الطنبغا وجقمق فحضر الطنبغا وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك المظفر وهو في المحفة فلما وقعت عليه عين الاتابكي ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق وامر بجنق جقمق والطنبغا ثم قبض على جماعة من النواب وقتل منهم الجياسي نائب دمشق وقبض على اربعين اميراً من الامراء المؤيديه وسجنهم بقلعة دمشق وقبض على جماعة من المماليك المؤيديه نحو ثلاثمائة مملوك وجبسهم . ثم خلع الملك المظفر احمد من السلطنة وتسلمن عوضه بدمشق وخطب باسمه على المنابر وكان معه الخليفة المعتضد بالله داود ، فكان مثل ططر في هذه الخيلة مثل اكثر عمال هذه السلطنة الشركسية مني اشتد ساعدهم استأثروا بالملك والسلطان .

* * *

وفاة ططر وسلطنة ابنه) هلك ططر بعد ان ملك ثلاثة اشهر واياماً وخلفه
 ثم تولى الاشرف برسبائي) في السلطنة ابنه الملك الصالح محمد وله من العمر نحو
 من احدى عشرة سنة وجعل جاني بك الصوفي اتابكاً ومدبر مملكته ، فعز ذلك على
 بقية الامراء فوثب الامير برسبائي الدقماقي امير دوا دار كبير على جاني بك وقيده
 وسجنه فاجتمعت الكفة على برسبائي وصار صاحب الحل والعقد فتعصب له جماعة من
 الامراء وخلعوا الملك الصالح وسلطنوا برسبائي (١٢٥) فكانت مدة سلطنة الملك

الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً . وخلع برسباي على المقر السهني جاني بك الجباصي
 واسنقر به نائب الشام واستقامت احواله في السلطنة وراق له الوقت .
 وفي سنة ٨٣٦ سار الملك الاشرف في حملة من مصر قيل انه غرّم عليها
 خمسمائة الف دينار وقصد الشام وسار منها الى آمد فحاصرها وكانت لابن قرا بلك
 فلم ينل منها طائلاً ، فحشى بعض الامراء بالصلح على ان لا يتعدى على بلاد السلطان
 فغلب صاحب آمد على ذلك ولما عاد الجيش المصري ادراجه عاد صاحبها الى العصيان
 قال ابن اياس : والملك الاشرف هو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى
 البلاد الشامية .

توفي الملك الاشرف برسباي سنة ٨٤١ قال السخاوي : انه ساس الملك ونالته
 السعادة ودانت له البلاد واهلها وخدمته السعود حتى مات وفتحت في ايامه بلاد
 كثيرة من ايدي الباغين من غير قتال ، وكذا فتحت في ايامه قبرص وأسر ملكها .
 قال المقر يزي : وكانت ايامه ايام هدوء وسكون الا انه كان له في الشح والبخل والطمع
 مع الجبن والحذر وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة الثقلب في الامور
 وقلة الثبات أخبار لم نسمع بمثلمها ، وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب وقتل
 الاموال بها وافقر الناس وساءت سيرة الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل اغراضه
 وقهر اعاديه وقتلهم بيد غيره . وقد عقد برسباي معاهدة مع فرسان رودس وقهر
 صاحب مملكة ذي القدرية في آسيا الصغرى وكان الذي يثير عليه الفتن في الشام
 شاه رخ بن تيمورلنك لان سفراءه أهينوا في مصر كما أهين تجاره في جدة وابي
 عليه صاحب مصر ان يكسو الكعبة المشرفة . وقال ابن اياس : ان الملك الاشرف
 كان منقاداً الى الشريعة ، وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة
 ولا سيما الاشرفية البرسببية فانها من خالص الذهب ، وكان عنده معرفة باحوال
 السلطنة ، كنبوء الملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ، لكنه كان
 عنده طمع زائد في تحصيل الاموال مجباً لجمعها من المباشرين وغيرهم قال وكان من
 خيار ملوك الشراكسة اه .

وكان تولي رجل عظيم مثل برسباي زمام السلطنة بعد سخافة فرج وابنه الطفل

وسخافة ططر وابنه اليافع من أجل الموافقات للبلاد أعاد الى السلطنة عزها الذي
اولاها اياه مؤسسها برفوق . ورسباني لا يقل عنه تدبيراً وحكمة وربما امتاز
عنه بامور :

اذا تصفحت امور الناس لم تلف امرءاً حاز الكمال فاكتفى
عوتك على الصبر الجميل انه امنع ما لاذ به اولو الحجي
وعطف النفس على سبيل الاسى اذا استنفذ القلب تبريح الجوى
والدهر يكبو بالفقى وتارة ينهضه من عثرة اذا كبا

الملك العزيز يوسف } تولى الملك بعد الاشرف برسباني ابنه يوسف وسمي
والملك الظاهر جقمق } الملك العزيز وله من العمر اربع عشرة سنة وجعل
الاتابكي جقمق العملائي نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) وجعل جقمق سلطاناً ولم يملك
الملك العزيز سوى ثلاثة أشهر وخمسة ايام ولقب جقمق بالملك الظاهر . وفي سنة
٨٣٧ ندب السلطان العساكر الى بلاد الارمن فملكوا مدينة اياس . وفي سنة ٨٤٣
خرج اينال الجكمي نائب دمشق عن الطاعة وظهر العصيان على السلطان وكذلك
تغري برمش نائب حلب فعين السلطان لها تجريدة من مصر وخلق على المقر السيفي
اقبغا التمرزي واستقر به نائب دمشق عوضاً عن اينال الجكمي وخلق على المقر السيفي
يشيك السوداني واستقر به اتابك العساكر عوضاً عن اقبغا التمرزي فأوقعا مع
النائبين العاصيين واسراهما وقطعا رأسيهما وارسلهما الى القاهرة . وفي سنة ٨٥٢
حصل بين نائب حمص تمرز المصارع وناظره الاميني عبد الرحمن بن الديري قتال
عظيم بألة الحرب بسبب ابي طبر الساوري امير جرم .

وفي سنة ٨٥٥ طرقت صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فادر كههم بجموعه
ابن بشاره مقدم العشير بالبلاد الشامية وقتلهم قتلاً شديداً حتى اذا حهم عن البلد بعد ان
قتل من الفريقين جماعة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم . وفي سنة ٨٥٦ ركب
طوغان نائب الكرك بماليكه فكبس بعض عرب الطاعة وقتلهم حتى ظفر بجماعة منهم
فاسرف في قتلهم ثم نزل هناك فكثير عليه جماعة منهم فقاتلهم نائياً فكسروه

وقتلوه اسوأ قتلة — قال هذا وما قبله السخاوي . وهدأت البلاد من الفتن والتجريد على عهد الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧ وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك اربع عشرة سنة وعشرة اشهر وكانت ملكاً جليلاً ديناً خيراً متواضعاً كريماً ويفعل الخير وقد كانت علاقته حسنة مع سلطان العثمانيين ومولوك آسيا الصغرى .

والمنصور والاشرف والمؤيد
والظاهر خشقدم والظاهر
بلباي والاشرف قايتباي

وخلف الملك الظاهر جقمق الملك المنصور نجر الدين
عثمان فخلع بعد ثلاثة واربعين يوماً وتسطن بعده
الملك الاشرف اينال العلاني وكانت ايامه ايام
لهو والشراح وقيل انه لم يسفك دمًا بغير وجه شرعي فعد ذلك من النوادر وتوفي
سنة ٨٦٥ وخلفه الملك المؤيد احمد وكان حسن السياسة بصيراً بمصالح الرعية قمع
ممالك ابيه عما كانوا يفعلونه من الافعال الشنيعة الا ان مدته لم تطل سوى اربعة
اشهر وثلاثة ايام وخلفه الظاهر خشقدم ابو سعيد سيف الدين وكان اهل الدولة
يزيدون سلطنة الامير جانم نائب الشام فلما ابطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (٨٦٥)
وسار جانم الى مصر فارجمه الملك الجديد الى الشام ، ولما بلغها ارسل السلطان الى نائب
قاعة الشام مراسيم في الدس بان يقبض على جانم نائب الشام فرمي عليه بالمدافع وهو
جالس في دار السعادة فهرب الى الرها ، واستمر في هياج وعصيان وارسل عليه سلطان
مصر تجريدة بقيادة الامير جاني بك وعين المقر السيفي ثم المؤيدي نائب الشام .
وفي سنة ٨٧٢ تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذي القدرية على بلاد حلب فرسم
السلطان خشقدم للامير برديك الجمقدار نائب حلب ان يخرج اليه فخرج ثم التف عليه
واظهر العصيان على السلطان وقصدا التوجه الى الشام فارسل سلطان مصر عليها
تجريدة وانهمزم الجند الذين ارسلتهم مصر لقتال شاه سوار ودخلوا حلب وهم في اسوأ
حال ثم ارسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار ايضاً ، فاحتال عليهم حتى ادخلهم
في مواضع ضيقة بين اشجار نخوج عليهم السواد الاعظم من التركان بالقسي والنشاب
والسيوف والاطبار فقتلوا من العسكر عدداً كبيراً وقتل من مشايخ جبل نالمس

وعربانه والعشير والتركان والعلمان عدد كبير جداً واشرف سوارات بأخذ حلب ثم خمدت نائزته . توفي الظاهر خشقدم وملكه نحو ست سنين ونصف وخلته الظاهر بلباي وخلع بعد سلطنة ستة وخمسين يوماً وبه زالت الدولة المؤيدية وخلفه الاتابكي تبرغا ودامت سلطنته ثمانية وخمسين يوماً وخلته الملك الاشرف قايتباي .

* * *

مصائب القطر الطبيعية } بعد ان نجت البلاد من فتن النار وتيمورلنك خاصة
ثم السياسية } ووقائع الصليبيين عاودتها الاوبئة والمجاعات والزلازل
فقد زلزلت حلب مرات سنة ٨٠٦ تخرب كثير من اماكنها ومساجدها وكانت
كثيرة جداً وفي سنة ٨٢٠ كان يجلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون ألفاً وخلا البلد
من السكان وفي سنة ٨٦٣ وقع الطاعون بحلب فاربي من هلك فيها وفي ضواحيها على
مائتي الف انسان وفي سنة ٨٧٤ اشتد الغلاء والفناء بحلب وكانت الحال في البلاد
كلها على ذلك فجارت عليها الطبيعة وكانت من قبل يجور عليها امرؤها . وقال الدويهي
في حوادث سنة ٨٧٥ : ومن اخبار هذا العصر يستدل على انه في دولة المقدمين
واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس .
وبينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك او تشترك معهم احياناً وقد غضب
عليها جبار الارض وجبار السماء ظهر لها بل لدولة المماليك الشر كسية في مصر والشام
عدوان لدودان او حكومتان مسلمان نجت من شر الاولى ووقعت في شر الثانية ونعني
بهما دولة حسن الطويل ودولة ابن عثمان . ودولة حسن الطويل هي المعروفة بدولة
الحمل الابيض (آق قيونلي) استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة ٨٧١ وقتل في
السنة التالية جهانشاه ومرزا حاكم دولة الحمل الاسود (قره قيونلي) واما سعيد حفيد
تيمورلنك فاصبح ملك العراقين العربي والعجمي وفارس وكرمان وتلك الانحاء وانشأ
دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها . اما دولة ابن عثمان في الروم اي الاناضول
فقد قويت على ذلك العهد ولاسيما بعد ان غلب السلطان محمد الثاني حسن الطويل
(ارزون حسن) سنة ٨٧٧ .

ففي سنة ٨٧٢ ارسل سلطان مصر والشام عسكرياً على شاه سوارفانكسر كسرية

شنيعة وقتل وجرح كثير من امراء المماليك ونهب اثقال الامراء والعسكر قاطبة وعاد الذي سلم الى حلب في اسوا حال من العربي والمشي ، وقد قوي امر سوار وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ثم قوي عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام ومصر وكان جيشاً جراراً فقوي عزمه على مداومة حلب ، فجرد سلطان مصر تجريدة تازية فكسرها عسكر سوار وفي هذه السنين كثر تبادل نواب حلب فقال ابن الوردي :

هذيه امور عظام من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه في كل شهر بن نائب

وفي سنة ٨٧٥ تحرك حسن الطويل على اخذ البلاد الحلبية واطهر العداوة لسلطان الشام ومصر وقد طمع في عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم وهزيمة الشاميين مرتين امام شاه سوار لما فعله سوار معهم ، واستظفر عليهم فنار السلطان لهذا الخبر وقصد ان يخرج الى حلب بنفسه خصوصاً لما بلغه ان سواراً استولى على سيس وقلعتها فان فزعه زاد ، وارسل السلطان هذه السنة الى شاه سوار الامير يشبك الدوادار الكبير وفوض اليه السلطان امور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد وجعل له التصرف في جميع النواب والامراء ما خلا نائب حلب ونائب دمشق فقط ، ففل يشبك عسكر شاه سوار على نهر حيمان ، فانكسر عسكر شاه سوار وقتل منهم جمهور كبير ، وارسل سوار يطلب الصلح من الامير يشبك وان يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده وانه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان ذلك الا ان يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان ، ثم قبض عليه في قلعة زمنوطو وحمل الى مصر فقتله سلطان مصر هو واخوته واقاربه .

قال ابن اياس : وخمدت فئنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت عليها اموال وارواح وقتل جماعة كثيرة من الامراء وكسر الامراء ثلاث مرات ونهب بركهم وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى ان الفلاحين طمعوا في التبرك و«تهدلوا» عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار وكادت تخرج المملكة عن

الشمرا كسة وقد اشرف سوار على اخذ حلب وخطب له في الابلسن وضربت هناك السكة باسمه .

وفي هذه السنة (٨٧٢) جمع حسن الطويل ملك العراقين جنداً جراراً وزحف على بلاد الشام واستولى في طريقه على كحيا وكركر فانندب ملك مصر الامير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انندب لقتال سوار في السنة الفاتمة . اما العسكر فما صدقوا ان خمدت عنهم فئنة سوار حتى انتشبت فئنة حسن الطويل .

وقبض نائب حلب (٨٧٢) على بعض رجال حسن الطويل في حلب وجماعة آخرين نسبوا الى المواظمة مع حسن الطويل وكانوا يكتبونه باخبار المملكة ، فامر نائب حلب بصلبهم وارسل في هذه السنة الامير يشبك نائب حلب جيشاً الى البيرة لقتال حسن الطويل فمخذل عسكره بعد ما عدوا الفرات وطرقوا البلاد الخلبية من اطرافها وتلاشى امر حسن الطويل فارسل يكتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وارسل ابن عثمان ملك الترك قاصده الى الامير يشبك بان يكون عوناً له على قتال حسن الطويل وكان حسن الطويل استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر والشام وصاحب الروم ابن عثمان مجراً وهو يقانلهم براً ولكنه عاد في سنة ٨٧٩ يرسل الى سلطان مصر معتذراً عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه . وفي سنة ٨٨٠ صدرت من برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة باهل دمشق فرجموه ورموا عليه بالسهام واحرقوا داره بالنار وارادوا قتله فركب نائب قلعة دمشق وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الائمة قليلاً وقد كادت ان تحرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي وكان قد طغى على الناس وتجر .

قال السخاوي : وكان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه وبولده احمد وقد وصفه حسن بن احمد عربشاه في كتابه ايضاح الظلم والعدوان في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان ووصف مظالم ابنه بما نقشع منه الابدان وكان طالع النابلسي احمد الخراب ، صادر اهل طرابلس وهتك ستر نائبيها وصادر كثيرين في دمشق ، وأراد ان يعرج على حلب فئنه صاحبها من اتيان ما عمل في دمشق . اما ابنه فاحتكر الاقوات وطف الكيل وغش الحبوب وأدار باسمه الطواحين والافران

تسبب في الجزية على المدارس وأنقص معالم الطلبة وجمع من الاموال ما لا يحصىه
العد وكثر تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصداً حاسبه على الاموال
فظهر اختلاسه فنكل به وأقام الناس عليه الشكاوي كما نكل بابيه في مصر لما اتى
من المساويء هناك وقبض عليهما في وقت واحد .

وذهب في هذه السنة نائب حلب ترمباي في العسكر الى التركمان وانكسر
عسكر حلب كسرة لم تسبق مثلها من التركمان فعظم شأنهم . وفيها بعث ابن حسن الطويل
يستنجد بنائب حلب على ابيه فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب فقاتلوا
عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب وقتل منهم جماعة .

وفي سنة ٨٨٣ خرج سيف بن نعيم الغاوي وقرابته عن الطاعة فقاتله نائب
حماة فكسر النائب وقتل من عسكره كثير ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه
ففر منه فتبعه وقد اضطرت أحوال حماة بسبب ذلك .

مات حسن الطويل ملك العراقيين (٨٨٣) وانقرضت دولة بني أيوب على يده
وكان تحرش بابن عثمان ملك الروم بان يأخذ من ملكه شيئاً فما قدر عليه ، ثم
تحرش بسطان مصر وجري له مع الاشرف قايتباي امور وكان الاشرف يجشئ
من سطوته لانه كان ملكاً جليلاً عاقلاً سائساً كثير الخيل والحداد . وفي سنة
٨٨٥ كبس عمرو بن غانم البدرى ومن مومه من العرب الامير ناصر الدين محمد بن
أيوب نائب القدس باربعاء الغور وحصلت فتنة قتل فيها جماعة .

وقعة مشؤومة } وكانت سنة ٨٨٥ من أشأم السنين على دولة الاشرف
وأحداث } قايتباي فان الامير يشبك الدوادار كان قد ندب ايضاً
من مصر لقتال الامير سيف امير آل فضل فسار معه جيش من مصر وكان سيف
صحبته نواب دمشق وحلب وطرابلس وحماة مع العسكر الشامي والمصري وغير ذلك
من العساكر فتوجه الى الرها واجتمع معه نحو عشرة آلاف انسان وكان المتولي امر
الرها شخص يقال له باندر احد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل فحصر الامير
يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة وكان يريد بعد أخذها ان يسير لفتح العراق فعاد

عليه بابندر وكسر جيش يشبك وأسره مع النواب الذين في حملته وشتت شمل جيشه وأخذ يشبك وقتله وقتل من امراء الشام عدد كبير جداً وكذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تطأ الا على جثث القتلى من العسكر . قال ابن اياس : وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغربية وكانت مصيبة عظيمة هائلة . وقال : وكان الامير يشبك باغياً على بابندر فانه قصد محاربتة من غير سبب ولا موجب لذلك فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان في وكره يوماً فلا يأمن من لسعته

اضطربت الشام ومصر من مهاجمة عسكر يعقوب بن حسن الطويل بلاد حلب ودمشق فان النواب قاطبة كانوا في أسره وسحق جيش سلطان مصر والشام فأعد السلطان له جيشاً آخر قال ابن اياس : ولولا فعله ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب . وفي هذه السنة تار عامة حلب بمحمد بن حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها بحلب فقتلوه وقتلوا حاجب الحجاب بحلب . وفي سنة ٨٢٨ هـ وقعت فتنة بين طائفة الدارية وطائفة الاكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ثمانية عشر نفرأ واستنفر كل من الطائفتين من ينصر لها من العشير فدخلوا المدينة ونهبوا ما فيها عن آخره الا القليل منها وخربت أماكن وكان الامر عظيماً لم يسمع بمثله في هذه الازمنة .

اول مناوشة مع الاثراك العثمانيين } وفي سنة ٨٨٩ قتل كثير من امراء حلب والشام في الواقعة التي جرت بين المصر بين والتركان ، وفيها خرج نائب حلب في جمع من العساكر ونقاتل مع علي دولات أخي سوار وأمدته ابن عثمان بجمع كثير من عساكره فلما التقى الفريقان وقعت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها العسكر الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة من العسكر الحلبي والمصري . وكانت هذه الواقعة اول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام ومصر . ولما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ركب الامير قمرآز هو والامير ازدمر والعسكر المصري وتوجهوا الى علي دولات فنقاتلوا معه فانكسر علي دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ونهبوا جميع بركهم

وأخذوا سناجق ابن عثمان ودخلوا بها الى حلب وهي منكسة واستمرت الفتن يومئذ
بين السلطان وابن عثمان .

والشر مبدأوه في الاصل اصغره وليس يصلح بجر الحرب جانبيها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصحاح الى الجري فتعديها
وفي سنة ٨٩٠ استولى جنود ابن عثمان على قلعة كوك من مملكة حلب وفي
السنين التالية استولى على سيس وطرسوس وغيرهما من البلاد الحلبية وطمع في أخذ
سائر البلاد فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فساءت حال الشام
وخربت الاصقاع الشمالية منها . ولكن الجند المصري او جيش المالك الشركسي
وقع له مصاف سنة ٨٩١ في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان وانصر عليه وقتل منهم
جماعة كثيرة قدرهم باربعمين الفاً وأسرا احمد بك هرسك قائد جنود ابن عثمان ومن
أجل امرائه وصفدوا عدة من امرائه في الحديد . وفي هذه الاثناء (٨٩٢) فحش
امر خضر بك نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه الدماء وأخذ أموال الناس . وفي
سنة ٨٩٣ استقر الامير دقماق في نظر الحرمين ونيابة القدس والجليل ببدل عشرة
آلاف دينار للخزائن الشريفة غير ما تكلفه لاركان الدولة قال ابن ابي عذبة : وكان
ذلك من أفتح الامور وأبشعها فان ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي كان
من ادل الخير والصلاح فأبدل بظالم فاجر .

وفي سنة ٨٩٣ استولى عسكر ابن عثمان على قلعة اياس من غير قتال وبعث ستين
مركباً من الحجر مشحونة بالسلاح والعسكر الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر
المصري فما تم له ما أراد . واستخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان
فجاءت العاصفة وأغرقت غالب المراكب ومن طلع الى البر من العسكر العثماني قتله
العسكر المصري . قال ابن اياس : وكانت لهم النصرة على الجنود العثمانية وكانت
على غير القياس .

ووقعت (٨٩٣) معركة عظيمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان في اطراف الولاية
الحلبية قتل فيها من الفريقين الف وانهمزم العثمانيون وشرع العسكر المصري في حصار
الجند العثماني في اذنة ودام حصارها ثلاثة اشهر قتل فيها من الفريقين خلق كثير حتى

استولى عليها عسكر المالك ثم رجع في السنة التالية فطمع عسكر ابن عثمان في اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة في الحال لحفظ مدينة حلب ثم جرد تجار يد اخرى على ابن عثمان . قال ابن اياس : وطال الامر بين السلطان وبين ابن عثمان في امر هذه الفتن فرحف العسكر المصري والعسكر الشامي على اطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية واحرقوها وفتكوا باهلها وكذلك فعلوا في كثير من بلاد ابن عثمان وفي سنة ٨٩٤ كان الفناء العظيم والغلاء الشديد في الديار المصرية والشامية ومات خلق لا يحصى ومات في يوم واحد بدمشق ١٤٢٠ انساناً على ما ورد في سجل الاموات واشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالنقصير في المهم الشريف ببلاد الروم وقبض على بني اسمعيل مشايخ جبل نابلس ومن الناس من تسحب وقبض على من يكون منسوباً اليه من اقاربه واصحابه وجيرانه وباع بعض بناتهم بيع الرقيق ونفاحش الامر . وفي سنة ٨٩٦ حدثت في حلب فتنه كبيرة بين نائبيها وجماعة من اهلها فقتل سبعة عشر من ممالك النائب وخمسون من اهل حلب ثم احرق جماعة من حاشية النائب بالنار وكادت حلب ان تحرب عن آخرها فاحمد هذه الفتنه فانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب اذذاك وضاقت الامر بالناس لان المالك او سلاطينهم كانوا كلما ارادوا ارسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الناحشة على الناس ويسلبون اموال التجار ومساكنير البلاد .

وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهاالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم الفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمائة وبالرملة مئة . وفي سنة ٨٩٨ ثارت فتنه كبيرة بدمشق ورجم اهلها فانصوه الجيماوي . وفي سنة ٨٩٩ تغلب العربان على الكرك والشوبك وحدثت فتن هائلة وكان في (٩٠٠) وقعة بين اهل داريا ووعوطة الشام فخرج العسكر وقتل ما يربو على مئة قتيل وتوفي نائب دمشق وخلت من الحكام وكثر النهب والفسق ووقع الاختلاف بين القيسية واليمينية ، ولما بلغ السلطان فانصوه خرج بالعساكر المصرية فالنقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين .

وفاة الاشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد) وفي سنة ٩٠١ توفي الملك الاشرف قايتباي
 المحمودي وخليفة الوقت بمصر الامام المتوكل)
 على الله ابو العز عبد العزيز العباي وكانت مدة سلطنة الاشرف بالديار المصرية
 والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة واربعة اشهر واحد عشر يوماً وهو الحادي
 والاربعون من ملوك الترك واولادهم في العدد والخامس عشر من ملوك الشركسة
 واولادهم بالديار المصرية ، وكان كفوءاً للسلطنة وافرق العقل سديد الرأي ، عارفاً باحوال
 المملكة يضع الاشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الامور بطيء العزل لارباب
 الوظائف يتروى في الامور قبل وقوعها ، وكان لا يخرج اقطاع احد من الجند الا بحكم
 وفاته ، ولا من ابناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته . قال ابن اياس : بعد ايراد ما تقدم
 ولكنه كان محباً لجمع الاموال ناظراً لما في ايدي الناس ولولا ذلك لكان يعد من
 خيار ملوك الشركسة على الاطلاق ، ولكنه كان معذراً في ذلك ، تحرك عليه في
 ايام سلطنته شاه سوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم من ملوك الشرق وجرده
 عليهم تجار يد وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ما صرفه على
 نفقات التجار يد التي جردها في ايام سلطنته الى ان مات فكانت نحواً من سبعة آلاف
 الف دينار وخمسة وستين الف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودهم من التجار يد .
 وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثليها ، وكان مغرمًا بشراء الممالك حتى قيل لولا
 الطواعين التي وقعت في ايامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . وكان مولعاً
 بالبنيان الفاخر خلف آثاراً كثيرة في ارجاء مملكته وصادر اليهود والنصارى مرتين
 في ايامه ، وخلفه ابنه ناصر الدين محمد ، وبدأت امارات الضعف في اعصاب المملكة
 لصغر سنه وكان ابوه لا يريد سلطنته بعده ولكن عاجله النزاع فعمل الامراء من عند
 انفسهم ، وكان الفساد مستشرراً في مصر منذ تولى ، وكثيراً ما كان السلطان يتخوف
 على نفسه من الامراء فيحضر لهم المصحف العثماني ويحلفهم وقد حلفهم اربع مرات وكانت
 ايمانهم كاذبة فاجرة :

ولا خير في امر يكون حسيكة ولا في يمين ليس فيها مخارم
 وكان هذا الضعف ينال منه الشام قسط عظيم حتى خرب ولا سيما شماله لكثرة

غارة اعداء البلاد عليها . قال ابن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ وقفت حال الناس وقطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة وبني رام خارج دمشق واطرافها وكثير الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن :

واذا تأملت البلاد رأيتها ثري كما تُثري الرجال وتُعدم

وفي هذه السنة وقع قتال بين الامير علي الشهابي في جماعة من وادي التيم ورجال الشوف وبين الامير بكر الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الاخ من عمه وقتله بيده مع ثلاثين من اصحابه وسار الى حاصبيا فالتقاء بقية اهالي البلاد والامراء وساس الرعية احسن سياسة فصح فيه قول الشاعر :

من الناس من يغشى الاباعد نفعه ويشقى به حتى المات اقاربه
فان يك خير فالبعيد يناله وان يك شر فابن عمك صاحبه

* * *

الملوك المتأخرون } توفي السلطان الناصر محمد وكانت مدة سلطنته نحواً من
وأخراًهم الغوري } سنين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوماً وكانت ايامه كلها
فناً وشروراً وتسلطن بعده الملك الظاهر ابوسعيد قانصوه ولم تطل مدته اكثر من سنة
وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً وكان ملكاً هيناً مسلوب الارادة مع الامراء وتسلطن
بعده الملك الاشرف ابوالنصر جان بلاط بن يشبك الاشرفي وكانت مدة سلطنته ستة
اشهر وثمانية عشر يوماً وثب عليه الامير طومان باي وخلعه من السلطنة وتسلطن
عوضه وسمي بالملك العادل طومان باي بن قانصوه ابي النصر الاشرفي قايتباي وفي
سنة ٩٠٦ تولى السلطنة الملك الاشرف قانصوه الغوري .

وفي سنة ٩٠٣ عصا اقبردي الدوادار وذهب الى الشام فاستولى على غزة ثم جاء
دمشق وحاصرها فلم يتدر عليها فنهب الضياع التي حولها وخرب غالبها وحاصر حماة
واخذ منها اموالاً لها صورة وحاصر حلب شهرين واحرق من قراها وكان اينالك
السليمان يومئذ نائب حلب وكان من عصبة اقبردي ، فقصده ان يسلمه المدينة فرجه
الجليون وطردوه من بلدهم وحصنوها بالمدافع على الاسوار ، ثم هرب اقبردي الى علي
دولت . وفي هذه السنة زحف ابن عثمان على بلاد المماليك في الشام فساعت حالها

وكثير تبديل النواب مخافة ان يتأصل نفوذهم وتسمو بهم الهمم الى شق عصا الطاعة عليهم . ولما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصري طمعوا في اخذ البلاد الخلمبية فارسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب ، فساءت احوال البلاد وآلت الى الخراب وبطلت التجارة بين مصر والشام . ثم تفاوض صاحب الروم وصاحب مصر والشام في الصلح وحمل ابن عثمان الى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها الى السلطان في القاهرة . وفي سنة ٩٠٤ اغار كرتباي الشركسي نائب دمشق على عرب هتيم بارض الزرقاء وكان كرتباي على رواية الغزي حسن السيرة بالنسبة الى غيره من الامراء . وقتل الناصر محمد بعد سنين وثلاثة اشهر من توليه السلطنة وكان سبي التدبير خالغاً ماجناً وخلفه خاله المقر السيفي فانصوه الدوادار الكبير ولقبه بالظاهر ، وعاد في اول امره اقبردي الدوادار وحاصر حلب حصاراً شديداً واحرق ما حولها من الضياع واشرف على اخذها والتف عليه كثير من العربان والتركان وحصل منه غاية الضرر ، فجرد السلطان لقتاله حملة . وزحف (٩٠٤) عسكر ابن عثمان على ارض الشام وآل الامر الى انه ارسل يقول لنائب حلب : اعزل ابن طرغل فاجابه نائب حلب الى ذلك وعزله وفي هذه السنة جرى الصلح بين الامراء المصرين وبين اقبردي الدوادار وكانوا انذبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد ان ساءت حال البلاد بفنئنه .

وفي سنة ٩٠٥ خرج قصره نائب الشام عن الطاعة واظهر العصيان جملة واحدة واستولى على قلعة دمشق واموالها وطرابلس وقلعتها وكان السلطان حاول ان يولي قصره الشام فاخفى السلطان في الفتنة وخلصه في الملك الاشرف ابو النصر جان بلاط فلما تسلطن السلطان ارسل الى قصره في الشام بالبشارة فلم يزد الا عصياناً . وفي هذه السنة ولي نيابة الشام فانصوه المحمدي فأتى الى البقاع فهرب منه مقدمها ناصر الدين بن محمد بن حنش ، وجرت بينهما امور كثيرة . ثم وقعت الفتنة بين اهل دمشق ونائبها فأحرق حي الشاغور وجرت بينهم حروب كثيرة ثم وقع الصلح عن يد ابن الكبيش شيخ الاسلام بدمشق .

سلطنة طومان } وانندب السلطان احد المقدمين الى الكرك لقتال بني لام
 باي } واجتمع السلطان بالامراء و ضربوا مشورة في امر قاصروه
 نائب الشام فأشاروا عليه بان يرسل قاصداً وكان قاصروه قد استولى على غزة واعمالها
 والقدس وغير ذلك من النواحي فعزم السلطان على ارسال تجريدة لنائب الشام ،
 وكان دولات باي نائب حلب معه في شق عصا الطاعة ، ولكن لم نفع التجريدة
 وأعلن طومان باي سلطنته بالشام وتلقب بالملك العادل وكان العسكر المصري نزل
 بسبعين بالقرب من دمشق فركب قاصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره
 واظهر انه طائع فاطمان له العساكر وكان غالب الامراء من ندمائه ولما حضر اليهم
 دخل معهم الى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، وامر
 قاصروه والامير طومان باي بالقبض على جماعة من الامراء وسجنهم بالقلعة .

وحضر الى دمشق دولات باي بن ار كاس نائب حلب الشهير باخي العادل فلما
 حضر تعصب للامير طومان باي وتكلم في سلطنته فأحضر قضاة الشام وكتب
 صورة محضر في خلع الاشرف جان بلاط من السلطنة وبايعوا طومان باي من غير
 خليفة وتلقب بالملك العادل ابي النصر وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه - فلما تم
 امره عين لاتابكية مصر قاصروه نائب الشام وعين لنيابة الشام دولات باي نائب
 حلب وعين لنيابة حلب ار كاس بن ولي الدين وهكذا عين سائر نواب الشام وخطب
 باسمه على منابر دمشق . ثم ذهب الى مصر ومن أطمعهم بالمناصب من الامراء وكان
 تقدم الى من في مصر من الامراء فخلع عليهم ونصهم قبل حضوره وتسلطن فيها .
 وفي سنة ٩٠٨ حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة وقتل أناس
 وضرب النائب على أهل دمشق مالا لأجل مشاة تجرح معه الى حلب تجريدة حرمة
 للبلاد لما قيل من امر الخارجي حيدر الصوفي وذلك مع وقوف حال الناس من الظلم
 وكثرته — قاله ابن طولون . وفي سنة ٩٠٩ جيز الامير ناصر الدين بن حنش مقدم
 البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن بشارة في قرية شيبين فقتل من جماعة
 ابن حنش نحو مائتين .

ومن الاحداث في هذه الايام تجهيز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجي

الدوادار سنة ٩١٠ الى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز وقتل معه نحو ثلاثمائة شخص وكانت الوقعة بينهم وبين الامير نجرالدين بن عثمان بن معن امير الشوف . وكثرت بعد سنة ٩١١ الرميات والغرامات على حارات دمشق فهاج الناس وصعد أهل القبيبات الى مأذنة الجامع الاموي وكبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين . واشتد الجور سنة ٩١٦ في لبنان فهجر اكثر الناس مواطنهم الى البلدان البعيدة ومن اللبنانيين من هاجر الى قبرص ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضيق العظيم الذي حصل فيها بسبب الجراد وكثرة الضرائب التي فرضها الحكام على الرعية .

* * *

القضاء على مملكة ذي القدرية
وطبيعة دولتي المالك البحرية
والمالك البرجية

وأهم ما وقع من الحوادث التي عجلت في سقوط الشام بعد ذلك في أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة ٩٢١ على مملكة ذي القدرية التركمانية وكانت عاصمتها مرعش تارة والبستان تارة أخرى واستولت على بهسني وملاطية وخربوت ، قامت هذه الدولة سنة ٧٨٠ وتولاها عشر ذمراء أولهم زين الدين قرهجه وآخرهم علاء الدولة بن سليمان الذي قتله سنان باشا وأخاه وبعض اولاده في المعركة واستولى على بلادهم باسم سلطان العثمانيين ، فبذلك سقطت الانحاء الشمالية من الشام في يد عدوة الدولة الشركسية ، وكان امراء ذي القدرية ينزون الشام حتى استولوا مرة على مملكة حماة فردهم الظاهر برفوق مدحورين .

ومنها ذهب سلطان مصر الى دمشق سنة ٩٢٢ فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهباً وفضة ، وفرش برسبيايي تحت حافر فرسه الشقق الحرير وخرج الى المصطبة التي يقال لها مصطبة القابون في القابون الفوناني ورسم لبعض حجاب دمشق بعارتها وأقام بها تنعة أيام . وكان ذلك الذهب المنتشر شؤماً على السلطان ومملكته انثر بعدها سلك ملكه .

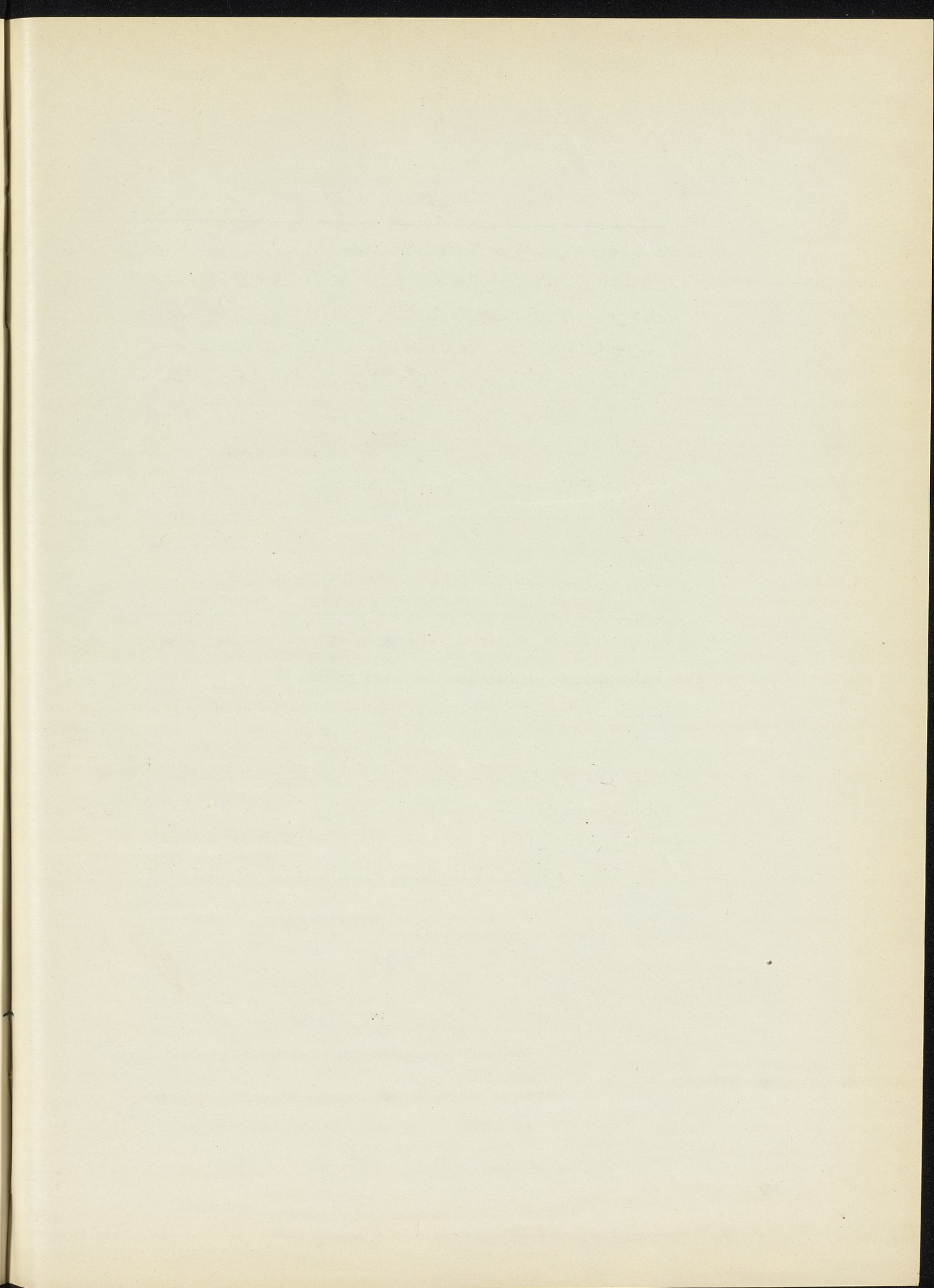
هذه أهم الاحداث التي حدثت قبيل دخول العثمانيين الى الشام وخروجها من ملوك الشركسة بعد ان ملكوها بسلطنة الاتابك برفوق ١٣٩ سنة وكان المالك

البحرية ملكوها منذ سنة ٦٥١ هـ والاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية ودولة الشراكسة فكلماتها أعجميتان ولكن القائمين بهما لا يخرجون في الخطاب والتكاتب والاصول عن اللغة العربية والشريعة الاسلامية، وقد كان من تينك الدولتين المماليك والشراكسة رجال عظام مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وابن قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتبساي ورسباي ولكن جاء بعدهم ملوك قونمخروصبيان آل اليهم الامر فأفسدوه او من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة الفاسدين وقد ظفرت هذه الدولة اي المماليك البحرية والبرجية باخراج بقايا الصليبيين من الساحل واستعملت الشدة فيهم فنجحت في التنكيل بهم حتى دثرت بقاياهم، ولكنها لم تقو على انقاذ البلاد من غارات التتار والمغول فقامت الشام منها ألوان العذاب والحراب .

وكان سلطان مصر والشام متى دهم الشام مداهم عظيم يعتصم بمصر وينعم ويلذ في قصوره ويكتفي بارسال تجريدة قد تكون ضعيفة او يصدر أمره لنائب حلب ان ينجذ دمشق ولنائب دمشق ان ينجذ حلب مثلاً . ولا يخرج الاعداء من البلاد الا اذا أرادوا، وأتوا على الناطق والصامت وألحقوا العامر منها بالعامر، وباتت امور السلطنة ألعوبة في كثير من الادوار بايدي ضعاف الاحلام من أسرة ذاك المملوك فتهيات السبل لقيام دولة أخرى وهي الدولة العثمانية .

اما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام ومن حكمه انتقلت الى العثمانيين فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته ومع ذلك بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح وطال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت ايامه فنناً وغوائل ومخاوف، حتى قضى الله في دولته بامرته واستطال عليها سلطان أقوى .





الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ

—•••••—

حالة الشام قبيل الفتح العثماني } كانت الشام اخت مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها
شقاءها شق الأبله ، فيستبد المتغلبه من المالك بالاحكام
بحسب ضعف صاحب مصر وقوته ، وال صالح في نوابها وملوكها قليل . ولم تسعد البلاد
بعد فننه تيمورلنك بسطان عادل بطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسدخلها ، ويزيح
بحسن الادارة عليها . وشغل ملوك الشرا كسة بالتجاريد على حسن الطويل وشاه سوار
وابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة وشرقها يجردونها فيجردونها الرجال والاموال ،
وقد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين والمغول وما اعقبها من الاوبئة والزلازل
والجماعات اعمرى من مغزل وازمنت الفوضى في ارجائها وساءت حالتها
الاقتصادية والاجتماعية .

احسن اكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون الى الدولة
العثمانية ، وكانت الى الشام ومصر اقرب الدول الاسلامية الكبرى هذا والدولة
العثمانية اذ ذاك في ايدان شبابها وقوتها ، وقد وقرت في النفوس منذ أسس بنيانها
السلطان عثمان التركي سنة ٦٩٩ على انقاض دولة السلجوقيين ، ولا سيما بما قام به محمد
الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات والفتوحات ، وتوفيق له من فتح عاصمة الروم
البيزنطيين ، بعد ان حاول كثير من ملوك العرب وغيرهم ذلك فلم يفلحوا بعدها عن
مواطن قواتهم ، ولقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور والامور مرهونة باوقاتها .

هذا والناس لا فرق عندهم اذا استولى عليهم الترك الاعاجم ، بعد ان حكمهم المالك المنوعون في اجناسهم زمناً طويلاً ، ماداموا كلهم غرباء عن البلاد يستعبدونهم وينالهم من ضعفهم ضعف وشفاء ، ومن قوتهم بعض راحة وسعادة ، ولا فرق في الاسلام بين عربي وانجسي في الحقوق والواجبات ، واقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة ، لان الامة كانت تنفى باسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى ، وسلطان غشوم خير من فئنة تدوم .

مقاتل الغوري } كان السلطان قانصوه الغوري آخر من ملكوا الشام من
ومقدمات الفتح } الشرا كسة على شيء من الدهاء ، لا يخلو من حسنات ولكن
سيئاته اكثر ، اعدّ للايام عدتها من الماديات وادرك ما يقيق بمملكته من خطر ابن
عثمان ولكن ما ينفع التدبير اذا كانت المعنويات في حكومته مريضة ضئيلة ، والقوى
في جيشه غير موحدة ، وداء الهرم قد استحك منه ومن دولته . وكان في الثامن من عمره
يوم صحّت نية السلطان سليم العثماني ، رجل الارادة القوية والجيش الجرار ، على اخذ
الشام ومصر ، والقضاء على دولة المالك . وكان الغوري على رواية كامل باشا
لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله وامرائه غريب الاطوار في ذاته ، فسكان ذلك
من دواعي خروج الامر عنه ووقوع الخلل في جيشه ، وكان يعتقد بعلم الجفر ، وقد
ذكر احد ادعياء هذا العلم ان الشر ياتي من رجل يبدأ اسمه بحرف السين ، فصار يتيطر
من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف ومنهم الامير سيدي كافل الشام . ودون الغيب
اقفال لا يفتحها الزجر والقال .

ترجم للغوري احد المعاصرين من الفرنج بقوله : « انه من ممالك الغوري في افغانستان
كان حاجب الحجاب في حلب سنة ٨٩٣ (١٤٩٠) ورأس محكمة عسكرية ووفق الى
قمع ثورة فيها فابان عن كفاءة وكان وزيراً لما حنق المالك على طومان باي واختاروه
لملك فتردد كثيراً في قبوله لانه كان تجاوز الستين من عمره واخذ مكوساً وضرائب
من كل انسان حتى من البوابين وضرب نقوداً زائفة اضرت بالتجارة الداخلية والخارجية
فاستلزم عمله حنق الناس واننقاد معاصريه فميجل بخراب مالية البلاد وذلك لوضعه

رسوماً فاحشة على البضائع ؛ وعلى البضائع التي تمر ببلاده وانه استعمل جزءاً من هذه الضرائب في إقامة القلاع ولا سيما في حلب وانشأ طرقاً وآباراً في الحجاز . وكانت المكوس التي تجبي في الموالي ورسوم البضائع الآتية من بلاد الهند المارة بالبلاد الى اوربا من طريق مصر آتية من عدن وجدة والسويس واسكندرية او من طريق الشام ذاهبة من البصرة وحلب من أهم واردات المملكة . ونفادياً من اداء هذه الرسوم الفساححة اجتهد البرنقاليون ان يكشفوا طريقاً في البحر الى الهند مما ظفر به ملاحهم فاسكودي غاما وتوفقوا على التدرج الى النزول على شاطئ بلاد الهند وبعثوا الى اوربا توأ بسفنهم النقلة الكبرى عن طريق البحر وذلك بقطع طريق رأس الرجاء الصالح فتحاموا اداء المكوس الفاحشة التي كانت تؤخذ في الموالي المصرية عن البضائع التي ينقلونها وعن نفقات النقل في البر فاستناد البرنقاليون من ذلك ، ولم يسع الغوري ان يسكت عما يلحق المسلمين من مظالم البرنقالين فحارب الاسطول البرنقالي غير مرة في بحري الهند والاحمر ونال منهم ونالوا منه قليلاً . قال وساءت حالة الغوري حتى لم يستطع ان يدفع رواتب المالك في اوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونة قوية ، وكانت سياسته الخارجية تعسه لانه اضطر ان يحالف عدوه اللدود اسماعيل شاه خوفاً من السلطان سليم العثماني ولم يخف ذلك عن السلطان سليم وعرفه بواسطة جواسيسه .

وبينا كان قانصوه الغوري يغوص في احلامه واوهامه ، كان السلطان سليم الاول وهو التاسع من آل عثمان الملقب بپاوز اي الشديد الجبار يجيش الجيوش ويعد الزحف ويستجد السلاح فبدأ بقتل الشيعة في تخوم الاناضول وكانوا اربعين الفاً ثم زحف سنة ٩٢٠ على بلاد الشاه اسماعيل الصفوي صاحب شروان واذر بايجان وتبريز والعراق العجمي وفارس وكرمان وديار بكر و بغداد و باكو ودر بند وخراسان وانصر في وقعة جالديران المشهورة وانهزم عسكر الشاه اسماعيل شر هزيمة وجرح الشاه في المعركة وفتح السلطان سليم ديار بكر وبلاد الاكراد فهب قانصوه الغوري من مصر لانه لا ينجده فيما قيل والارخب انه هب للدفاع عن بلاده . وكان نائب سلطان مصر على البيرة رجلاً اسمه علاء الدولة بن سليمان (وهو صاحب مرعش والبستان) فلما اجتاز السلطان

سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوي امر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا شيئاً لعسكر السلطان سليم فهلك كثير من رجالهم ودوابهم جوعاً ، فشق ذلك على السلطان سليم كما قال بعض المؤرخين وشكاً ما وقع له الى الغوري فقال : ان علاء الدولة لم يصدر عن امره وانه عاص عليه وانه اذا قتله يكون له شاكراً ، وكتب الغوري الى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله فأحس السلطان سليم بان الغوري يكيد له وزاد علاء الدولة بان سرق بعض احمال من ذخائر عسكر السلطان سليم فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة واولاده وارسل رؤوسهم الى الغوري . بمعنى ان سنان باشا استولى سنة ٩٢١ باسم السلطان سليم على مملكة ذي القدرية التي كانت في مرعش والبستان وملطية وبهسنى وخربوت وما اليها ، وكانت الدولة العثمانية جعلت حكومة ابناء رمضان التركمانية التي نشأت سنة ٧٨٠ هـ في جهات اذنة وطرسوس وسيس تحت ظلها ، بعد ان كانت علائق امراءها الثلاثة الاول مع دولة المماليك الشركسية اصحاب الشام ومصر مسترخية ، ففتحت السبل والمنافذ الى الشام وصارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها .

ولما اضعف السلطان سليم مملكة كبرى وهي مملكة الصفوي ، وقضى على مملكة صغرى وهي مملكة ذي القدرية ، طمحت نفسه الى فتح الشام ومصر وبنزعها من دولة المماليك ليضمها الى مملكته فتدخل في طور العظمة وتكون ممالك في مملكة ، وكان ابوه وجده من قبله يقاوتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك ، ويدفعان امراء الاطراف امثال امراء ذي القدرية وغيرهم الى مجازبة ملوك الشركسة حبل السلطة على التخوم . وكان اولئك الامراء كثيراً ما يسرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير ، لعلمهم بان اثاره العثمانيين لم على المماليك لا لخيرهم بل لينتقموا بهم ثم ينتقموا منهم ويضعفهم ويضعفوا بهم .

لابداً للمصدر ان ينقشوا ولذي في الصدر ان يبعثا

صلات العثمانيين مع المماليك } وذكر مؤرخو الترك ان الصلات السياسية بين
ووقعة مرج دابق } ملوك الشركسة اصحاب مصر والشام وبين

سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح . ولما سمت هممة السلطان سليم الى فتح الشام ومصر (٩٢٢) ارسل جيشاً الى ديار بكر يوري بانه يريد قصد ايران ، ولادنى سبب اخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب ، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل السلطان سليم رجال السفير واراد ان يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه وشفع فيه ، وقال له : ان ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون ، فاكتفى السلطان بخلق شعر السفير ولحيته ، واركبه على حمار اعرج اجرب واعاده الى صاحبه الغوري جزاء . ما قدمت يداه فيما يقال من امتهان الغوري رسل السلطان العثماني .

وترددت الرسل بين السلطانيين في مرج دابق اولاً ، وكان ابن عثمان فوض الى رسله ان يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثني بذلك عنم الغوري عن القتال ، وقد احضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء بلاده يجيزون له قتل الشاه اسمعيل الصفوي ، وارسل يقول للغوري انت والدي واسألك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين الصفوي — بينا الامر على ذلك وقد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنينة ، وارسل اليه ابن عثمان يطلب منه سكرأ وحلوى فارسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا والتحف ، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشرا كسة وكسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، فقتل من عسكر ابن عثمان ومن عسكر الغوري خلق كثير ، فلما تحقق الغوري انه غلب اصابه للحال فانج ابطال شقه وارخى حنكه ، واستعد للركوب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض وفاضت روحه من شدة تهره ، واكثر المؤرخين على انه لم تظهر جثته في المعركة . ويقول بعض مؤرخي الترك : ان جاو يشا من الجيش العثماني أمر بان يبحث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه وقدمه الى السلطان سليم ، فامتعض منه السلطان وامر ان يضرب عنقه ، لتزلفه الى مولاه بقطع رأس الملك المقنول ولولا ان الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاويش مكتفياً بعزله .

وذكروا ان الغوري قد خانه لاول الامر ثلاثة عشر الفاً من جيشه ، امنعوا عن الحرب عند الصدمة الاولى وابوا قتال الاتراك ، ومن الامراء الذين كانوا مواليين

على الغوري وصدعهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة فان السلطان سليماً كان فإوضهما سرّاً ليوليها الشام ومصر على ما قيل اذا ساعده على فتح هذا القطر ، فلما انهزمت ميمنة الغوري وقتل الاتابكي سودون الجمي وملك الامراء سيبيائي نائب الشام ، انهزم جانب كبير من العسكر وانهزم خير بك وهرب فانكسرت الميسرة ، وكان ابن معن وامراء الساحل صحبة خير بك والغزالي فقال الامير ابن معن لمن معه من رجاله وقومه : دعونا ننفر لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . ولما اضطرت نار الحرب فر الغزالي وخير بك الى ناحية عسكر السلطان سليم بن معين من امراء الديار الشامية وبقى الغوري بعسكر المصربين اي عسكر الشام والمعول عليهم من امرائها من الشرا كسة والوطنين قد استسلم السلطان سليم فقاتلوا في صفوفه بدلاً من ان يقاتلوه ، ونائب الشام سيبيائي الذي كان يتطير منه الغوري لان اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه في المعركة يدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم :

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحبي شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف الخيل افرابه
ومن لا يكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عمن يواثبه

قوة الغالب والمغلوب وغنائم } ولقد اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين
الغالبين واضطراب البلاد } والماليك فاغلبهم على ان ابن عثمان كان في اربعين
الف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة ، وروى نامق كمال ان العثمانيين كانوا في ثمانين الفاً
وثمانمائة مدفع ، وان الغوري كان في خمسين الفاً لا مدافع لهم . وذكر الغزي ان الغوري
اتي من حلب الى دابق في ثلاثين الفاً . وذكر بعض المؤرخين ان السلطان سليم امر ان
تعد القنلى من الفريقين في مرج دابق فكان قتلى الشرا كسة الف تنس وقتلى الروم
اي الترك اربعة آلاف . وكان فقدان المدافع من جيش الغوري وخيانة ربع جيشه
وعدم ثقته باحد ، من دواعي القضاء عليه وعلى سلطانه ، وأهم ذلك خيانة بعض
قواده ، وامتناع امراء البلاد عن الدفاع في صفوفه او يظهر لهم الغالب .

ولقد قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر ، وما قتل من رجال الغوري ، ثم تحول من مرج دابق ودخل حلب من غير ممانع ، ونزل في الميدان الذي كان السلطان الغوري نزله ، وانتشر خبر الهزيمة وقتل الغوري في أنحاء الشام فوثب الناس بعضهم على بعض ونهبوا الزروع وأخذوا الاموال ، واضطربت البلاد أيما اضطراب ، ووثب أهل دمشق بعضهم على بعض ونهبوا حارة السمرة وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم ، وكذلك فعلوا بتجار الفرنج ونهبوا أموالهم ، وكانت فئنة هائلة ونهبوا بيوت أعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار ، فخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك وبسبب فئنة ابن عثمان وفساد الاحوال بمصر والبلاد الشامية وتوجه امراء الغوري وعسكره المهزوم الى حلب ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وأثقالهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التي كانت يجلب ، وجري عليهم من أهل حلب ما لم يجز عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن اياس . وكانت بين أهل حلب والماليك السلطانية إحترام منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب فنزلوا في بيوت أهل حلب غضبا وفسقوا في نساءهم وأولادهم ، وأذوا الحلبيين كل الايذاء ، فما صدق أهل حلب ان وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم .

وعلى الجملة فان ما نال البلاد وأهلها في اواخر حكم الماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المملوكية وفتح القلوب للسلطان سليم الاول ، وخدمه كثير من أهل الشان في البلاد قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالاخبار تترى عن مقاتل الغوري ومواطن الضعف من دولته ، وقد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ اواخر القرن الماضي فكان ذلك من العوامل القوية في الفتى في عضد الجيش الشركسي وامالة القوة الى الجيش التركي ففتحت الشام في وقعة واحدة ولم يبك على دولة الماليك الا من كانوا باسمها يفتخرون بالخيرات وينالون مظاهرها ويسلبون نعمة الامة . « وما قرعت عصا على عصا ، الا حزن لها قوم وسر آخرون » .

دخول السلطان سليم } وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله اهلها
حلب ودمشق } بالمصاحف والاعلام يجهرون بالتسبيح والتكبير
ويقراون « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » وطلبوا منه الامان فاعنهم وأنعم
عليهم ثم أخذ يجمع مالا من التجار سماه « مال الامان » ورأى خلفاء ارباب الطرق
الصوفية فسأل عنهم وهم يحملون اعلامهم ويرحلون الى الشام وأشار عليه خير بك
بان يقتلهم وكانوا نحو الف نفس ، واستسلم نائب قلعتها فأرسل السلطان اليه شخصاً
من جماعته أعور أعرج وفي يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال انه اخذ حلب
بضعف جنده . وطلع السلطان سليم الى القلعة فرأى فيها ما دهشه من مال وسلاح
وتحف وكان بها على رواية ابن اياس نحو مائة الف دينار وثمانمائة الف دينار .
وقال مؤرخو الترك انه كان فيها مليون دوكا . ورأى السلطان سليم من انواع
الاسلحة والزينية ما جمعه الغوري من الاموال من وجوه الظلم والجور والتحف التي
اخرجها من الخزان من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر والشام
بعد الايوبيين وذلك عدا ما كان في بهوت الامراء وغيرهم من رجال الدولة .

ووجه ابن عثمان الجيش الى مرعش ففتحها وملك معها ثلاثة عشرة قلعة من بلاد
الغوري واحتوى على ما فيها من مال وسلاح . وذكروا ان العثمانيين عثروا في خيمة
الغوري في مرج دابق على مئتي قنطار من الفضة ومئة قنطار من الذهب وفي رواية
ان هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة وقيل انه وجد في قلعة حلب ثلاثمائة
الف ثوب كامل .

واقام السلطان في حلب ثمانية عشر يوماً وبايعه اهلها بحضور واليها خير بك ،
وتوجه اليه امير المؤمنين المتوكل على الله العباسي وكان جاء مع الغوري من مصر
ومعه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة وجلس بين يديه وخلع عليه وانعم عليه
بمال وردّه الى حلب ، ووكل به ان لا يهرب اي انه اسره بأسلوب لطيف ، وصلى
صلاة الجمعة في الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خادم الحرمين
الشريفيين فكان ذلك كما قال راسم في تاريخه : فأل خير بان السلطان سليماً سيكون
صاحب دولة اسلامية كبرى . قال : وكان خيره باي (خير بك) احد امراء

الغوري استأمن السلطان العثماني لما نقهر جيش مصر فأخذ نفسه . وولى السلطان على حلب قراجا باشا .

سار السلطان في جيشه الى حماة وحمص ففتحت له ابوابها ، وبايعه اهلها على الطاعة كما بايعه اهل طرابلس والقدس . وجاء دمشق فاستقبله اهلها ورضوا به سلطاناً عليهم فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة . قال ابن طولون : « وفي يوم الخميس ثامن عشر من (شعبان ٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الاتراك) الى القابون القوقازي واسمه مصلح ميزان ، ثم وجه اثنين من الخاصكية ومعها السمرية ويونس العادلي وابن عطية التاجر الى دمشق ، ليكشفوا هل يسلمون أم يقاتلون ، وقد كانت انفتحت اكابر دمشق ومشايخ الحارات على تسليم البلد فقلقت الخلق لهذين الخاصكين ومن معها وسلموه دمشق . وفي يوم الجمعة تاسع عشر من دخل نائب الشام الجديد من قبل ملك الروم واسمه يونس باشا ، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم ملك الروم وكذلك في سائر الجوامع ، ثم نابع دخول العسكر وفي يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم الى المصطبة السلطانية بارض برزة في عسكرة عظيمة يقال ان عددها مائة الف وثلاثون الفا وعزل ملك الروم بدمشق عن نيابة دمشق يونس باشا وولى مكانه الامير شهاب الدين احمد بن يحيى . وفي يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة وهو خامس شهر كانون الاول ورابع الاربعينيات الشتوية سافر ملك الروم من دمشق الى مصر لآخذها من يد الشراكسة . »

قابل امراء البلاد السلطان سليماً ومنهم الامير نجر الدين	} مقابلة امراء البلاد سلطانهم الجديد وتغير الاحكام
المعني الاول امير الشوف فخطب امامه بالنيابة عن	
امراء البر خطبة جميلة استمال بها قلب الفاتح ، فأحسن	

اليه وخلق عليه فسماه سلطان البر وأفضل عليه وعلى رفاقه من الامراء مثل الامير جمال الدين الارسلاني اليني الذي جعله والياً على بلاد الغرب والامير عساف التركاني امير بلاد كسروان وبلاد جبيل ، وامرهم ان يحسنوا السياسة لقومهم وان

يسعوا بكل ما يؤول الى عمران بلادهم ، وقدمت اليه الناس من كل جانب الا الامراء
 التتوخين القيسيين فانهم لم يأتوا لانهم كانوا من حزب الدولة الشركسية . وقال
 كامل باشا : ان امير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) وكان عهد اليه الدفاع عن
 دمشق من قبل الشراكسة قبل بالصلح الذي اقترحه عليه خير باي وخضع للسلطان
 سليم ، فنزل هذا في القصر الابلق فجاءه محافظو قلاع سورية وامراء العرب والدروز
 يعرضون الطاعة له . ويقول ابن اياس : ان الامير ناصر الدين بن الحنش امير عربان
 حماة لما بلغه ان ابن عثمان ارسل طلائع عسكره وقد وصلت الى القابون بالقرب من
 دمشق لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة وقتل
 منهم جماعة واطلق عليهم الماء من انهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه
 بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة .
 ولما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس وعلى الاحكام
 الشرعية فتعطلت الحدود . قال الغزي : ولما بلغ الامام علي بن محمد المقدسي انت
 العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المواسات نخرج الدم من كبده وتمنى الموت ، للقيهر
 الذي اصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغير الاحكام وقال في دخول السلطان سليم
 دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا	بدعاء خالص قد سمعا
فيكساه ظلة مع وحشة	فهي تبكيننا ونبكيها معا
قد دعا من مسه الضر من ال	ظلم والجور اللذين اجتمعا
فعلا الحجب دعا فانبعثت	غارة الله بما قد وقعا
فأصاب الشام ما حل بها	سنة الله التي قد ابدا

هنا ما رواه مؤرخ ذلك العصر ، وربما كان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب
 للدولة الشركسية او رجاء أخفق وكان يظن انه يتم على يد ابن عثمان من اقامة
 الحدود ورفع المظالم شيء كثير في مدة قصيرة ، وما حلت دولة معها بلغ من سخفها
 وسخف القائمين بها من انصارها على الحق والباطل ؛ وكثير من الامور اذا نظرت

اليها من وجهها الحسن راقتك ، واذا ملت فيها الى الوجه القبيح احصيت عليها
بعض العيوب .

السلطان في دمشق وفي جبهز السلطان سليم جيشه في دمشق وقضى فصل
الطريق لفتح مصر } الشتاء فيها يعمر بعض المباني . وقال صولاق زاده :
ان السلطان سليماً كان مدة اقامته في دمشق يختلف في الاوقات الخمسة (كذا) الى
الشيخ محمد بدخشي في جوار جامع بني أمية وان السلطان سليماً لما كان يعتقد بالاستمداد من
ارواح الانبياء العظام الطاهرة وارباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة
اقامته في دمشق ، ولما رأى قبر العارف بالله محيي الدين بن عربي قد تداعى وخرت تربته
امر بتمميمه على ما يجب وانشأ بجواره جامعاً على اجمل طرز وعمر زاوية بقربه ووقف
على ذلك عدة قرى ومزارع . وقال ايضاً ان السلطان سليماً صرف الامراء والجند
فاخذوا دستوراً الى بلادهم ليقضوا فيها فصل الشتاء ، وجاء دمشق بعد ان استراح اثني
عشر يوماً في المحل المسمى المصطبة .

وذكر ابن طولون ان النائب بدمشق الشهاب بن يخشى نادى في ٢ ذي الحجة
٩٢٢ بالامان والاطمئنان ، وان لا ظلم ولا عدوان ، ولا يحمل احد سلاحاً ، وان
لا يتكلم احد فيما لا يعنيه .

سار السلطان عن طريق البر الى غزة فعصت عليه ففتحها حرباً والنقي جيش
العثمانيين مع جيش المصري في خاب يونس بين غزة والعريش ، فشنت الجيش
العثماني الجيش المصري ، ثم عصت غزة والرملة فجمع تائر الغزاة فيها ، وكانت الوقعة
المهمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان اندحر فيها
المصريون وقائد جندهم الغزالي . قال ابن طولون وفي ١٦ ذي الحجة ٩٢٢ النقي
سنان باشا الوزير الاعظم لملك الروم مع جانب بردي الغزالي فكسر الغزالي فدقت
البشائر بقلعة دمشق وسيب بها نفض كثير ثم نادى النائب بالزينة واستمرت
مدة اسبوع .

ذهب السلطان سليم في جيشه الى مصر وقتل الملك الذي كان بايع له المصريون

بعد هلاك السلطان الغوري واسمه طومانباي ، وشتت شمله ففتح القطر المصري على ايسر سبب . قال ابن طولون : ولما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة ايام وذارت بمشرو الاروام على بيوت الاكابر والحارات بالطبول والنايات ثم اتبعوها بزينة سبعة ايام لما ورد الخبر بان السلطان سليماً افني الشراكسة .

وعاد السلطان عن طريق البر الى الشام بعد تعبه ثمانية اشهر ودخل دمشق (١١ رجب ٩٢٣) وفي يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً وتحقق ان السلطان عزم على الاقامة بدمشق فغلت الاسعار وعند ذلك شرع بعبارة تربة ابن عربي وصرف عليها عشرة آلاف دينار ومن غريب التوفيق ان السلطان سليماً كان اعد في ذهابه الى مصر خمسين الف رجل لحمل المياه في الصحراء التي انفصل الشام عن مصر فامطرت السماء مطراً غزيراً اغنى جيشه عن ماء الروايا ، وسهل عليه قطع صحراء التيه على ايسر وجه :

واذا السعادة لاحظتكم عيونها نيم فالخاوف كلهم امان

وبينا كان السلطان سليم سائراً الى مصر تأخر من جماعته بعض اناس في الرملة ، فشاع الخبر ان اهل المدينة قتلوه ، وبلغ ذلك السلطان فامر بقتل اهل البلد فقتلوا عن آخرهم ولم يبق فيها ديار ولا ناخ نار . ويقول القرمانلي ان السلطان امر بقتل عامة اهل الرملة عند عودته من مصر وقد بلغه الثقاق ان اهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر المجروحين . وقال ابن اياس : ان الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة اشيع في غزة ان الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان ، فبادر علي باي دوادار نائب غزة واجناده فتهبوا وطاق العثمانيين واحرقوا خيامهم وقتلوا من كان في الوطاق والمدينة من العثمانية نحو اربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ومن كان بها مريضاً ، فلما ظهر ان الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الامراء رجع سنان باشا الى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع اهل غزة قاطبة وقال لهم : من فعل ذلك بنا قالوا : علي باي دوادار نائب غزة ، واجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئاً من ذلك ، فامر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا فيها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل

شوشنا على احد منكم قالوا : لا . فقال لهم : كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ، فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ، فعند ذلك امر عسكره ان يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم مالا يحصى عدده وراح الصالح بالطالغ .

ونصب السلطان والياً على مصر خير باي نائب حلب ووالياً على دمشق جان يردي الغزالي نائب حماة واذاف الى هذا القدس وغزة وصيدو الكرك ، واما حمص وطرابلس والمدن الجرية فجعلها بأيدي عماله من الاثراك ، وبقي الحال على ذلك مدة طويلة . قال شمس الدين سامي : ان جان يردي الغزالي كان قائداً عاماً للجيش الذي ارسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الوقعة التي جرت في غزة وفر ثم رأى ان يستأمن السلطان سليماً ويخدمه ، فاعانه على قهر طومانباي وفتح مصر ثم كان سبباً لقتل طومانباي . ومكافأة لخدمته نصبه السلطان والياً على الشام . اما حلب فقد نصب عليها السلطان قرهجه احمد باشا بن جعفر لمكانتها ، ودام فيها والياً ثلاث عشرة سنة لغنائها وكفايته في خدمة دولته .

فتوق وغارات وتأذي السكان } ولما مهد السلطان سليم الافطار الشامية والمصرية ورجع الى الشام عصى عليه الامير ناصر الدين محمد بن الخنش صاحب صيدا والبقاعين وشيخ الاعراب (٩٢٤) ثم هرب واتهم الامير زين الدين والامير قرقماز والامير علم الدين سليمان انهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي وبعث برأس ابن الخنش ورأس ابن الحرفوش الى السلطان سليم في حلب واطلق سراح هؤلاء المعتقلين وكان الامير ناصر الدين كثير العصيان على نواب حلب بل وعلى سلاطين مصر . ولما ملك ابن عثمان دمشق امنع من مقابلته فأخذه الغزالي وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وقبض على اربعة من مشايخ عربان جبل نابلس متهم قراجا بن ظراباي شيخ عربان جبل نابلس وكان انفق على هذا عربان بني عطاء وبني عطية والسوالمو كسروه ، فارسل الغزالي رؤوسهم الى السلطان ، فلما جرى ذلك اضطربت احوال جبل نابلس وصار العربان ينهبون الضياع التي حول حاضرتها ويقتلون اهلها . وفي مدة اقامة السلطان سليم في حلب لدن عودته من فتح الشام ومصر قتل بعض اشرار حارة بانقوسا ، ولما بلغه

ان الشاه اسماعيل الصفوي يريد ان يهاجم حلب اخذ بطيب خاطر الحلبيين ورفع عنهم ما كان اثقل كواهلهم به من الضرائب والمكوس واخذ يعتني بتحصين حلب .
ومن اعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامي نخرج اليهم ومعه نائب غزة بعساكر غزة ونائب الكرك ، فاقننل مع العربان وقتل منهم جماعة كثيرة وغنم اموالهم . وفي السنة التالية اتى الفرنج (ولا نعلم ان كانوا من البنادقة او البرتقاليين) الى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا مدينة بيروت وظلوا فيها ثلاثة ايام ، فلما بلغ ملك الامراء نائب الشام جان بردي الغزالي ذلك عين دواداره ^(١) ومعه الحم الكثير من العساكر فتوجهوا الى بيروت واقتنلوا مع الفرنج . وكان بين الفريقين واقعة هائلة قتل فيها كثير من الفرنج وأسروا منهم ثلاثمائة انسان وغنموا منهم اشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك ، وقيل اسروا جماعة من اولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاثة من كبار مرابكهم .

وفي ذهاب السلطان الى مصر وعودته الى الشام قامى اهل البلاد من اعتداء جنده كثيراً ، فقطع الاجناد الاشجار ورعوا الزروع واخرجوا الناس من بيوتهم في البلاد التي احتلوها وتعدوا على اعراض الناس ، فتضرر الناس بذلك وعرفوا انهم اخطأوا في نفوس ايديهم من ايدي الشرا كسة لاول ما بدا لهم من قوة العثمانيين ، وخاب رجائهم في ان تغيير الدول قد يكون منه رحمة ، والغالب ان فيه تقمة لا نعمة ، خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وان الحظ يحفظهم متى خفقت اعلامها عليهم وكانوا يرقبون طاعة العثمانيين منذ سنين رتبة هلال العيد ، للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد ، ولطالما ساء قال من يهتمون للامر الجديد ويفتحون له قلوبهم وصدورهم بادي الرأي مع علمهم احياناً بتهورهم ، واي فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة ، حياً بان يكون لهم او للبلاد شيء من الراحة والهناك اذا تغيرت الدولة .

محاسن السلطان سليم }
 مساويه ومهلكه }
 صرف السلطان سليم سنة وشهراً في فتح الشام ومصر
 وهلك بعد مغادرته البلاد بنحو ثلاث سنين (٩٢٦)
 وقد بالغ مؤرخو الترك في وصف فضائله خصوصاً من كتبوا بلسان الرسميات . وكثيراً
 ما يكون في الروايات الرسمية نظر كبير اذا وضعت على محك النقد التاريخي . وكان
 مؤرخو العرب أقرب الى الانصاف والثقة في وصف هذا الفاتح الذي هو بلا مرء
 نابعة العثمانيين او من نوابغهم بعد محمد الفاتح . ترجمه النجم الغزي في الكواكب
 السائرة بقوله : كان السلطان سليم سلطاناً قهاراً ، وملكاً جباراً ، قوي البطش ،
 كثير السفك ، شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن اخبار
 الملوك والناس ، وربما غير لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً ، وكان شديد اليقظة
 والتحفظ ، يجب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية
 (التركية) والعربية .

وترجمه ابن اياس بقوله : انه لم يجلس بقلعة الجبل (بمصر) على سرير الملك
 جلوساً عاماً ولا رآه أحد ، ولا أنصف ظالماً من مظلوم ، بل كان مشغولاً بلذته
 وسكره ، واقامته في المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه ،
 فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الشراكية ، وما كان له امان اذا
 أعطاه لاحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض ، لا يثبت
 على قول واحد كقول الملوك وعادتهم في أفعالهم . وقال ايضاً : ان السلطان سليماً
 قتل يونس باشا الصدر الاعظم وكان مقرراً جداً عنده ولكن ابن عثمان ليس له صاحب
 ولا صديق ولا امان منه لاحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرميح (الشعب
 والفننة) والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده ، ويقال انه قتل أباه واخوته ،
 لاجل مملكة الروم ، وآخر الامر انه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة .
 وفي الواقع ان السلطان سليماً قتل وزيره حسن باشا في رحيله الى مصر لان
 هذا لاحظ ان في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه ، ولما غادر
 السلطان مصر والف حمل تحمل امامه الى الاستانة ما غنمه من مصر من الذهب
 والفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطية والسبب في ذلك ان السلطان

اقترب من الصدر الاعظم وهو سائر معه وقال له : أرأيت كيف أصبحت مصر الآن وراءنا وغداً نبلغ غزوة . فلم يثالك الصدر ان أجاب السلطان : نعم ولكن اي ثمرة حصلت من هذا النعب والمشقة ، ان لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب ووسط الرمال ، وبقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة . فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضباً فضرب عنق الوزير في الحال ودفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر والشام يونس بن عبدالله التركي الدوادار بالقرب من غزوة فدفن يونس باشا في خان سمي يونس الدوادار وعهد السلطان بالصدارة الى بيبي باشا .

وقال الشرقاوي : ان خير بك لما دفع الى السلطان سليم مفااتيح مصر ردها عليه وولاه عليها الى ان يموت فشاوره على ان ابناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الاجناد فأجازهم بذلك ، وشاوره على ابقاء أوقاف الشراكسة وهي نحو عشرة قراريط من ارض مصر فأجازهم بابقائها على ما كانت عليه ، فتشوش وزيره وقال في مالنا وعساكرنا ، وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها ، فقال السلطان سليم : أين الجلال وكانت احدى رجليه في الركاب فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية في الركاب . وقال : عاهدناهم على انهم ان مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم امراءها ، فهل يجوز لنا ان نخون العهد ونغدر ، واذا ادخلنا أبناءهم في جندنا فهم اولاد مسلمين ويغارون على ديارهم ، وأما اراضيهم فأصلها ملك القائمين ومنهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده ، فهل يجوز ان تنازع الملاك في املاكهم ، وانا أزلت الوزير كراهة ان يغير عليّ اعتقادي بتكرار كلامه اه .

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وأطفه ، وكان شديداً جداً على وزرائه قتل منهم سبعة لاسباب تافهة . وقال القرمانلي : انه خنق أخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفراً وذلك حين توليه الملك وجري عند الاتراك في حكم الامثال قولهم : من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ، لان لقب وزير كان شادة على الموت العاجل . وقال صولاق زاده : في عصر سليم كان الوزراء ابداً عرضةً للنخيمة ثم للقتل بعد شهر من تنصيبهم ، ولذلك اعتادوا ان يحملوا معهم صكوك وصاياهم ، وكما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون انهم عادوا الى

الحياة بعد الموت . وقد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقي بأنه أقسى البشر قلباً لا يحلم
بغير الفتوح والحرب اه . ولم يكن السلطان سليم يراعي من جميع رجاله الا المفتي
الاعظم زينبلي علي افندي ، وكان هذا قولاً بالحق وكثيراً ما كان يرده عن مظالمه ،
ويحول بينه وبين ازهاق النفوس بلا حق ، وقد انقذ بعمله من القتل مئات من
البشر ، وهذا المفتي العظيم تولى مشيخة الاسلام ستاً وعشرين سنة على عهد ثلاثة
سلاطين وهم بايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان الاول .

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار اكثر من ثمان سنين وثمانية اشهر ، ولم يعمل في
الشام الا اثناً عشر عاماً على قدمه في أسلوب الاحكام ، وغنم ما تيسر من ثروة
الماليك وأغنياء البلاد ، وزاد في الضرائب والمكوس ، ونصب حكماً ممن استأمنوا
اليه او خانوا الدولة الاولى وتقرّبوا اليه من أهل البلاد ومن الحكام ، ووضع قيد
الاسر منذ دخل حلب الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن أمير المؤمنين
المستمسك بالله يعقوب آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذ معه لما انصرف الى
الاستانة ، ثم التقى الاختلاف بينه وبين أولاد عمه ابي بكر واحمد . وقال ابن اياس:
ان السلطان سليماً تغير خاطره على الخليفة المتوكل على الله وأرسله الى مكان عسر
بعد سبعة ايام عن الاستانة يقال له السبع قليات . والمظنون انه كان هناك آخر
العهد به فقتله وأشاع بين الملائكة انه مات ، ولا يستكثر ذلك من ملك قتل اباه لاجل
الملك فضلاً عن اخوته وآله . ويقول « نامق كمال » : ان الخليفة العباسي قد تحلى
لال عثمان عن حقه في الخلافة في جامع أياصوفيا علناً .

وروى المؤرخون ان السلطان سليماً كان يريد ان يعمل عملاً نافعاً للامة باسرها .
كان ينوي ان يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية
قبل اتمام هذا العمل الجليل . والغالب انه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر والشام
وخطب له في الحرمين الشريفين فسمي فاتح ممالك العرب ، فرأى ان العرب في
مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وان الترك وهم عنصر الدولة الاصلي لا يشق عليهم
ان يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق والارناؤد والكرد واللاز والشركس
والكرنج . ولو وفق السلطان سليم الى انفاذ هذه الامنية خلصت الدولة العثمانية سيفاً

القرن التالي من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملة العرب عناصر كثيرة مهمة ولا رنقت اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطنًا لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وخرنطرة .

خارجي خان } أصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة غزوات الشمال والشرق
اولاً وثانياً } والجنوب ، اذ أصبحت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من
هذه الوجهة ولكن أصبح أعداؤها في داخلها من نفسها ومن دولتها ذاتها . كانت
البلاد يوم كانت فيها قوى هائلة خاضعة للقوة . وقد فتحت الشام ومصر في الحقيقة
في وقتين مهمتين وما عداهما فنباشات لا يؤبه لها . فلما رحلت القوة وخلا الجو
لجان بردي الغزالي نائب الشام حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه
الا ان يخون سيده الثاني كما خان سيده الاول :

ومن يتعود عادة يجذب لها على الكره منه والعوائد املك

ففاوض بعض امراء لبنان والعربان فوعده ان يماؤه على عمله ، ودعا لنفسه
بالسلطنة في دمشق وبايعه الناس على ذلك طوعاً او كرهاً ، ووافق على عصيانه جميع
العربان ومقدمي الممالك ولقب نفسه بالملك الاشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له
دمشق ثلاثة ايام واوقدت له الشموع على الدكاكين ، وقبل له الامراء الارض وقد
جمع العسكر الكثير ، وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب
والفضة . وارسل الى امير الامراء بمصر ليقوم معه قومة واحدة ويتزع حكم العثمانيين عن
مصر والشام فتمّ عليه للسلطان ، فقام الغزالي وحده مدفوعاً بتنشيط أهل البلاد
والممالك والعربان والاكراد اتباع كل ناعق للنهب والغنيمه ، وكثير الملتفون عليه
حتى تسحب الممالك اليه من مصر وكثروا سواده . وذكروا ان من اجتمع عليه من
الجند كان خمسة عشر الفا من الممالك والتركمان وثمانية آلاف ممن يضربون البنادق .
ولما بلغ قواجه باشا والي حلب موت السلطان سليم كان بعسكره في حيلان فرجع
الى حلب وحصنها واستخدم خلقاً كل انسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال
السلطان شهرين ، واعطى الانكشارية كل واحد الفين والاصهبانية كل واحد الفاً

زيادة على الجامكية ، وخرج الى قرية سرمين وقرية دارينج ونهبهما فخرج اليه في الطريق امير شيزر من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وغنم منه جماعة وجيز رؤوسهم الى دمشق ، ودخل نائب حلب اليها مكسوراً ووصل عسكر الغزالي الى الانصاري وخرج اليه عسكر حلب . فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا في ثمانية آلاف انكشاري عدا من انضم اليه من قوى الاناضول وكانت معهم ثمانية عشر مدفعاً كبيراً .

سار الغزالي الى حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة ولم يقدر عليها لصدق أهلها في قتاله ، ودأبهم الجيش العثماني بما أتاه من المدد فانكسر ، وجاء الى حماة فتبعه العسكر العثماني واقتنلوا معه فيهرب منهم ، وقصد التوجه الى دمشق وخرب في طريقه قناطر الرستن على العاصي فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة عظيمة خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف انسان وقيل أكثر من ذلك ، بينهم عربات ومماليك وجماعة من عوام دمشق وفيهم أطفال وصغار من أهل الضياع وغيرهم ممن حضر الواقعة . قال ابن اياس : وكانت هذه الواقعة تقرب من وقعة تيمورلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع وما أبقوا في ذلك ممكناً وليس الخبر كالعيان . ثم نودي في دمشق بالامان سنة ٩٢٧ وخرب في وقائع الغزالي نحو ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، وأصاب حلب وحماة وحمص من خراب القرى وهلاك الانفس وذهاب الاموال شيء كثير .

وكان الغزالي لما جاء دمشق مهزوماً من الجيش العثماني قتل خمسة آلاف انكشاري كان السلطان سليم جعلهم حامية لدمشق عندما فتحها ، وذلك مخافة ان يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة وقتلهم على بكرة أبيهم شرقتلة . ثم دارت الدائرة عليه وتشتت جيشه فقتله خازن أمواله وجاء برأسه الى القائد التركي ، فذهب ودولته الموهومة لم ينل الشام منه الا الضغط والشدة بعدها :

فما هو الا خائض الوحل كلما تحرك منه ناهضاً راح راسياً

قال المقار : ان الغزالي استولى على دمشق وطرابلس وحمص وحماة وحلب وخطب له الجامع الأموي بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالاشرف ، وان الدولة أرسلت

عليه جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألفاً وأربعة آلاف أنكشاري ومعهم مائة وثمانون عربية ، فالنقى عسكره وعسكرها عند قرية الدوير شرقي قرية برزة ، وتواصل العسكر الرومي وركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر وقطم رأسه ، ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية العسكر الهاربين الى الصالحية ونواحي دمشق وارتجف الناس رجفة عظيمة وقتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ومن كل حارة نحو المائة وكذا من القرى وقيل ان عدد القتلى ٧٠٧٠ ، وهجم العسكر على الصالحية وجميع الحارات والقرى فكسروا الابواب وحواصلها وبوتها ودكاكينها وغير ذلك وأذوا النساء فضلاً عن الرجال فلم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً وكانت النساء قد اجتمعن بجامع الحنابلة ومدرسة ابي عمر وغيرهما فهجموا عليهن وعروهن وأخذوا بعض نساء وجوارٍ وعبيد وصبيان ، وجيز الباشا رأس الغزالي ومعه نحو الف اذن من المقتولين الى السلطان سليمان .

وبعد هذه الواقعة الهائلة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل آياس باشا في دمشق وفرحات بك في طرابلس وقره موسى في غزة . اما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية ومنقدها من الغزالي فقد ضج الناس من شدته وبأسه وتمثيله بالبريء والمجرم على السواء .

طبيعة الدولة } وقد بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في
العثمانية } دولة المماليك يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها ،
ويعرقون اللحم والعظم بعد ذلك لحسابهم ، مثل امير عرب الشام مدح بن ظاهر من
آل جببار وكانت منازل قومه في سليمة وعانة والحديثة والامير نخرالدين المعني الاول
حاكم الشوف والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب وبني شهاب في وادي التيم
وبني الحرفوش في بعلبك وبني ساعد امراء البر وهوران ومجلون وغيرهم في غيرها
وكلهم أشبه بامراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن ، والمقتدر منهم الذي
كان على صلوات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله ، ومن يجعل له وكيلاً
يرجع اليه في اعماله في دار السلطنة ، واذا غضب الوالي على الامير المتغلب يرسل

عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة ٩٣٠ مع امير الشوف ، فيخرب
العسكر قراه ويستصفي امواله ويأسر اهله ورجاله ويسبي نساءه ، فعلوا ذلك مرات
في لبنان والبقاع وبعبك ووادي التيم وغيرها من البلاد وينشأ هذا الغضب من
تأخرهم عن تأدية الخراج . اما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت ان
تحدث عنها .

كان من قواعد الدولة العثمانية اذا فتحت البلاد ان تولي امورها الكبرى لولايتها
وقضايتها والصغرى لابناء البلاد ، وتلقي حبلها على غاربها لاثبتهم لتنظيمها اهتمامها لفتح
بلاد جديدة ، واذ كان الولاة يبتاعون مناصبهم على الاغلب بالمزاد في دار الملك ،
كان المزايدون في الاكثر من الساقطين في اخلاقهم ، لا يتأخرون عن ارتكاب
كل محرم ليسلبوا الرعية ما يمكن فيملاً واخزائنهم وخزائن من حملوهم على رقاب الامة .
وساعد على ايغال العمال في الفساد قلة المواصلات وبعد دار السلطنة عن اكثر الولايات
فبين دمشق والاستانة مثلاً ١١٠٠ كيلومتر و٣٨٦ ساعة من المسافة ، وان قدر
لارباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب وتعذر الاسفار في تلك
الامصار ، لبث شكواهم الى السلطان كان بعض اصحاب الشأن يحولون دون ذلك ،
فكانت ديار الشام كله يستأثر بها وال او واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون
مراقب الا من ذمتها ، فاذا كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس والنحس ، وضياح
الحقوق وفساد النظام .

قال جودت في تاريخه : ان الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة الى دور
الحضارة لم يتخذ رجالها الاسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا اوقاتهم في حفظ
انفسهم وشهواتهم ، يقيمون في العاصمة القصور الفخمة ويفرشونها بانواع الاثاث
والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم ، فاضطروا الى الارتشاء وبيع المناصب بالمال
وتلزييم البلاد واقطاعها بالاثمان الفاحشة ، فضاق ذرع الاهلين ، واضطر كثير من
اهل الذمة ان يهجروا الارض العثمانية الى البلاد الخارجية ، وترك غيرهم القرى
وجاء الاستانة فراراً من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة ، وتلاصقت الدور وتضايقت
انفاس الناس وكثر الحريق والابوثة ، وصعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الفخمة

من الجبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية ، والتجارة ليست من شأن الحكومة اه .

من امثال الترك السمكة نفسد من رأسها، وحقيقة ان فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة ايام كان يقبض فيها على زمام الاحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسلب الناس بكل حيلة ، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم ومصايفهم على ضفاف الخليج والمضيقي في فروق . واذا صادفت العناية ان تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الادارة وقوة الارادة وبعد النظر ، فان رئاسة النظار كثيراً ما تولاهها في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباخون والطبالون والمزنيون والبساننة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي ، او الزنوج الحِصيان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم .

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها اذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو ، فلطالما ولي المشيخة الاسلامية في الترك اغبياء ادنياء في منشايم ومسلكهم ممن ليس لهم من العلم الديني الا قشوره وشارة اهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء احدهم الى المناصب العليا ، فكانت الوالي الذي يحكم الشام على الغالب اشبه بالقاضي . وهذه الطبقة لا تقرب من اهل البلاد الا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد بالطبع . ومثل هؤلاء الرجال اذا كان لهم قوة يستندون اليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه . فان هذا الجيش الذي خدم الدولة لاول امره خدمات جلي وفتحت به الفتوحات ووصلت الى فينا وحاصرتها عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت ودمر كل بلد فتحت .

ولئن خلف السلطان سليماً ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة ٩٢٦ وكان على جانب من العقل وحب القانون ، الا ان الشام اصيحت في ايامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لان السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتي عشرة مرة وخرج في اكثرها ظافراً ، فلا يهمه كماً كثير اجداده واحفاده من كل بلاد مفتوحة الا ان تضرب السكة ونقاء الخطبة باسمه ، فكانت الشام جزءاً

صغيراً بالنسبة لضخامة ملكه ، فلم ينلها منه شيء من العدل والاشراف ينسبها ما لاقته في القرن السالف من التردد والانحلال .

وكان السلطان سليمان بطاشا كآببه ولكن لم يشتهر شهرته ، هاج مرة اهل حلب في اوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاضي والمفتي فصدرت ارادته السنية بقتل جميع اهل حلب لولا ان كان في الصدارة اذ ذاك رجل عاقل اسمه ابراهيم باشا ، فالغى هذا الامر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة . و ابراهيم باشا كان على جانب من الاخلاق الحسنة والذكاء تولى الصدارة من سنة ٩٢٩ — ٩٤٢ اي ١٧ سنة وقام باصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله ، ولا عجب اذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الاكبر مصطفى وحفيده وابنه بايزيد واولاده الخمسة على افطع صورة .

كوائن داخلية } ومن الاحداث في الشام بعد فتنة الغزالي ما وقع في سنة
وامراء المقاطعات } ٩٢٧ من ثورة جماعة من عربان دمشق على نائب الشام
اياس باشا ، فلما خرج اليهم ووقع معهم انكسر وجرح ورد الى دمشق وهو مكسور
وقتل من عساكر الشام كثير ومن عربان جبل نابلس ايضاً ، وكانت فتنة هائلة
بدمشق . وفي سنة ٩٢٨ كان مقتل حسن وحسين اولاد الامير عساف في بيروت ،
وذلك لما كان من الاختلاف بينها وبين اخيها الامير قائد به على الحكم فتوسط
بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على اخيها قائد به فغدر بهما وقتلها فحكم قائد به بلاد
كسروان حتى مات سنة ٩٣٠ وخلفه الامير منصور ابن اخي الامير حسن وامتد حكمه
الى بلاد عكار . وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد اغا شعيب من اهل
عرقه ويستأجر الامير منصور بلاد جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية
والضنية . وفي سنة ٩٣٠ جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف
فانصر عليهم واحرق قرية البساروك وثلاثاً واربعين قرية ، وارسل الى دمشق
اربعة احمال من رؤوسهم فعلمت على القلعة ورجع ومعه مجلدات من كتب الدروز ،
ثم ارسل اربعة احمال من رؤوسهم واحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبي نحو ٣٦٠
من النساء والاطفال وغنم ما لا يحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك .

وفي سنة ٩٣٥ وقع قتال بين اولاد شعيب واولاد سيفنا امير التركان وقتل علي
الشعبي في عرقة وتولى اولاد سيفنا عكار ثم قتلوا محمد اغا شعيب حاكم طرابلس قدام
القاضي فاعطاهم القاضي فتوى بانهم ابرياء من دمه وانه هو الزمهم بذلك . وفي سنة
٩٤٠ وقعت فتنة اهلية في جهات العاقورة وجبة المنيطرة سيفنا لبنان نشأت من خصام
بين مالك اليميني وهاشم المعجمي من مشايخ العاقورة ، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش
امراء بعلبك وآل سيفنا حكام طرابلس ، واخذوا بناء العم يقتلون اولاد عمهم للاستئثار
بالامارة ، وخربت بعض تلك الديار واحرقت ، ومنها ما نزع سكانه عنه . قال
الشهابي : وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفنا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت
العاقورة خراباً سبع سنين لم يقطن فيها احد . ثم ان القيسية سكنوا في بلاد طرابلس
واستحصل اليمينية امراً من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة ٩٥١
توفي الامير نجر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا الى طرابلس وبني
بنايات وقلاعاً عظيمة واستراح الناس في حكمه واطاعته العرب وخلفه ولده الامير قرقماز وبعد
وفاة الامير نجر الدين امتد حكم الامير منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت الى
حدود حمص وحماة وقوي بماله ورجاله .

* * *

مهلك السلطان سليمان } توفي السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤ ولا شأن
وتولي سليم السكندر } للشام في عهده الا ان تظهر شعورها باخبار انتصاراته
وغاراته ، وفتح قلاعه ومعاقله التي كان يملأها بجند الانكشارية و يفرق قوى الدولة ،
ولاجل ان يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقتضي له من
النفقات الباهظة ما نشوء به قوة ابناء البلاد ، وكان اهل الاسلام يودون بعد
تكبير رقعة الملك في آسيا ان تصح ارادة الدولة على فتح فارس وقد بدت امارات الهرم
فيها فننصل بالهند ، وذلك خير من ان تقع الحرج وتجارب امبراطور المانيا وتؤلب عليها
دول اوربا . ذكر ضيا باشا ان الاتراك بددوا شملهم في الحروب والقلاع والبلاد
البعيدة وجعلوا انفسهم في اوربا وراء سور من المرابطين يقلي علمهم وتربيتهم يوماً
فيوماً ، وفيه ام من الخروا تين والبلغار والروم ممن لم يقبلوا الاسلام ، وفي آسيا العرب

والاكراد والزيدية والشيعة الذين نشأوا وكبروا ببذر الفساد الذي بذره الشاه اسمعيل ، فكان الاولون خصماء للاسلام والآخرون خصوم الاتراك ، وما كانت مناداتهم بنصر السلطان الا من الالسن لامن القلوب اه .

خلف السلطان سليمان ابنه السلطان سليم الثاني ، وهذا لم يذكر اسمه في الشام الا على منابرها فقط لانه كان شرباً خميراً حتى لقب بسليم السكير (مست سليم) وله من اعمال الخلاعة ما ينجل منه ، ولم يخرج من الاستانة للغزاة وهو اول ملك من آل عثمان تحلى عن الحرب بنفسه ، ومات على سرير في قصره ، على حين كانت اجداده كلهم يموتون في الحرب وفي طريق الغزو والفتح . وفي ايام السلطان سليم الثاني فتحت قبرص وكانت للبنادقة وهلك واسر من اهلها نحو ثلاثمائة الف انسان في بعض الروايات .

هلك السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢ بعد ان حكم ثمان سنين وستة اشهر وخنقوا اولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة . وفي ايامه جاء امثال محمد باشا الصقلي من الصدور العظام ، الذي تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الاصلاحات ، واهمها الشخانة في العصاة وارباب الدعارة ، وجاء غيره من الرجال الذين يعدهم الاتراك من العظام بحسب عرفهم . ولكن الشام لم تر طلعة هذا الملك كما انها لم تشهد من والده من قبل شيئاً من خطط الاصلاح ولا من القوانين النافعة ، ولا شاهدتهم او وكلاءهم يشرفون على البلاد ليرفعوا الضيم عن الناس ، وفي عهده (٩٨٠) وزع القشلق (اي العساكر المشتية) على بلاد الشام ونهب عسكر الدولة بلاد لبنان وما اليها وسلبوا سائمتها واسرفوا في الظلم ، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها ، وافقرت في لبنان قرى كثيرة وفي الدر المنظوم انه قتل من الموارنة في تلك المعمعة نحو ثلاثين الفا (؟) عدا الذين قتلوا في لياسول من بلاد قبرص حين حاصرها الاتراك سنة ١٥٣٨ م وفتحت ٩٧٨ .

عهد السلطان مراد الثالث] وفي سنة ٩٨٢ تولى الملك السلطان مراد الثالث
وحملات على ارباب الدعارة] فقتل اخوته الاربعة وكانت همته مصروفة الى
توسيع حدود مملكته ايضاً وفي ايامه (٩٩١) وجه عسكراً الى لبنان لحرب الموارنة

وذلك لانه قدمت اليه شكاوى من طائفة الروم القاطنين في سواحل مدينة طرابلس بانهم اخربوا تلك الكور . وفي سنة ٩٩٣ ولى السلطان خسرو باشا ايالة الشام وجاء دمشق وتخاصم مع محمد علي باشا الوند الوالى السابق مدة شهر ، ووقع بينهما الجدال واستقرت الحال على تولية علي باشا وانفصل خسرو باشا ، وكانت مدة ولايته سبعة اشهر فعزل ثم خلفه جامورجى محمد باشا وبقي في الولاية اربعة اشهر ثم خلفه علي باشا مرة ثانية وبقي والياً اربعة اشهر . وفيها سرقت الخزينة السلطانية بينما كانت محمولة من مصر الى الاستانة في جون عكار فوجهت الدولة ابراهيم باشا وضربت على ايدي المعتدين وسار جعفر باشا حاكم طرابلس واحرق بلاد عكار ، وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس ضد الامير محمد بن عساف وضد امراء الدروز بانهم هم الذين سلبوا الخزينة ، فسار اليهم ابراهيم باشا ولما وصل الى عين صوفر حضر اليه عقاب بلاد الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل . ويقول كامل باشا : ان ابراهيم باشا لما جاء من مصر الى الشام كان في عشرين الف جندي ودعا امراء الدروز الى المعسكر فأبى ابن معن ان يجيب الدعوة لان والى دمشق مصطفى باشا كان استدعى اياه وغدر به وقتله فأقسم هو ان لا يجيب دعوة احد من رجال العثمانيين ، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن وقتل الدروز القائد اويس باشا مع خمسمائة من جنده ، وطلب ابراهيم باشا ترحيلة فأرسل اليه ابن معن مئة الف دوكا و٤٨٠ بندقية وخيلاً واشياء ثمينة ، وبعد ان تسلمها الوزير العثماني امر باحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن وأعدم ثلاثمائة من رجاله ، وفي خلال ذلك كان الاسطول العثماني اخرج الى صيدا اربعة آلاف جنسدي وضرب جميع الساحل واخذ ثلاثة آلاف اسير . وقال البوربني : ان ابراهيم باشا لما خرج من مصر خرج باموال عظيمة وتحف كثيرة منها انه جعل للسلطان مراد تحملاً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة ورجع ومعه عساكر مصر ، وجمع عساكر الشام وحاكمها اذ ذاك اويس باشا وكبس جبل الشوف فقتل ونهب وحرق واخذ منهم اموالاً جمّة وحاصرهم محاصرة عظيمة حتى ان اميرهم قرقماز بن معن مات قهراً .

وفي سنة ٩٩٤ اراد جماعة من اقارب الامير علي الحرفوش صاحب بعلبك ان

ينزعوا حكومتها من يد ابي علي الشهير بالاقرع بن قنبر لانه ليس من اولاد الامراء ،
 وحكومة بعلبك موروثه لبني الحرفوش ، فعرف ابن الاقرع ما دبر له فجاءه الفسا
 رجل جمعهم بنوا حرفوش من كسروان والشوف وعين داره وارادوه على ان يخرج
 بعيماله وبمن يلوذ به حيث شاء فابى الاقتالهم ، واستنجد بالامير قرقماز بن الفريخ امير
 بلاد البقاع وبغيره من التركان والعرب فاجابه من طلبه بخرج اليهم ، فلما التقى بهم
 انتصر عليهم وولى الدرروز هار بين فتبعهم اهل بعلبك يقتلونهم ، وقتلوا منهم الفاً وثمانين
 قتيلاً في لحظة واحدة ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحدة — البور بني . قال :
 وكان اصح له ولجماعته طعاماً قبل المعركة فقاتل اعداءه ورجع والطعام لم يبرد وارسلت
 الرؤوس لدمشق لتعرض فيها . ثم قتل الامير علي بن الحرفوش ابن الاقرع وندم على قتله
 واخذت الدولة بعد ذلك الامير علياً الى دمشق بالامان وغدرت به وقتلته وقتلت معه
 عساقاً الكذاب الذي ادعى انه ابن الامير طر باي امير بلاد اللجون .

* * *

بنوعساف وبنو سيفا وابن } وفي سنة ٩٩٩ جمع الامير محمد بن عساف الرجال
 فريخ وخراب البلاد } وسار لطررد يوسف باشا بن سيفا من بلاد عكار
 فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله وكن له في العقبة بين البترون والمسيلحة وقتله
 هناك ولم يكن له ولد فانقطع نسله وكان لبني عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقضت
 دولتهم تلك السنة . ذكر المؤرخون في حوادث سنة ٩٩٩ : ان منصور بن فريخ أعيد
 الى لواء صفد واعطى قرقماز لواء نابلس وصاحبه الدالي على لواء عجلون ، وذلك بالتزام
 مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كورة مائة الف دينار غير ما ينوبها من
 الكلف . وقد خرب ابن فريخ هذا بلاداً كثيرة وقتل خلقاً كثيراً وكان في اول
 امره بدويّاً من خدام ابن الخنث فترقى به الحال الى ان التزم مالا عظيماً على لواء
 صفد ولواء نابلس وامارة الحج وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الباس وشرع
 في عمارة دار عظيمة خارج دمشق واستعمل فيها العملة بالسفرة وقد خنق في قلعة
 دمشق لظلمه وتخريبه البلاد التي استولى عليها خصوصاً بلاد البقاع وبلاد صفد
 وبلاد جبل نابلس .

وفي سنة ١٠٠٠ امر قاضي الشام مصطفى بن سنان بقيام النواب كلهم من المحاكم واغلاق ابوابها كلها فاغلقت ثم اغلقت اسواق البلد كلها ، وسبب ذلك ان الدفتردار محمود ارتشى من ابن الاقرع بخمسة عشر الف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فادى ذلك الى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ، ورحل اكثر اهلها حتى تعطلت الاحكام الشرعية بها وعتما بها ابن الاقرع واتباعه وصادر الناس مصادرة عظيمة ليوفي بها المال الذي التزم به لجهة السلطنة .

وكان المكس في هذه الحقبة حتى على الخمر والتمارات ينقضاءه كل من كان باشا الشام يلتزمه صاحب الشحنة وهو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للبasha ويحرق الاخضرين في جبايته وكان من الولاة في ذلك الدور ببلاد الشام الصالح والطالح مثل سليمان بن قباد باشا الذي تولى نيابة القدس وقطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) وكان ينوع العذاب للسراق وقطاع الطريق .

ومنهم من خلفوا آثاراً مثل خسرو باشا وعادلي محمد باشا و بهرام باشا من ولاة حلب فانهم بنوا مدارس وجوامع فخمة في الشهباء ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي دمشق سنة ٩٨١ خمس سنين وقد مدحه ابن بدير والمقار ووصفه هذا بانة صاحب الخيرات والحسنات وانه عمر تحت القلعة بدمشق الخان والحمام اللذين لانظير لهما واثني ايضاً على مراد باشا الذي تولى دمشق سنة ٩٧٦ وعمر جامعاً في السويقة المحروقة وهو صاحب خيرات وحسنات ايضاً .

وأثنى المؤرخون ايضاً على الامير احمد بن الامير قانصوه الغزاوي الساعدي الذي تولى امانة عجلون وما والاها من بلاد الكرك والشوبك بعد وفاة ابيه الامير قانصوه و باشر الامارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن السلطان سليم وقالوا : انه كان قليل الاذى للرعايا وهو من قوم لهم قدم في الامارة في هاتيك البلاد كانوا في زمن الشراكسة امراءها وكان من اجداده الامير محمد بن ساعد اميراً في جبل عجلون . ومنهم درويش باشا نائب دمشق وصاحب الجامع المنسوب اليه و خان الحرير (٩٨٧) ومن ظلمتهم والي حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل بغير سجل شرعي سفاكاً للدماء على صورة قبجة من تكسير الاطراف والاحراق

بالنار والمحرق حي وغير ذلك منسأولاً للرشي لا نفع له سوى مضرة اللصوص ، ومن سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق تم انشاؤه سنة ٩٩٩ وقد ذكر ابن المقار جريدة مخلفاته التي أرسلت الى الاستانة بعد موته فاذا هي تساوي مئات الالوف من الدنانير لما حوت من الاعلاق والنفائس ، فمن أين لسنان هذا المال ؟ . وقد قال مؤرخو الترك ان الخيرات التي قام بها سنان باشا في ممالك مختلفة من جوامع ومدارس وتكايا وخانات نقدر نفقاتها بمليون ليرة ذهب بسكة زماننا ، وان ما عمره من المعاهد والمباني النخمة في الاقطار التي نزلها نناهر المئة . لاجرم انه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب البلاد ليعمر واجيوبهم وخزائنها . وأعمالهم الخيرية قد تأتي بالعرض او لحب الشهرة . وأقبح بصدقة او عمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من السمحت وقتل الانفس وتخريب البلاد لاستصفاء أموال أهلها .

لا تظلم لتعطي فالشحيح على ما فيه اعذر ممن خان او ظلم

حالة البلاد في حكم الشام في هذه الحقبة من الزمن اي مدة ٧٨ سنة اربعة
الحكم العثماني من ملوك آل عثمان وهم السلطان سليم خان الاول والسلطان سليمان خان القانوني والسلطان سليم خان الثاني والسلطان مراد خان الثالث ، وبقيت روح الدولة في البلاد واحدة لم تتغير . ولئن جاء فيهم واضع القوانين السلطان سليمان القانوني وطال عهده على ما لم يقع له مثال في تاريخ هذه الدولة ، وكان معروفاً يجب القوانين في الجملة وضع بعضها حتى أطلق عليه اسم القانوني ، فان الشام كانت حاله بعد الفتح العثماني تنتقل من سبيء الى اسوا والوالي او الولاة في هذه الديار هم الكل في الكل ويكونون على الاغلب ممن لا ذم لهم ولا قدرة الا على جلب المغنم لانفسهم وازهاق الارواح في ذلك العصر من الامور الهينة التي لا تستغرب .

بعد الفتح العثماني واندجار المالميك في مرج دابق والضرب على أيدي العصاة في فلسطين ، كان الرجاء معقوداً ان تخلد البلاد الى الراحة ويرفرف عليها طير السعد والرغد ، فزادت المكوس والضرائب على وجه قاس ، وكثير فساد جيش الدولة من

الانكشارية والسباهية ، فكان يأتي على الاخضر واليابس في المدن والقرى ، خصوصاً اذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتي فيها ، وهناك يزيد الاعتداء على بيوت الناس وأموالهم وأعراضهم ، وربما تخطفوا النساء والاولاد في الازفة رابعة النهار ، وفي اول حكم السلطان سليمان اي بعد اربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الابرياء في دمشق وحلب ، وارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتن والضرب على يد الثائر من الشدة ما ضاقت به الارض بما رحبت .

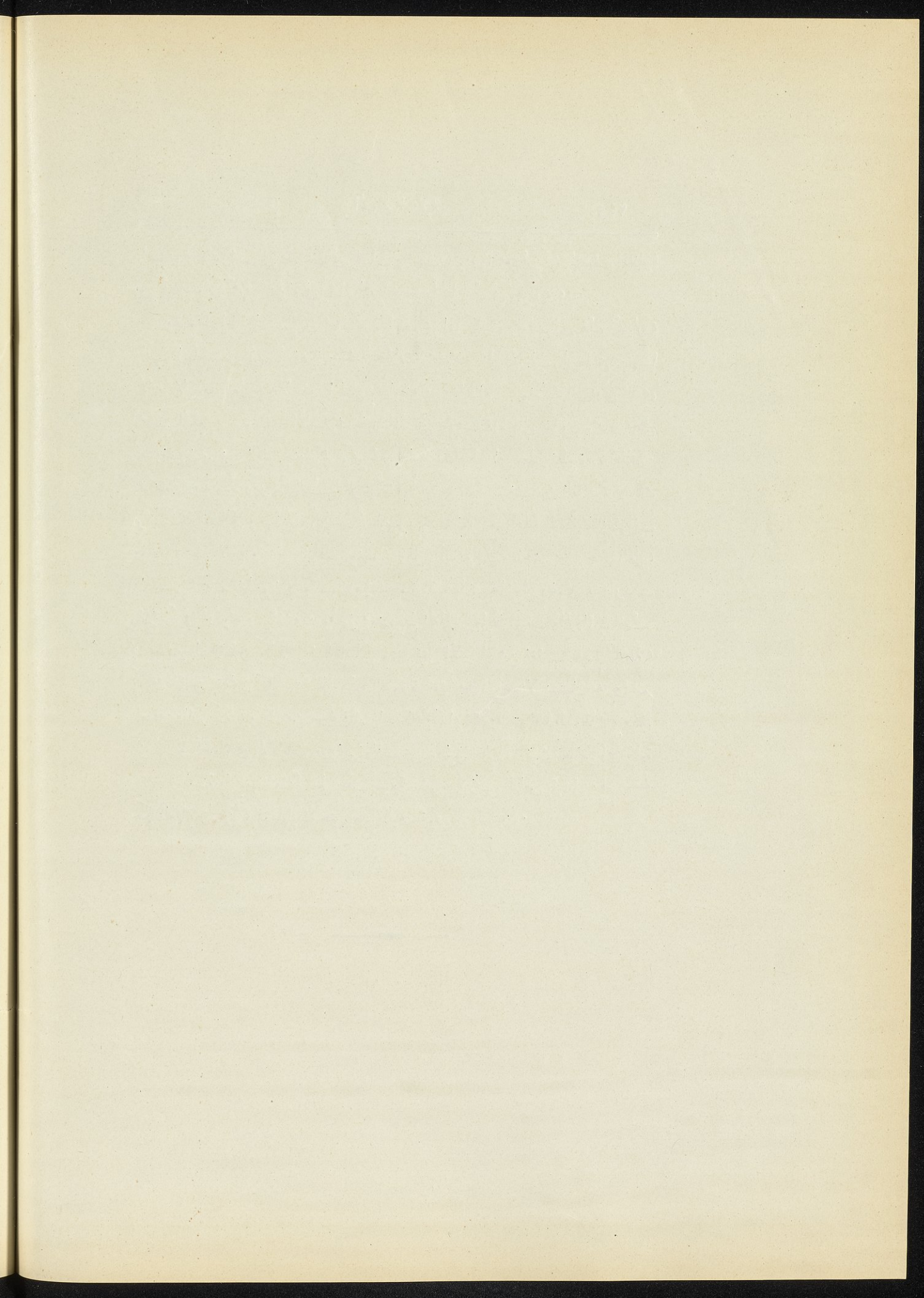
ويمكن حصر مصائب هذا الدور في مصادر ثلاثة ، وهي ظلم الوالي اذا كان عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها ، في الجبال والسهول وكبار ارباب النفوذ في المدن . وهذه الطبقة تطورت تطوراً جديداً في عهد العثمانيين فكانت من اكبر الاسباب في فساد البلاد ، ولو صلحت وسلمت من ظلم بعضها بعضاً لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي ان يعملوا مباشرة في هذا القطر عملاً مضرراً . واهم من هذا وذلك ان الدولة العثمانية على عهد عزها لم تفكر الا في الفتوح وفي حرب من يجاورها من صغار الامراء والملوك حتى اذا كانت ايام إدارها وهي تبدأ من اواخر سلطنة سليمان القانوني ، كانت هممتها مصروفة الى قمع الفتن الاهلية ، ورد عادية اعدائها عن بلادها الواسعة .

ان ابن الشام لا يهتم كثيراً اذا بلغت جيوش الدولة العثمانية اواسط اوربا في فتوحها وفتح فينا وبودابست ، واذا فتح السلطان سليمان زهاء ثلاثمائة حصن وقلعة ، واصبح اسمه في الغرب مضرب الامثال في الرهبة ، فكانت بعض الامهات يخوفن ابناهن باسمه اذا أرادوهن على الرقود والكف عن البكاء . ولا يهتم ابن الشام ايضاً اذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغارم ، ما دامت طرق الجباية في بلاده مختلفة منهكة لقواه ، وما دام الولاة يسنون لان يأخذوا المكوس لانفسهم من الخانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفي حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل اليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان والايحار ، وما دام الامن مخمل النظام وأهل البادية

ولصوص الاعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعذر ان ينصف المظلوم من الظالم وان تعمل الدولة في باب العمران جزءاً مما تأتي في تحريمه .

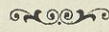
وضع السلطان سليمان قوانينه وما ندرى اذا كانت وصلت الى هذه الديار ، وهب انها انتمت اليها فهي في السجلات محفوظة على الاعراب لم يطبق منها الا ما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل بمضامينه . وما دام القانون السماوي الذي عملت الشام به منذ الفتح الاسلامي غير نافذ على ما يجب فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم وهو غير مطبق المفاصل او يتعذر تطبيقه وانفاذه .

بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسيمات وأخذت تلبى الشغب بين العلماء ، وذلك برتب اخترعتها لهم وجرايات أدرتها عليهم ، فزادت لاجل هذه النفقات الضرائب والخراج على الامة وكثر التنافس بينهم ، وقلّ القوالون بالحق من رجال العلم ، وانشأ معظمهم يدلسون ويوالسون ويتمدحون السلطان مهاضلاً وغوى ، وارتكب اغلاطاً في ادارته وسياسته . وسهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب والرواتب ان يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الابرياء ممن تغضب عليهم الدولة ، وكان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عدداً من الناس لا يستهان به وفيهم العاقل والدرأكة ، وكل من في قتله راحة للدولة او مصلحة يتوهمها السلطان وبعض الزبانية الطغاة في الولايات . وقد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر ابي مدة ٧٨ — خمسة واربعون والياً وعلى حلب سبعة عشر ولم يحس الناس بتبديل نافع في حكم العثمانيين عن عهد المماليك حتى بعد ثمانية عقود من السنين .



العهد العثماني

من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠



عهد محمد الثالث وامراء
الاقطاعات وفتن } دخل القرن الجديد والبلاد في حالة شدة تسير من
بؤس الى بؤس ، وتعاقب تبدل الولاة على الشام
والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول ، واكثرهم يقيمون فيها اشيراً ثم يصرفون
ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم اياماً ومنهم سبعة ايام ومنهم ثلاثة ، وتعاقب
على دمشق خلال هذا القرن واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة واربعون والياً ،
فكان الوالي من ثم لا يتمكن من الاصلاح ان اراده وقلبه متعلق ابداً بثبات منصبه
والغالب انه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعة ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة
الاستانة من الاموال وكان الولاة يتساعون الولاية ابتغاءاً والمزايد الاكبر هو الذي
توسد اليه قال راسم في تاريخه : امر السلطان مراد ان يكتب الى احمد باشا
كوجك والي الشام بان يدفع الى السلحدار باشا عشرين الف ليرة و يبقى في منصبه
فاضطر الوالي ان يؤدي المبلغ .

ومن اهم ادوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد
الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الرعية ، يستطيون على اموالها واعراضها ويثلمون
شرفها وينزلون اعزتها ، وهم القوة القاهرة في البلاد لا ينالهم من الناس اذى وكل
اذا هم لاحق بالكبير والصغير . وكثيراً ما حاول الولاة ان يخففوا من غلوائهم ليستأثروا
بالقوة دونهم او يرفعوا عن عاتق الامة التبعة بعض شرورهم ، فيسفر قتالهم عن زيادة

ايصال الشرور الى رؤوس الناس على ما يأتي تفصيله في هذا الفصل المغموسة
حوادثه بالدماء .

كان المتغلبون على اكثر البر في اوائل القرن ، الامير شديد بن الامير احمد حاكم
العرب من آل جبار وكان كلقبه واسمه ظالماً جباراً عنيداً . قال كاتب جلبي : وما
زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لامراء العرب وامراءهم هم عرب آل جبار وهم
قبيلتان آل حمد وآل محمد يمتد حكمهم الى جهات حلب والرقه . وكان الامير قرقرماز
المعني في لبنان ، والامير احمد بن رضوان في غزة بعد الامير قانصوه امير عجلون
وما والاها من بلاد الكرك ، والامراء بنو الحرفوش في بعلبك ، والامراء بنو شهاب
في وادي التيم والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في نابلس ، والامير
منصور بن فريخ البدوي على البقاع تغلب عليه بعد ابن الحنش وحكم نابلس وصدف
وعجلون والنجاز اليه جماعة من جند دمشق واشتهر واخاف الدروز ثم شن الغارة وقتل
منهم مقلنة عظيمة وقد خرب بلاداً كثيرة وقتل خلقاً حتى اخذه وزير دمشق وقتله
سنة ١٠٠٢ . قال البوريني في سنة ١٠٠٢ ذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس
النفيسة والاموال العظيمة ، حاصرها والي دمشق ونازل قلعتي الشقيف وقلعة بانياس ،
وكانتا مغلقتين على جماعة ابن معن من السكبان وغيرهم من الاشقياء .

وفي سنة ١٠٠٣ توفي السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه محمد خان الثالث فقتل
يوم جلوسه تسعة عشر اخاه وعشر جوار حاملات من ابيه ثم ابنين له وكان مع
ذلك على رواية المحيي صالحاً عابداً ساعياً في اقامة الشعائر الدينية واوصافه كلها حسنة
وهو مظفر في وقائمه عالي الهمة . لم ينل الشام شي من تدين محمد الثالث وطالبت
الحكومة الاهلين باموال سننين فلقوا شدة وعنناً .

ذكر المقدسي في حوادث سنة ١٠٠٤ انه جاء ساع من الباب العالي بأمر بان
يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء واولاد المكاتب في الجامع الأموي ، ويقرأوا
القرآن ويدعوا لعمساكر الاسلام بالنصر ، وما اعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم
المدكورين وطلب الدعاء منهم ، فليت شعري باي لسان يدعون وقد اشتهر انهم
يطالبون الرعايا بعوارض سننين جديدة وعتيقة وطلبوا اليهود بمال عظيم اه .

وقال أيضاً في حوادث سنة ١٠٠٥ انه اسنقر في دمشق كيوان بك باشي (رئيس سرية) منشي الظلم بالشام سرداراً (قائداً) بباب صاحب الشحنة ، فشرع يصادر الناس ويسلبهم باطناً وظاهراً ، وكثرت القتل في ازقة دمشق والطرق والاسواق ، وكان الانسان يمشي فلا يسمع الا من يقول غرموني اربعين قرشاً ومن يقول سبعين قرشاً وثلاثين وعشرين واكثر واقل . واصطلم الناس من كثرة الظلم وبقي من يخشى الفضيحة يحمل الجريمة الى كيوان المذكور قبل ان يرسل اليه . هذا ما كان يجري في عاصمة الشام على مرأى ومسمع من القريب والغريب ، فما بالك بما كان يجري في انحاء البلاد حيث نقل المراقبة وتضعف قوة المقاومة ، ولكن تهيأ لاخبارها هنا من دونها او بعضها حتى وصلت اليها وهناك ضاعت اخبارها كما ضاع كثير من الكوائن في هذه الديار على عهدها الحديث . وظهر في ايام احمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥-١٠٠٨) فساد كثير من العربات في انحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقننوا فانهزم عسكر حلب مع انهم كانوا الف فارس واخذ عرار امير العرب يتبعهم ويقتل منهم ويغير .

وفي سنة ١٠٠٧ كانت الواقعة في نهر الكلب بين ابن معن وابن سيفا بسبب بلاد كسروان فانكسر ابن سيفا وقتل ابن اخيه علي وتشتت جيوشه وتولى الامر نجر الدين المعني على بلاد كسروان وبيروت . ويوسف باشا سيفا كردي الاصل استولى على جهات طرابلس لما اهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركاني ، واستقل بها واخرج بواسطة عسكر السكك بان جند الانكشارية من بلاده ونكل بهم وصار له بذلك نفوذ وسلطان .

وقال نعيماً في حوادث سنة ١٠٠٨ ان عسكر الانكشارية في دمشق جاؤا حلب بحجة جباية اموال الدولة ، وتسلطوا على فقرائها وعملتها وتجاوزوا الحدود في الاعتداء ، واساءوا استعمال سلطنتهم في الرعية ، فقطع والي حلب رأس سبعة عشر رجلاً منهم ، ودام الشقاق بين الاهالي والانكشارية مدة طويلة ادى الى سفك دماء كثيرة بغير حق اه . ومن ذلك اعتداء خداويردي سردار حلب على الناس وفتكه ونهبه وتعديه حتى سخر منه اهاليها وحكامها حين قامت الحرب بينه وبين نصوص باشا وبينه وبين

ابن جانبولاذ ، وكان هو واحفاده قد عاثوا في البلاد وفننوها ومنه نشأ طغيات
العسكر الشامي .

ومن فتن هذه الايام خروج عبد الحلیم اليازجي رأس جماعة الامير درويش
الرومي حاكم صفد ، وارسال خسرو باشا نائب الشام عسكرياً الى الامير درويش
ليسلم الولاية الى آخره ، فقاتل عبد الحلیم اليازجي عن مخدمه بالسيف فاخذ الامير
درويش الى دمشق وصلب بامر السلطان . اما عبد الحلیم وجماعة درويش فساروا
على ساحل البحر الى طرابلس ثم الى جانب حلب ثم دخلوا مدينة كاز فتنبه لهم نائب
حلب وارسل جيشاً لمحاربتهم ، فقتلوا من اصحاب عبد الحلیم مقللة عظيمة ، وخرج
عبد الحلیم بمن بقي معه من اصحابه المفلولين ، وما زال يحارب جيوش السلطنة في
الاناضول حتى هلك سنة ١٠١٠

وفي سنة ١٠١١ باغت الامير يونس بن الحرفوش جبة بشري ، فلما بلغ ذلك
ذلك يوسف باشا بن سيف جمع السكبان الذين عنده واهل البلاد وهاجم مدينة بعلبك
فاجتمع بيت الحرفوش في القلعة ، ونهب بنو سيف بلاد بعلبك وحاصروا قلعة حدث
بعلبك خمسين يوماً وملكوها وبعدان قتلوا بعضهم ثم نادوا بالامان . وفي سنة ١٠١٤ كانت
وقعة جونية بين يوسف باشا سيفاً وبين الامير نحر الدين المعني فانكسر عسكر ابن سيفاً .

عهد احمد الاول وفتنة } وفي سنة ١٠١٢ توفي السلطان محمد الثالث وخلفه
ابن جانبولاذ وغيرها } السلطان احمد الاول ولم يتغير شيء من حالة البلاد
وغاية الامر ان الخوارج في ايام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الامة
منهم كل حيف ودخلت في هرج ومرج من ذلك ، وفي ايامه ظهرت الخوارج
في جهات حلب وما زالت الامور في تحبط حتى خرج جانبلاط وادعى السلطنة واضطربت
الاحوال على ما سيبي . قال القرماني : وفي ايام هذا السلطان قام الطغاة والبغاة ،
وانحلت من الوجود امهات الامصار وشملها البوار ، اما القرى والقصبات والرساتيق
والمزروعات فاكثرت من ان تحصر .

قال العرضي : كان من قديم الزمان في دولة بني عثمان يرسلون شردمة من عساكر

دمشق وعليهم شور بجي بمجالات اموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع ويخدمون عند الدفتردار وفي دار الوكالة وفي باب القنصل الفرنجي وفي كل مدة يرسلون غيرهم وعليهم شور بجي ، حتى قطن بحلب اعداد كثيرة منهم واتسعت اموالهم وكبر جاههم ، واستولوا على اغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطنة عن القرية يأخذون من اهلها أضعافاً مضاعفة ، وتبقى أهل القرية جميعاً خدمة لهم جميع ما يجمعونه لغيرهم لا لانفسهم .

ومن الكوائن ان خارجياً من السكبانية اسمه رستم جاء الى كلز ومعه من البغاة أجناد كثيرة ، وكان ضابط كلز عزيز كتحدا من جماعة حسين باشا بن جانبولاذ الكردي امير الامراء يحلب ، فبعث واستنجد بعسكر حلب ومنهم العسكر الجديد نخرجوا لتصرته ، فنقابلت الاجناد وقامت بينهم سوق الحرب والضرب فانصر رستم على عسكر كلز وحلب وقتل عزيز كتحدا وقتل من العسكرين كثير وولوا منهزمين فنهب الخارجي كلز وصادر اعيان القرى .

ولما ولي نصوح باشا نيابة حلب - وكان متغلباً في حكمه عسوفاً قوي النفس شديد البأس كما قال المحبي - كان لجند دمشق اي الانكشارية الغلبة والعتو فيذهب منهم في كل سنة طائفة الى حلب وينصب عليهم قائد من كبارهم وكان بعض كبار الجند قد نقوا في حلب وفتكوا وجاروا خصوصاً طواغيتهم خدا ويردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي وأمثالهم ، حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كباراًؤها ، واستولوا على اكثر قراها ، فلما رأى نصوح باشا ما فعلوه بحيث قلت اموال السلطنة ، وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم رفع أيديهم عن قراها ، وجلاهم عن تلك البلاد ووقعت بينه وبينهم فتنه بل فتن وعجز عن اخراجهم فاستعان بحسين بن جانبولاذ فبعث هذا ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم ، فاستولى نصوح باشا على قلعة حلب ووضع متاريس تحتها واستعد للقتال ، فأخذ العسكر الدمشقي باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا جموعهم ، وهم لا يعلمون ان حسين باشا جانبولاذ بعث عسكره ، ودخل الامير علي في اليوم التالي بالعساكر المتكاثفة فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب فوقع بينهم حرب فانهمز الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير . ثم خرج

نصوح باشا في عسكره الى كلز فقابل حسين باشا بعسكره والنقت الفئنان فانكسر
نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً وأخذ في جمع الاجناد وبذل
الاموال لتكثير العدد والاعتاد . وبينما هو على ذلك جاء الامر بان حسين باشا عين
كافلاً للمالك الحلبية وعزل نصوح باشا ، فلبس نصوح باشا جلد الثمر وامنع من
تسليم حلب لحسين باشا ، وأقبلت بعد اسبوع عساكر الوالي الجديد حسين باشا الى
قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب ثانياً فانكسر ايضاً ، ونزل حسين باشا
بعساكره في احياء حلب خارج السور وأغلق نصوح باشا أبواب المدينة وسدها
بالاحجار ، وفتح باب قنسرين وحرسه ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ومنع الميرة
والطعام عن المدينة ، ونصب نصوح باشا المتاريس على الاسوار وصف عسكره عليها
مع الكاحل ، وقامت بين الوالدين حرب شعواء ، وأخذ حسين باشا في حفر اللغوم
والاحتتيال على اخذ البلدة ، وانشأ نصوح باشا يحفر السرايب لدفع اللغوم ، وعم
الحلبين البلاء من المبيت على الاسوار وحفر السرايب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء
كل يوم وليلة لطعام عسكر السكبان وعولفاتهم ، وأغلق الدكاكين وتعطلت
الصناعات ، وحرقت الاخشاب للطعام والقهوة ، واشتد غلاء الحاجيات وعدم القوت
للحيوان والانسان ، واستمر الحصار نحو أربعة أشهر واياماً ، ثم تصالح نصوح باشا
وحسين باشا فخرج الاول واستولى حسين باشا على الديار الحلبية ، وشحنها بالسكبان
وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان .

ولما قتل حسين باشا خرج ابن اخيه الامير علي عن طاعة السلطنة ، وجمع جمعاً
عظيماً من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومنع المال
المرتب عليه وقتل ونهب في تلك الاطراف ، الى ان تعهد الامير يوسف بن سيفا
صاحب عكار للسلطنة بازالة الامير علي عن حلب فجمع له الجند من دمشق وطرابلس
والنقى بابتان جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيفا ، فاستولى
ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر دمشق ، وبعث ابن جانبولاذ فاستولى على
طرابلس ، واستخرج الاموال من أهلها وأخذ دفائن كثيرة لهم ، ولم يستطع فتح قلعتها
ثم سار مع حليفه ابن معن صاحب لبنان وكان هو وابن شهاب صاحب وادي التيم

وابن الحرفوش صاحب بعلبك خرب بعلبك وأحرق قراها ، وخرب ابن جانبولاذ البقاع ووصل الى دمشق ، واقتتل ابن جانبولاذ مع العسكر الشامي فانقل العسكر الدمشقي ، وأرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق ، واستمر النهب في أطرافها ثلاثة ايام ، ثم سار الى حلب وجاءته الرسل من السلطنة نقيح عليه فعله في دمشق ، فكان تارة ينكر فعلته ، وطوراً يحيل الامر على عسكر دمشق ، ويشرع بسد الطرق ويقتل من يعرف انه سائر الى أطراف السلطنة لابلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنة الى نواحي غزة ، وصاهر ابن سيفا فامثل هذا امره ، وانقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنين ، وكان ابن سيفا بعد ان غلبه ابن جانبولاذ على دمشق ونهب ولايته التجأ الى الامير احمد بن الامير طرباي بن الامير علي الحارثي امير لواء اللجون .

وقال القرمانلي : ان ابن جانبولاذ لما ولي حلب جمع كل شقي من القبائل والعشائر ، ليأخذ تأره من جماعة الانكشارية فاللقوه في مدينة حماة ومعهم محمد باشا الطواشي نائب الشام وعمامة الجيوش من السكامة ، فانهمزم عسكر الدولة واستمر ابن جانبولاذ في أثرهم الى حدود دمشق فاستقبله الامير نحر الدين بن معن بن معه من الدروز وطائفة السكمانية ، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم .

ولما حدث ما حدث في البلاد من الفتن والغوائل عهد السلطان الى مراد باشا ان يعيد الشام الى حكم الدولة اذ قد ثبت انه خرج عن حكمه ، فجاء في عشرين الف فارس وعشرين الف راجل وقيل في اكثر من ذلك ، فبرز اليه ابن جانبولاذ في أربعين الفاً فغلب ابن جانبولاذ وهرب الى الاستانة وأقنع السلطان بحسن حاله ، وجاء مراد باشا بعد ان كسر ابن جانبولاذ في سهل الروج قرب المعرة وقتل من جماعته احد وعشرين الفاً وتسلم قلعتها بالامان ، وبالغ في قطع شأفة الاشقياء والسكبانية . وكان علي باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب ورفع اليها عياله واسبابه وولى عليها اظلي طوماش باشا وأمره بحفظها لمدة ثلاثة اشهر ريثما يرجع اليه بالنجدة من سلطان العجم ، ثم تجهز للسفر وحال خروجه من اراضي حلب وصل مراد باشا الوزير ومعه احمد باشا حافظ الشام ويوسف باشا ابن سيفا

وشددوا الحصار على حلب وافتحوها ، بعد ان نصب مراد باشا المنجنيقات على قلعتها ،
ووعدهم طوماش بالنيابة على حلب فاطمان وسلم القلعة ثم قبض عليه وقتله وضبط
القلعة ، وباع عيال علي باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشاً ، ثم
وقعت المناداة على المحافظين وكان عددهم فيما قيل نحو ثمانين الفاً ، فقتلهم في اماكن
مختلفة واتوا برؤوسهم الى الوزير ولم ينج منهم الا القليل ، وكان الرجل يقتل العشرة
منهم ، ومهد الوزير امور حلب وخدمته جميع امراء العرب . وقالوا ان الامير
نجر الدين المعني فرّ الى البادية . في جماعة الدرروز والعربان بعد تلك الوقائع : لانه
أعان الخوارج على السلطنة . وللقيم محفوظ الدمشقي مرتجلاً ومؤرخاً واقعة دخول
السكبانية مع ابن جانبولاذ الى دمشق في اوائل سنة ست عشرة بعد الالف نقلها
في التذكرة الكمالية .

دخول الشام جيوش	كجمال قد رغوا
كل كردي غبي	بهم الناس لغوا
ودرروز ولثام	لقال ما صفوا
نهبوا الشام وآذوا	وعلى الناس بغوا
نهبوها في جمادى	أحشوا أرخ طفوا

(١٠١٦)

ولم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق وحلب بل نساوت بعلبك والبقاع
وطرابلس وغيرها من البلاد . قال النجم الغزي : ان كافلي الشام وطرابلس دخلا
على أهل حماة وحمص وأمر اهلها باخلاء المدينين وكان ابن جانبولاذ في أثرها ،
فدخل هو وعساكره حماة وحمص ونهبوهما ونهبوا قراهما ، وانفق كيوان رئيس
سرية دمشق مع ابن معن على العصيان وعلى مساعدة ابن جانبولاذ ، فذهب اليه واجتمعا
به في الجوف بالقرب من نهر البارد من معاملة طرابلس ، فاستولوا على بلاد حماة
وحمص وعكار وجبلة واللاذقية والحصن وطرابلس وغزير وبيروت ، ثم اجتمع ابن
جانبولاذ وابن معن وكيوان وحاصروا دمشق على ما تقدم قال : وكان الامر مهولاً
واجتمع أكثر الناس بدمشق .

وقال ابن المقار في حوادث ١٠١٦ : انه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم
السيمانية تناول ضررهم البلاد والعباد ، وأظهروا في الارض أنواع الفساد ، وحدث
بين امراء الشام حروب وفتن عظيمة عم فيها النهب وخربت اكثر البلاد .
ومن الاحداث في تلك الايام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة ١٠١٦ من
ان الجند المشتي « وقيشلق » السلطاني نفرق على البلدان من حلب الي بلاد الشوف ،
وكان عدده نحو اربع كرات وانكرة مئة الف . كذا قالوا وهو عدد مبالغ فيه جداً ،
وما نخال عدده بلغ الاربعين الفاً ، قالوا : وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن
الضرائب التي كانت على الضياع والاديار . ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا
كفالة دمشق وكان يتولاها سنة ١٠١٧ ان فرقة من عرب آل جبار المعروفين باولاد
ابي ريشه نفروا من العراق فوصلوا الي تدمر ، وانضم اليهم قوم من طائفة السكبانية
الذين هربوا من وقعة الامير علي بن جانبولاذ . فعاثوا في تلك البلاد وقطعوا الطريق ،
ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن
قلندر والاسود سعيد ، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان
وهرب منهم جمع ، ومن جملة الهاربين الجماعة المذكورون وكانوا نحو اربعمائة سكباني ،
فلما انضموا الي العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق والعرب يضربون
بالرمح والسيوف ، واخذوا قلعة القسطل وقلعة القطيفة ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها
من الرجال والنساء . فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا
ومعه العسكر الدمشقي ، وانضم اليهم عرب المفارجة وكبيرهم عمرو بن جبير فادركوا
العرب والسكبان في نواحي قلعة القطرانة ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمائة رجل
وامسكوا منهم نحو خمسين رجلاً ، ودخلوا بهم الي دمشق على متون الجمال وعلى كتف
كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني اتلفوهم وفرقوا
اجسادهم على احياء دمشق .

الامير نغور الدين المعني } تخوفت الدولة من الامير نغور الدين المعني الثاني
وآل شهاب وفتن } لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في اصقاع الشام ،

فارسلت عليه في سنة ١٠٢٠ الحافظ احمد باشا كافل دمشق في جيوش دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وامراء الاكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين الفا ، وحاصر ابن معن تسعة اشهر فلم يقدر ان يأخذ قلعة من القلاع ، فلما اعيتته الحيلة ارسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول : أنا مالي عندكم غرض بل ان للوزير الاعظم شأناً مع الامير فقولوا له ان ينزل الى خيامنا وعليه امان الله وتأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونقره في اماكنه فقالوا : الامير ذهب في المركب الى بلاد الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول ام نحر الدين فقالت : نحن ما ضبطنا بلداً بغير اذن السلطان ، ولا انكسر عندنا مال ، فعند ذلك اعطت السلطان مائة الف قرش واعطت الوزير خمسين الفا والحافظ احمد باشا مثلها وانفصل الامر على ذلك .

هرب الامير نحر الدين الى ايطاليا تاركاً الحكم في لبنان وما اليه لابنه الامير علي واقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها الى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة ، واطلع على طرف من المدينة الاوربية ثم عاد الى بلاده بعد مهلك خصمه والي دمشق فاستلم زمام الاحكام ولا سيما المسائل الحربية ، بقوة اعظم وتدبير احكم ، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية كما صرح كثير من المؤرخين ، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة ، واخذ يحصن بلاده ويكثر الصلوات الحسنة مع الفرنج ولا سيما مع الطليان ، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع اصحاب طسقانه كأنه مالك مستقل ، فخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصياً قوي الشكينة ، واخذت تحاذره وتتنظر اليه نظرها لعاص عارف بمقاتلتها ، وانه لا بد له يوماً ان يقلب لها ظهير المجن ويسنقل كل الاستقلال عنها ببلاد الشام ، اذ بلغ اتباعه الى نحو مائة الف من الدرروز والسكبان ولم يستول فقط على الشوف وجبل عاملة بل تعداهما الى عجلون والجولان وحوران وتدمر والحصن والمرقب وسلمية ، وسرى حكمه من صفد الى انطاكية وملك نحو ثلاثين حصناً مثل صفد ونيجا وشقيف تيرون وعجلون وقب اليباس وبعلبك والمرقب والبترون .

وفي سنة ١٠٢١ خرج احمد باشا بالعساكر من دمشق الى وادي التيم ونزل في

خان حاصبيا وهرب بيت شهاب اصحاب وادي التيم منها فهدم دورهم واتفق املاكهم ونهب حاصبيا (١٠٢٢) وفي سنة ١٠٢٣ خرج الحافظ احمد باشا من دمشق الى قب الياس واجتمع اليه حكام صفد وصيدا وبيروت وغزة وحماة وعشائرهم وامراء الغرب وبعليك ووادي التيم ، فوقع بين اهل الجرد والغرب والمتن واهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه اهل الغرب والجرد والمتن وعسكر الدولة كسرة عظيمة ، فاحرق احمد باشا قصر بيت معن في دير القهر وكان رئيسهم اذ ذاك الامير يونس وقرية عبيه . ثم جرت وقعة بين جماعته وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة احمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل واكثرهم من السكبان وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين الفا ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف اغا من ان يتسلم حصن الشقيف وحصن ارنون الى ان يخرج منها اولاد معن اولاد العرب وبتصرف بها الاتراك تمام التصرف فشق ذلك على الامير يونس واخذ في هدمها ، ولما انتهى الخبر الى الوزير فرح جداً وامر بنحرا بها ولبث المسلمون في تحربها اربعين يوماً . وجرت (١٠٢٥) وقائع بين اولاد ابن معن واصحاب المقاطعات في لبنان وحرقت الشوف والجرد والغرب والمتن وهلك كثيرون وكانت النصرمة للقيسية خربت بيت معن وكان بنو نيوخ امراء الغرب منذ سنة ٥٤٢ ميلون الى بني معن ، فلما حاربتهم الدولة انتهز علي بن علم الدين اليميني والي الشوف الفرصة وقبض على اعيان المعنيين وقتلهم واستصفي اموالهم ، ثم سار الى قرية عبيه فدعاها الامراء النيوخيون الى مأدبة في سرايتهم فاغتالهم وقتلهم كلهم صغاراً وكباراً فانقرض النيوخيون بموتهم .

* * *

عهد مصطفى الاول } وفي سنة ١٠٢٦ توفي السلطان احمد الاول وخلفه
وعثمان الثاني } السلطان مصطفى الاول المعروف بالابله فلعل بعد
ثلاثة اشهر وخلفه السلطان عثمان الثاني ولم يجر في ايامه ما يستحق ان يدون في الشام
الاهم الا ما كان من حرب بين ابن معن وابن سيفا (١٠٢٨) فخرت ابن معن قرية عكار
وسرايا بيت سيفا في طرابلس وخرت هذه كما خرب قلعة جبيل . ثم عاد السلطان
مصطفى الاول سنة ١٠٣١ فتولى الملك اربعة عشر شهراً وخلع بعدما اذ لم يعد في

الامكان ستر نقصه الذي كان يتولاه العلماء ليحكوا باسمه فأبرزوه في صورة ولي من الاولياء وما هو الا ابله من البلاء . فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضياً عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين وارباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، واصبحت البلاد بلا راعٍ خصوصاً بعد الضعف الذي ظهر من الدولة في العقد الثاني من هذا القرن في فتنه ابن جانبولاذ وحصار الدولة لحصون ابن معن ، وتجلي لاذكيا المتغلبة موقف الدولة معهم ، فأصبحوا يزدادون في ارهاق الرعيه بالظلم ، والولاة الكبار ليسوا دونهم في العنت والتخريب والقتل والنهب .

وكان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوماً غشوماً اخذ اموالاً كثيرة من كل قرية من غير سبب ، وقضى ان لا يتباع البضائع كلها الا لمن عينه من جماعته ثم تباع من السوق بعد ذلك ، فكان ظلمه مزدوجاً على المدني والقروي ، وفي هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة وفي السنة التالية (١٠٣٢) خرب الامير نجر الدين ابن معن كرك نوح وسرعين نكاية ببني الحرفوش .

عداء على الفرنج } وبيننا كان ابن معن يهيء السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم
وفتن داخلية } مع اهل الساحل ويكثر سوادهم في مدنها ولا سيما في
موانئها ويرخص لهم بتأسيس قنصليات ويدخل رجال الدين في ايامه الى لبنان ،
ارتكب ابن سيفا حاكم طرابلس سنة ١٠٣٢ امراً عظيماً نقر الفرنج من غشيان
المواني لاستبضاع القطن والحبوب ، فضبط مركبين فرنساوين كان معها ثمانون
الف قرش لا يتباع بضائع ، فأرسل ابن سيفا وامسك ولدين صغيرين من المراكب
وعلمها ان يقولوا ان المركبين للقرصان ، وانها اخذا في طريقهما مركب تجارة
للمسلمين ، وزعم انه وجد في المركبين اسباباً لمداخلة المسلمين ، ولم يكن ذلك صحيحاً
ولكن جعل ذلك طريقة لضبط جميع ما في المركبين من البضائع والاموال ، وامسك
جميع من فيها من التجار والنوتية وقتلهم جميعاً . وبمد ذلك باع المركبين بثلاثة
آلاف قرش . قال الشهابي : ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء

طرابلس من تجار الفرنج احد ، وتوجه اناس من الفرنج الى الباب العالي للشكوى على ابن سيف ، ولكن لكثرة اختلاف الاحكام وعزل الوزراء لم يلتفت احد اليهم وراحت على من راح .

ومن الفتن الاهلية ما حدث سنة ١٠٣٢ من دخول الامير احمد الشهابي والشيخ حسن الطويل بلاد عجلون ومقابلة أهل القرى لها وتجمع أهالي بلاد نابلس وعربها ، وحرقت من القرى قرية فارا وقرية الخربة وقرية حلاوى وكانت من اكبر قرى عجلون ، وحرق الامير علي الشهابي قرية سرعين في البقاع وجميع قرى بعلبك وتحصن أهل بعلبك في القلعة . وجرت فتنة بين عساكر دمشق والامير يونس الحرفوش — وكان هذا ظالماً متجاهراً بالظلم — وكرد حمزة سنة ١٠٣٣ فاغتم الانكشارية الفرصة وأغاروا على المستضعفين من الاهلين وتعاقب نغير الولاة وانحاز بعض الخوارج اليهم ونقل الناس أمتعتهم وأنقلهم من خارج مدينة دمشق الى داخلها مراراً ، وحارب العسكر الدمشقي اولاد الحرفوش لاجراهم من بعلبك .

وكان كيوان أحد كهراء الاجناد في دمشق خلال هذه المدة ينزع الى التعدي ولا شكية ترد جماعه ولا وازع يكف من غربه ، فأخذ الناس بالتهمة وتناول الى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها الى بعض ، وكان اذا أخذ حصته في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعاً او كرهاً ، وكان نواب محكمة الباب وأعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل . وذكر الغزي ان كيوان الطاغية أعيان أهل الشام ظلماً وفننة ، وكانت بداية كيوان نهاية اويس ثم تجاوز عنه بمراتب ، فطمع هو وقائده الصالحية اولاً في املاك الفلاحين واستخلاص مملكوه بالشراء او بالمغارسة فكان يعمل الحيلة لاحدم حتى يوقعه في مخالاب صاحب الشحنة ولو بالتهمة والاستنباع . وقد اقترب يوسف السقا من الاجناد الدمشقين ضروب المظالم ، وصادر الناس في أموالهم وعقارهم ، وقبض على غالب أعيان دمشق وشيوخها وهرب بعضهم ، واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالا جزيلاً أناف على مائتي الف دينار ومن التحف والاقمشة ما لا يحصى . ومثل هذه الشؤون كانت تجري على مشهد من

الولاية في عاصمة الشام ويتفاوضون عنها لانها قد تكون بايعازهم وهم لا محالة شركاء
اولئك الزعماء .

* * *

حملات على الامير }
نجر الدين المعني }
وغیره }

أدركت الدولة ان خطر الامير نجر الدين المعني على
حياتها في هذه الديار زاد عن سنة ١٠٢٠ وانه تأصلت
أحكامه بعد عودته من ايطاليا ، وما كانت في حملتها

الاولى والثانية لتغضي عن تخريب بلاده الا اضطراراً ، فساق هذه المرة مصطفى باشا
والي دمشق (١٠٣٣) جيشاً على الامير نجر الدين فاستظهر هذا بالامير محمد الشهابي حاكم
وادي التيم كما استظهر حاكم الشام باين سيفاً حاكم طرابلس وابن الحرفوش صاحب
بعلبك فهلك جمهور من عسكر الشام قدر بمائتي قتيل ولم يقتل سوى رجال قلائل
من جماعة ابن معن ، وكانت الواقعة في عين الجر (عنجر) من عمل البقاع . وقبض
جماعة ابن معن على والي دمشق فجاء الامير نجر الدين وقبل ذيله ، وقيل شفع بالوالي
علماء دمشق وكبرائها لدى ابن معن ، ورجع عسكر دمشق مفلولين وفي رواية انهم
خامروا على الوالي وأطلق الامير نجر الدين والي دمشق مكرماً ، فعاد الى الفيحاء بنقم
من كان السبب في غزوه ابن معن . وهذه الواقعة زادت في مكانة امير لبنان في نظر
الدولة والامة ، ودلت على انه كان مع قوته عاقلاً بعيد النظر ، وانها عاجزة عن أخذه
الا بتجهيز جيش عظيم لانها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخبية خصوصاً وقد علمت
مخالفته لكويسموس الثاني كبير دوجات طسقانه ، وان نجر الدين لما استظهر باسطول
فرديناند الطسقاني استولى على ساحل الشام وغلب جيش الدولة غير مرة .

وفي سنة ١٠٣٣ ايضاً جلس جماعة الوالي بدمشق على الطرق ومعهم الريش
يضعونه على رأس كل من يرونه وينادون عليه « مستاهل لم يقدر ان يرفعها من شدة
الخوف » قال المقار : فلما كملوا أرسلوهم الى اليمن فقتلوا كلهم هنالك . ومعنى ذلك
ان الدولة كانت تريد تجنيد أناس ليرسلهم من الشام الى اليمن فلم تر أطرف ولا عدل
من هذه الطريقة في التجنيد . وفي سنة ١٠٣٨ عين والي دمشق شرذمة من

العسكر لمنازلة بني شهاب الذين يسكنون وادي تيم الله بن ثعلبة فنهبوا بلادهم وأحرقوا قراها .

وقد وزعت الدولة عسكرها على بلاد الشام ليشتي فيها سنة ١٠٤١ وكان جيشاً كبيراً فخص دمشق منهم اثنا عشر الف جندي ماعدا اتباعهم ، وكان ما كلهم ومشر بهم من اهل دمشق أقاموا بها اربعة اشهر ، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من اهل دمشق خمسين قرشاً من كل دار فاضطرب أهل دمشق اضطراباً عظيماً . وقال شيخ الادب في عصره ابو بكر العمري من قصيدة وصف بها سنة « القشلق » :

قوم من الاتراك عاثوا بها	على خيول ضمّر سبق
من جهة الشرق لقد اقبلوا	والشرق قد يأتي من المشرق
في رقعة الشام غدت خيلهم	وذلت الأرخاخ للبيدق
اجلوا اهالي الدور عن دورهم	بالسيف والدبوس والبنديق
واتخذوها مسكناً دونهم	بالفرش من خز واستبرق
وحملهم كلفاً أعجزت	غنيمهم جهداً فكيف الفقي

قال الحبي : ان القشلق من عسكر السلطان مراد بن احمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فداهم الشتاء دون الوصول الى خطة العجم فأمروا ان يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس امر المعيشة وبالغوا في التعدي ونهب أموال الناس . وكان ناضي القضاة بدمشق احمد بن عوض العينبائي تولى هذا المنصب سنة ١٠٤١ فسعى بقمعهم وكف شرهم .

وفي سنة ١٠٤٣ جاء السردار الاعظم محمد باشا الى حلب يحمل مرسوماً سلطانياً بقتل نوغاي باشا لانه تهامل في قتل من يجب قتلهم من الاشقياء واكتفى منهم بمصادرة أموالهم ، فقتل وأرسل رأسه بلحيته البيضاء الى جانب السلطنة . قال نعما : وهذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلي للدين والدولة وهو من أقدر الوزراء . وفي هذه السنة تجتمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية وثاروا بوالي حلب فقتل منهم خمسون وجرح كثيرون ، ثم جاء رؤسائهم معتذرين للوالي بما صدر من أو باشهم فتأثر جميع النافخين في بوق الننسة وقتل الجرحى والهاربين منهم فسكنت

النائرة . وفي هذه السنة خرجت عساكر كثيرة من دمشق وبلغتوا بلاد ابن شهاب امير وادي التيم فنهبوها وأحرقوا قراها وبلغت صاحبها العسكر الدمشقي فظفر بهم ورجعوا عن بلاده .

القضاء على الامير ٦ وفي سنة ١٠٤٣ قوبت كلمة الامير نحر الدين بن معن نحر الدين المعني ك الثاني وكانت الدولة منذ ثلاث وعشرين سنة تنظر اليه نظر الخارج عن طاعتها ، حاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لانه كان يجيشه أقوى من الجيوش التي تساق عليه ، وبلاده حصينة بطبيعتها وحصونه كثيرة ممنعة ، ولولا ان كانت الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لظمت قوى كثيرة من قوتها وأخذته اخذ عزيز مقتدر ، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشاً من الاناضول بقيادة احمد باشا الارناؤودي كافل دمشق فاننصر عليه الامير نحر الدين بن معن وقعتين قرب صفد ثم اننصر عليه القائد العثماني في وادي التيم وقتل ابنه علياً وتوفي أخوه متأثراً من جراحاته ، وكانت أرسلت الدولة عليه اسطولاً من البحر فغلب على اكثر سواحله وعاون بنو سيفا وأصحاب الاحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية ومشوا مقابل المراكب على طريق البرفتشت المعينون ، وكانت الدولة تحاذر من معاونة اسطول البنادقة او الطسقابين له ، ولجأ الامير الى شقيف تيرون فضاقت نفسه وفي رواية انه هام على وجهه في الجبال سنة ودل جماعته عليه ، ثم عمد الى مغارة في جزين فاضطر ان يسلم نفسه الى الوزير العثماني فدخل به الى دمشق بموكب حافل وهو مقيد على الفرس خلفه ، ثم حمل الى الاستانة فقابله السلطان بمقابلة لابأس بها ولامه على افعاله فقدم اعذاره ، واحتج بان جمع الرجال لامور مختصة بالوزراء والنواب وما قتل غير العصاة على السلطنة ، وان القلاع التي استولى عليها وفتحها كانت بيد العصاة وسلمها للسلطنة فاقننح السلطان من كلامه وعفا عنه ولكنه ابقاه مخفوراً . ولما قام حفيده الامير ملحم وكسر جيش والي دمشق ونهب صور وبيروت وعكا صدر امر السلطان بقطع رأس الامير نحر الدين وخنق ابنه الاكبر .

وذكر الشهابي ان الامير علي بن علم الدين اليميني الذي وسد اليه حكم لبنان بعد

اسر الامير فخر الدين قد ضبط جميع ارزاق بيت معن وقبض على تابعيهم وقتل بعضاً منهم ، ثم باغت الامراء بيت نونوخ وكانوا في الحمام في السراي التي تحت القرية فقتلهم وردم البرج على اولادهم الصغار ، ولم يترك من بني نونوخ ذكراً يخلفهم ، فلما بلغ ذلك الامير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية وركب على اليمينية فقتل منهم كثيراً وقدر من قتل من الفريقين بنحو اربعمائة نفس ، وقتل مدير كوجك احمد باشا وانهمزم الامير علي بن علم الدين الى دمشق وخرج بعسكر من دمشق نحو خمسمائة رجل وعندما وصل تحت قب الياس نزل سعيد احمد ابو عذرا الى مقاتلتهم برجال العرقوب في نحو اربعمائة رجل ، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم اطبقوا عليه فما سلم منهم الا القليل ، فرجع الامير ملحم واختبأ في الشوف وتجددت عند ذلك الشكايات على الامير فخر الدين وعند هذا امر السلطان بقتله . قال المرادي : ان املاك الامير فخر الدين وهبها السلطان مراد الى احمد باشا الكوجك ، وكان عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته في بعلبك وصيدا ورشيا وحاصبيا وكانت املاكاً لفخر الدين .

وبهلاك الامير فخر الدين وضعف سلطة الامراء المعنيين استراح الامراء الجاورون لبلده امثال بني سيفا في طرابلس والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في بلاد نابلس ، وقد وقعت بين هذا وبين الامير فخر الدين حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه الى بلاده ثلاث مرات لقتاله ورحل ابن طرباي الى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحره ، واشهر وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة والامير محمد بن فروخ امير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقنلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة . وحارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا قرب يافا وبدد جمعهم ولكن اهل بلاد حارثة من عمل جينين حاصروه في قلعة جينين واخرجوه منها . هلك ابن معن بعد ان كاد يستولي على البلاد كلها بأخذه اولاً املاك بني سيفا وبني الحرفوش في طرابلس وبعلبك ، وقد كانت واسع الصدر بعيد الغور والنظور متساحماً يسير مع المدينة سير تعقل ، واخذ في آخر امره بعمر في بيروت حديقة للوحوش تقليداً للملك ايطاليا ، وعمر قلعة صرخد وقلعة شميميس على كتف الروج من عمل

حلب وقلعة فوق انطاكية وجهازها بالعساكر . فشكته حكومة حلب للباب العالي .
قال المحبي : ان ابن معن بلغ مبلغاً لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة . وعلل البوريني
سبب اخذ الدولة للامير نجر الدين المعني انه اخذ يحصن قلعة الشقيف عدة اعوام
واخذ لواء صفد ، فعظم شأنه وارفع مكانه وبعد صيته ، وكثرت امواله لانه تصرف
في بلاد ما خطر في بال احد من الامراء التصرف فيها ، وكان متصرفاً في بلاد
كفر كنه وبلاد عكا والساحل وصفد وبلاد ابن بشاره والشقيف وبيروت وصيدا
وجبل كسروان وجبة المنيطرة وجبيل وانطلياس والبترون والجرد والغرب والمتن
والشوف والمقيطع والشحار والبصاع وبعليك وصور والمعشوقة ، وما كفاه ذلك حتى
انه جاء الى قلعة الشقيف وحصنها وجددها وشحنها بالارزاق الكثيرة وجعل بها من
آلات الحصار ما لا يعد ولا يحصى واستمر في ذلك التحصين نحو عشرة اعوام فنظن
له الامراء والوزراء .

وقال نعيما : ان قلاع الشقيف وبانياس ودير القمير كانت محصنة في عهد ابن
معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة ، وان من قتلوا في برهة
قليلة من عصاة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف واحرقت بيوتهم وقراهم وان عهده
وما بعده في الجبل مضى مع الدولة تارة في حرب وطوراً في سلم وصلاح . ومن الحصون
التي رُمها وانشأها قلعة قب الياس وبانياس وبرج الكشاف في بيروت و برج البحصاص
في طرابلس ورأس بعليك واللبوة وحدث بعليك والصلت وحيفا ونوله وسمر جبيل
وطرابلس وصافيتا والمرقب وحصن الاكراد .

وكانت له في باب قوة الارادة آيات منها انه لما حدث اختلاف بينه وبين بيت
سيفا اصحاب طرابلس ، اتى بنو سيفا واحرقوا ونهبوا الشوف فاقسم كما قيل هكذا :
« وحق زمزم والنبي المختار لعمر ك (لا عمرك) يا دير يجبر عكار » . وهكذا كان
فانه لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها ، جعل الجمال بالالوف
تجلب الحجارة من قلع عكار الى دير القمير وبني جميع الدور القديمة في الدير ووزع في
جدرانها من حجارة عكار الصفراء .

كان ابن معن يجمع الى الحسنات سيئات فمن حسناته انه كان يميل الى عمران

بلادها ، ويتسامح مع الاجانب حتى تكثر صلات الشاميين بهم للتجارة ، وكان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح ويستطيع ان يجند مثلها وقيل انه كان يستطيع ان يجند اربعين الفاً . وقد سئل لما كان في ايطاليا كم يقدر ان يجيز من العسكر فقال : كنت اجمع نيفاً وعشرين الفاً ماعدا الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة ، وكان يفضل على الادباء والعلماء وكذلك كان يفعل خصومه بنو سيفاً . اما سيئاته فكان مفرطاً باخذ الاموال من الناس ولا سيما بعد ان زار ايطاليا وتعلم منها البذخ حتى اشمازت منه رعيته وقد بلغت جبايته تسعمائة الف ليرة يعطي الدولة نحو ثلثها ويتمتع بالباقي . وكان نزوعاً الى العلي محافظاً على صلواته مع الجماعة وعلى عاداته الاسلامية حتى في ايطاليا ، وبني جامعاً ومأذنة في البلدة التي نزلها ولما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا ان يدين بالنصرانية ويتولى مملكة عظيمة اعظم من مملكته فاعتذر بلطف . ذكر هذا مؤرخه الخالدي الا ان « المعلة الاسلامية » نقول : ان الامير فخر الدين لما فر الى ليفورنا (١٠٢٢) واستقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الامل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة التركية في الشام . وعبثاً حاول ان يظهر ان الدرود من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو وانه هو ايضاً من ابناء كودفري دي بوليون من امراء الصليبيين ولم يوفق ان يحمل المسيحيين على اعلان حرب صليبية جديدة . وربما كانت قواه اذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس متكافئة لان الدولة كانت تعضد سرراً ابن سيفا حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن ، ولكن شتان بين الرجلين في الغناء وبعد النظر .

وفي سنة ١٠٤٤ حارب الامير عساف بن يوسف
 باشا سيفا الامير علي بن عساف واحرق بلاد جبيل
 قطن في الساحل }
 والمنيطرة ثم قتل من جماعة عساف كثيرون ، وكثرت الحكام والاحزاب في لبنان وظلموا الرعايا واخذوا المال الاميري مرتين ، وقبضوا على رؤساء القرى وشددوا عليهم ليخبروا عن ارزاق بيت معن وبيت الخازن ، وفي السنة التالية باغت الامير علي بن

سيفا قرية أميون ونهبها واحرقها ، فجمع خاله الامير عساف الرجال ودارت الحرب بينهما في ارض عرقة في طرف الزاوية فانكسرت جماعة الامير علي ثم اعاد هذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الامير عساف وقتل من جماعته مقتلة كبيرة واشتد الضيق بالناس .

وفي سنة ١٠٤٦ قصد احمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الامير علي بن علم الدين لتأخره في اداء المال السلطاني ومعه متولي صفد وبيروت وطرابلس فانهمز قدامهم ، ورحل معه يمنية بلاد الغرب والجرد والمتمن والشحار والشوفيات بعياهم ومواشيهم وكانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا بلاد كسروان ، وانهمز من قدامهم القيسية وكسروم في مرحاتا في ظهور الشوير ثم طردوهم من كسروان فساروا الى عكار وسار عسكر الدولة على طريق الساحل ودخلوا طرابلس وخرجوا الى نهر البارد فانهمزوا من امامهم ولحقوهم بارض الجوف فكسروهم وسبوا حريمهم واخذوا مواشيهم ثم ان طروبه البدوي تدخل بالصلح بين الامير عساف وابن اخته الامير علي فرجع ابن علم الدين الى بيروت . ولما حدث ذلك الاختلال في بلاد الساحل ظهر الامير ملحم بن معن وحكم الشوف وجمع بيت الحرفوش سكانهم وعربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج اليهم نائب الشام بعسكره ووقع بينهم الحرب فظفر النائب بيت الحرفوش وقتل منهم مقتلة عظيمة . اي ان الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الامير فخر الدين المعني وقد جرت شؤون كثيرة من خراب وقتل وشنق في السنين التي اعقبت قتله حتى آخر عهد السلطان مراد الرابع .

وكان والي بدمشق سنة ١٠٤٦ درويش محمد باشا الشركسي ففتك باهلها وتجاوز في ظلمهم الحد وفي آخر ايام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضي واشتكوا من الظلم وبالغوا في التوسل فلما بلغه ركب وكان في الوادي الاخضر بدمشق مخيماً واتى مغضباً وسفك دم بعضهم ثم عزل وصار امير الامراء بطرابلس . وهذه القواعد مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاية فمن ترتضيه ويوافق مصحتها ننقله الى مكان آخر اذا قامت عليه الشكايات مها عظمت وثبتت لديها ، كأن الولاية الاخرى ليست من ملكها ولا يهمها امر أهلها ، او ان والي بمجرد نقله يغير أخلاقه .

ابراهيم الاول وسفاهته } توفي السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ بعد ان
 حكم سبع عشرة سنة وكان من الشدة على جانب
 عظيم منهم كما في شهواته واذناته ، قيل انه قتل مائة الف انسان منهم خمسة وعشرون
 الفاً بنفسه او امام عينيه ولكنه آمن على حدود البلاد الشرقية باستيلائه على بغداد ، وهو
 الذي قضى على الامير نجر الدين المعني الثاني ولولا ذلك لاستقل هذا بالشام لا محالة
 وربما امتد حكمه الى ابعد من ذلك من الاقطار والممالك ، ولم ترشح البلاد بعد مراد
 الرابع ، كما انها لم ترشح على عهده فخلفه السلطان ابراهيم وكان خالماً ماجناً فسدت
 المملكة في ايامه باخلاقها ومشخصاتها ، وكان أبدأ في شاكل عن الامة الا بما كان فيه
 تحقيق شهواته ، وكان غربياً فيها . وقد عقد مراد بك في تاريخه «ابوالفاروق» فصلاً
 في سلطنة النساء اسفرق جزءاً برمهته تلخصه هنا ليتبين للقاريء كيف يكون حال
 مملكة سلطانها سخييف ضعيف .

ومما ذكر فيه استرسال السلطان احمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة
 والعشرين شهيد الغواني والكؤوس ، اما السلطان ابراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلي
 بحب النساء حتى كان كل اسبوع يبني بيكر ويجري له عرس ونقام الافراح في
 قصره ، وكان كلما سمع هو او والدته «كوسم والده» او أحد حاشيته وحملة غاشيته
 ووزراؤه وعماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم ، حتى عجز السلطان عن ملامسة
 النساء لكثرة افراطه فجاء «جنجبي خواجه» وكتب نسخ الادوية والعقاقير النافعة
 في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بان سلطانها يستطيع ان يقرب من اربع وعشرين
 بكرأ في الاربع والعشرين ساعة ! وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري
 والسراري ، وكان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له
 الا الافراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقناء الجواري والحلي والزهور
 والاموال والطرائف ، واصدار الاوامر بقتل الانفس بمعنى وبلامعنى ، واخذ يستريح
 الى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية في أواخر أيامهم .
 وكان تقرر جعل النساء الرسميات اربعاً ثم أبلغت والده السلطان عددهن الى
 ثمان نساء ، لان نسل بني عثمان كاد ينقرض ، واجبت كوسم والده تكثير نسلهم

على هذه الصورة ، ولكل واحدة من تلك الجوارى من الخدم والخدمات والوصيفات والندماء والنديمات والخازنات والملبسات الخ عشرات وربما مئات ، تجبي واردات الولايات العظيمة لتعطى الى المقربين والمقربات ، والوظائف تباع ببيع السلع بالزاد ولا سيما على عهد الاغوات بكتاش اغا ومراد اغا ومصلىح الدين اغا وأمثالهم ، ولم يبق احد لا يرتشي من الصدر الاعظم فنازلاً ، لان السلطان يطلب من كل عامل عنده جمعاً يليق بشأن سلطانه ، حتى تعدت الحال في طلب الاموال الى كبار التجار في الاستانة ، واخذ رجال القصر ونساؤه يسلبون من الامة ما يقدرون عليه ، واضطر كثير من التجار الى الاخفاء واغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان ، ولا تسل عن رواج سوق الخلي والجواهر والعربات المرصعة والفسوس المحلاة والنعال المزينة بالاحجار الكريمة والاسراف في استعمال الذهب واللؤلؤ والزبرجد وسائر المعادن النفيسة في الانية والزينة والنقش فانه مما لا ننصوره العقول .

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطى من قبل نفقة لئس القصر فأصبحت أباله الشام على طولها وعرضها يخصص ربعها وجبايتها للراة السابعة بحسب الاصول الحديثة على العهد الابراهيمى . ولم يرض النساء ان تجبي لمن الولاة وبكوات الالوية الاموال ، بل كنّ يعين جباة مخصوصين من قبلهن يجبون باسمهن ربع الولاية او اللواء . وقد كان الذي عهدت اليه جباية واردات الشام محمد اغا الذي اشتهر فيما بعد في التاريخ العثماني باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير ، وهو ممن منعوا بتدبيرهم الدولة العثمانية من السقوط . قال ابو الفاروق : ولا غرو فقد توجد الدرّة النفيسة بين الكناسات والقمامات .

ولم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة وضواحيها ، فاذا رأى من أعجبته وتردد وليها في ارسالها يلقى جزاءه في الحال ، وبلغ السلطان مرة ان امرأة ابشر مصطفى باشا في جهات سيواس على غاية من الجمال ، فأرسل الى وادار علي باشا ثلاثين الف ليرة ليعث اليه بزوجة مصطفى باشا فنفر علي باشا من اقتراح سلطانه وأجاب بالرفض ، فقرّر السلطان اهلاكه ولكن علي باشا رفع راية العصيان وجعل عالي الاناضول سافلها ، وقرّر السلطان ان يأتي بزوجة ابشر مصطفى باشا

ويعربها ويجعلها في احد الشوارع المهمة بين عمودين يربط اليها رجلاها ويداها
ويطلق للعامة والعسكر ان يمسوها حتى تموت ، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع
عن هذا العمل البشع الا بعد اللتيا والتي .

المرء يصرع ثم يشفى داؤه والحمق داء ليس منه شفاء

والحمق طبع لا يحول مركب ما ان لاحق فاعلمن دواء

وقرر هذا السلطان الاخرق يوماً ان يقتل عامة المسيحيين في مملكته فاحتمل عليه
شيخ الاسلام قائلاً ان سيء قتلهم نقص واردات السلطنة ، وان مئتي الف انسان اذا
قتلوا في العاصمة تحف الجباية لا محالة ، وبهذا استرجعوا من هذا المعتوه الفاجر
ارادته المخجلة وهكذا حتى خلع وقتل سنة ١٠٥٨ بعد سلطنة ثمان سنين وتسعة اشهر .
وقد قتل عدة من رجاله وقتل الصدر الاعظم مرة لانه بعث في طلبه لتدارك خطب
للقصر فقال له الوزير : ان هذا الطلب ليس من الامور المهمة التي يفكر فيها من يفكر
في امور السلطنة فمثل به في الحال ولم يجزأ بعدها على تولى الصدارة الا من كان
على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان .

وذكر مؤرخو الترك ان سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد
السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لا يقع مثله في ثلاثة
قرون ، وبلغ من ريائه مع سلطانه ما لم يوفق اليه أحد ، جاءه امر من السلطان
ذات يوم يقول فيه : ان الخزينة نضبت أموالها ولا بد ان يسترجع ما اهداه اجداده
السلطين الى حرمي مكة والمدينة من الجواهرات ليسد التجز فقال الصدر الاعظم
على دهائه وريائه وهو يقرأ هذه الارادة السلطانية : لقد سقطت الدولة الى هذه
الحالة بفيلق من الجواري الناقصات من بنات الروس وبولونيا والمجر وفرنسا .

ومما ذكره في باب اسراف ذلك الدور انه كان عندد قتردار محمد باشا ٤٧ طاهياً و٧
رؤساء طهاة وكل طاهٍ خدامه وخيامه واشياؤه وبغاله وجماله حاضرة على الدوام
وفي بيت مؤننه من الاواني المرصعة والمذهبة والمفضضة وغيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة
كبيرة للغاية ، فانظر الى هذا الاسراف . وهكذا بالغ السلطان ورجاله في
الاسراف بكل شيء وفسدت الاخلاق واي فساد ولا من يجسر ان يأمر بمعروف

او ينهي عن منكر حتى قال ابو الفاروق : ان معظم كبراء الامة ومن كان لهم علاقة بقصر السلطان ابراهيم كانوا ينقربون اليه بتقديم الابكار الحسان فراوا القيادة والديانة احسن شافع لهم عنده للتري والاعناء .

فاذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الامة فيها ، فما الحال بالولايات ولا سيما البعيدة كهذا القطر ، وكان ولايته كولاية غيره من جماعة القصر ينصب اكثرهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات . على هذا المثال كان اغوات القصر الاعبياء ينصبون الولاية ولا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذي يقضى عليهم ادارته بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة وجيزة وبعثون باخر من هذا الطراز . كل ذلك من مقنضيات الجهل والطمع والشفاعة ، فاقنضى ان يكون الوالي من صنائع بعض العظيمات او العظماء ، وكثيراً ما يكون ما جمعه من المال في ولايته داعياً الى توجيه النظر اليه فيقتل لتصادر امواله ، ولطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لانه يتبض على اكثر موجودهم ، وكم من مرة كانت امرأة احدهم او قصره البديع في المضيق في فروق سبباً الى الغضب عليه والحسد له ، حتى يورده الوزير الاكبر او غيره جتفه ليتمتع بعده بزوجه او ليسكن قصره او ينال غير ذلك .

وذكر ابو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان وكيف تجرد في قصره عن العالم وحصر وكده في شهبواته ان آل عثمان من القديم نفردوا بغلبة شهبواتهم عليهم ، وقد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ اهل القصر السلطاني يتعلمون ادوية الباه من الشرق والغرب وهو اخذ يسي استعمالها .

فئنة وال اخرق } ومن الاحداث في ايام السلطان ابراهيم فئنة نار وقدھا
في حلب } بين الانكشارية ورؤسائهم في حلب كان السبب فيها
ان الانكشارية طلبوا من رؤسائهم ان يعطوهم غروشاً بدلاً من الاقچات ، وطلبوا
عزل وكيل رئيسهم وكتابه ، فقتل منهم جملة ثم وقعت بينهم وبين رجال الصدر
الاعظم فئنة قتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت القضية بقتل آغتهم
ووكيله وكتابه . ومنها ما رواه نعيم في حوادث سنة ١٠٥٤ قال : انه كان في بر

حلب رجل اسمه الامير عساف يتولى امارة البادية ، وقد اخذ يسلب ارباب القرى اموالهم وسلط اشقياء العربان عليهم ، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم وصعب استئصال شأفتهم ، فدبر والي حلب ابراهيم باشا تدبيراً اخرق وذلك بان دعاه الى مأدبة ليغتاله في خلاصها ، وعلم الوالي ان الرجل لا يوافي حلب فارتأى ان يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة ، فخرج الوالي في جنده وخرج عامة اهل البلد لابسين احسن بزة ، راكبين الخيول الطهمة ، حتى وافوا محل الضيافة التي اقامها الوالي لامير البر ، وكان الوالي اوعز الى جنده ان يطلقوا النار على الامير عندما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتمروا بامرهم ، ولكن الامير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم وركب فرسه من ساعته ، وكان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرمح ، فحملوا على جند الوالي حملة منكرة وقتلوا منهم جماعة ، واحاطوا بالاھالي فسلبوهم ثيابهم وخيولهم ، ولم يكونوا اقل من خمسة آلاف وقد جرح اكثرهم ، ورجع الوالي الى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة في بلاد حلب ، واخذ الامير عساف يعادي الدولة العثمانية علناً وطمعت البادية فأخذوا يطيلون ايدي اعتدائهم اكثر من قبل فاضطرت الدولة الى نخبة واليها الفاسد الرأي السني التدبير ، وبذل الوالي اللاحق وجماعته انواع اللطف مع الامير عساف حتى اعادوه الى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة ، ووظف يهادي عمال السلطان بالخيول ويرسل الى الحكومة جزءاً من الجباية . وما كان يألفه بعض العمال من اعطاء الامان للخوارج او غيرهم ثم اغتيالهم في مائدة او ادخال السم عليهم او صلبهم علناً قد ادى الى رفع ثقة الناس من عهودهم ومواثيقهم . وغلطة واحدة ارتكبها والي حلب الاحمق اخرجت العمران واهلكت الانسان .

قال الشهابي في حوادث ١٠٥٤ انه عزل محمد باشا الارناووط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا وكان مدبره الشدياق رزق البشعلاني وقدمت الشكايات الى الباب العالي ضده فحضر كاتب ليعد الاشجار والرجال والبيوت والمنازل وبعد ما سافر المحرر ابطل الباشا جميع ذلك واعاد الاحوال الى ما كانت عليه وكانت الناس لكثرة المظالم تبغ كل ثلاثة شتايل قمع بقرش ، ثم اعيد الى طرابلس محمد باشا الارناووط واجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة ورحل اهلها .

محمد الرابع وصدارة } بوبيع السلطان محمد الرابع بالسلطنة سنة ١٠٥٨ بعد
كوبري } السلطان ابراهيم فطال عهده الى سنة ١٠٩٩ اي احدى
واربعين سنة ، واذ كان طفلاً عهدت والدته بعد تغيير كثير من الصدور ، بالصدارة
العظمي الى رجل عاقل من رجال الدولة وهو محمد باشا كوبري كان امياً الا انه اتى باعمال
وطدت دعائم الملك بعد تزعمه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء ، واشترط في تولي
الصدارة ان يكون حراً في عمله لا ينازعه منازع ، ولا تقبل فيه وشاية ولا يعين للناصب
الا من يريد ، وقتل ستة وثلاثين الف انسان حتى التقي الرهبة في النفوس ، وامن قيام
الخوارج والنزاع الى الثورة من الزعماء وارباب الدعارة والجند والعصاة ، وخلفه ابنه
احمد باشا كوبري الذي كان حاكماً دمشق وقاتل الدروز وانتصر عليهم . وكان على
غاية من العلم والعمل . ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها
لانه كان جماعاً للمال مستحلاً له من اي الطرق اتى وكان عنده الوف من الخيل وكلاب
الصيد والبزة و١٥٠٠ حصان و١٥٠٠ سرية و٧٠٠ خصي .

وخانه مصطفى زاده من اسرة كوبري ايضاً وكان من المضاء والشجاعة وحسن
الادارة والاستقامة على جانب عظيم ، واشتد على المزورين والمرتشين وقضاة السوء
وملاً خزانة الدولة باهلاك اللصوص . وكان يُقتل من يتناول التبغ من قبل فجعل
تجارته حرة على ان توضع عليه رسوم فاحشة ، وقضى ان لا يؤخذ من الرعايا مسلمين
كانوا ام مسيحيين غير المقرر من الجزى والخراج ، وقسم المكلفين الى ثلاثة اقسام
يدفع الاول منهم دوكاً واحدة والثاني دوكاً اثنين والثالث اربع دوكات وهذا هو
النظام الجديد الذي بقي بعد هذا الوز يرزمنياً وخلفه صدراً آخر كان ابن اخت الكوبري
الاول اسمه حسين عموجه زاده وكان على قدم اجداده بعد نظر وحسن ادارة فصيح في
هذه الاسرة ما قاله احد مؤرخي الفرنجة من ان الوز ير الاول منهم لقب بالكبير
او القاسي والثاني بالسياسي والثالث بالصالح والرابع بالحكيم .

ولكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن الا ضئيلة في الشام لبعده المسافة
عن العاصمة ، ولان طريق الالتزام في جباية الاموال كانت سقيمة تدعو الى اضعاف
المملكة ، ولان الوالي كانت له لامر كربة واسعة يعمل بقر يحمته على الاغلب .

وفي تاريخ فلسطين ان حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية اي اقطاعات او حكومة امراء ومشايخ يقوم كل منهم بمحکم منطقته فكان مشايخ ابو غوش او البراغنة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مرة وبني سالم ، فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لاحالة ، ومن خلف عادات البلاد او اخل بنقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ او الامير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة ، واذا حدث فتنة او خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء منطقته فيخرجون بانفسهم ومن وراءهم رجالهم وفرسانهم . وكثيراً ما كانت يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة فادى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً في الاموال والرجال .

ولقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر وترعرع ان يقلل شقيقه سليمان واحمد فنتعته والدته من قتلها وحال بينه وبين القتل المفني الاعظم ، مورداً له كلام الله محوقاً له من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل ابناء ملوك آل عثمان وتسلطن شقيقا محمد الرابع بعده . ووقعت في سلطنة احمد الرابع في الشام كوائن كثيرة منها الواقعة التي حدثت سنة ١٦٠٠ م في وادي القرن من عمل لبنان الشرقي ، وذلك ان ابن علم الدين اغرى اشير باشا والي ايلة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام والمعنية عند وادي القرن وكانت الدائرة على عسكر الشام . ويقول مؤرخو التبرك بل كانت على عسكر ابن معن وكان اسم ابن معن الامير ملحم ولي كما قال المحيي بلاد عمه اي الشوف والغرب والجرد والمترن وكسروان وكان حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف واتقياد تام الى جانب السلطنة فلهذا ابقي مدة تزيد على عشرين سنة لم ينفص له فيها عيش الامرة واحدة لما قصده اشير باشا وكان ذلك باغراء بعض المفسدين من غير داعية حصلت من قبله وانصر في تلك الواقعة . وفي خلال ذلك كان الامير درويش الشركسي المعروف بالجنون والياً على تدمر فكان يغير على العربان ويثبهم ويأسر منهم ويدخل الى دمشق بالموالك الخافلة ثم ولي لواء عجلون فنتار بينه وبين اهلها حروب كثيرة وكسروه .

وروى نعيماً في حوادث سنة ١٠٦٥ عند كلامه على والي حلب أبازة حسن باشا أنه كان من أبناء الجند بلغ المناصب بصور غريبة وهوشقي يميل الى الفساد والمظالم واذا أُريد تسطير ما اتاه من الجور على الرعايا في البلاد لاستلاب اموال اهلها اقتضى ذكر مجملته كتاباً ضخماً . وان حكام البلاد كانوا يجبون الجباية ضعفين فيأخذون ممن يقضي عليه اداء عشرة آلاف عشرين الفاً ، ومن يغرم الخمسين مئة أو مئات ، ولم يكن لتعديهم غاية ولا لظلمهم حد يقف عنده ، فتهلك القرى والديساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة والقضاة ممن كانوا يتعاونون بالرشاوى مناصبهم فيغضي عنهم الكبراء لانهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم الى الاستانة لا يجدون اذناً صاغية وربما انعكس الامر عليهم وصدق رجالها الوالي الظالم وسفه احلام المنظلمين فيزيد الظالمون في ظلمهم . قال : وكان الفقراء يرتحلون عن البلاد فاصبحت القرى المعمورة والقصبات المشهورة مروجاً ينقع فيها غراب الخراب ، واذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق الوالي عليهم الاربعائة والخمسمائة من جنده ينهبهم ويسببهم اه . ومن الغريب أن يكون حسن أبازة باشا والياً على حلب على عهد صدارة الكوبرلي الذي يقدسه العثمانيون بادارته ولعلمهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الادارة والاصلاح بمجرد بطشه بالعصاة واجهازه على من لا تروقه اعمالهم أو ينازعونه في سلطانه ، أما نقاضي الجباية مرتين من الرعايا والقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية في قائمة اعمالهم .

وحسن أبازة باشا خرج عن طاعة الدولة في حلب وفتك في تلك النواحي وانضم اليه السكبان وخمسمائة جندي كانوا مع نائب الشام احمد باشا الطيار فعينت الدولة لقتاله الوزير مرتضى باشا مع عدة امراء وعساكر فتقابل الجيشان وانكسر مرتضى ثم اخذ بالحيلة وقتل هو وأعيان جماعته ونفرق عسكره . وكان ذلك سنة ١٠٦٩ .

وفي سنة ١٠٧١ قدم والياً على دمشق احمد باشا كوبرلي ابن الصدر الاعظم محمد باشا وكان في الخامسة والعشرين من عمره . قال المحبي : وكانت الشام مختلة فاصالحها وركب على اولاد معن وبني شهاب فازالهم عن بلادهم وقمع اهل الفتن . وذاكر

المؤرخون ان هذا الوالي لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فما قبل فسار الى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبوت مدبرهم وقطعوا نحو خمسين الف شجرة من توتهم في مرج عيون والبقاع واعطى ولاية وادي التيم لاولاد علم الدين مع التقدم زين الدين وابن اخيه عبد الله . فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادي التيم . وما استخف هذه الطريقة في التأديب التي هي عبارة عن تخريب العمران هذا وابن الكوبرلي من خير من ولي الشام ومن رجال الاصلاح والعلم . وأقام ابن الكوبرلي على صيدا باشا وجعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم اولاد العرب واعطاها علي باشا البقردار . ولما بلغه ما صار من والي طرابلس واليمنية من حرق دور بيت ابي الملع وبيت الخازن وبيت حمادة وقطع ارزاقهم وما وقع من الخراب في وادي علمات واتلاف حراج مشمش ولحفد وارض جبيل والبترون وجبة المنيطرة والعاقورة ، لما بلغه ذلك وان الرعايا ضاقت به وخربت بلادها امر بصرف العساكر ورجع الى الشام ، وعلي باشا هو الذي طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت واذ لم يقبل النصارى امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبني لها مأذنة وسميت مقام الخضر . وفي سنة ١٠٧١ قدم علي باشا الى صيدا وهو اول من تولاها من الباشاوات وكانت فئنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتأولة فأوقع بالقيسية ونهب بلادهم فارتحلوا عنها وبعد سنتين نصر الوالي القيسية .

وفي سنة ١٠٧٣ قتلت الدولة الامير منصور بن شهاب أمير وادي التيم والامير علي ابن عمه لموافقتها رؤساء جند الشام في وقعة مرتضى باشا لما ولي نيابة دمشق وقارب ان يدخلها فأرسل جنداً من وادي التيم تجتمع في دمشق وانضم الي من قام فيها من رؤساء الاجناد والاباش والنقوا مرتضى باشا في القطيفة فهرب منهم . ولما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين وفي مقدمتهم الامير منصور وأخوه والشهابيون على ما قاله المحبي في وصف ادارتهم وسيرتهم على عهده : « وجورهم بالنسبة الى امراء بلاد الشام كالدروز بني معن والرافضة بني الحرفوش وبني سرحان مقصور على انفسهم من حيث المعتقد فحسب ، وما لم في القديم والحديث كثرة اذية للمسلمين » . ومن مساوي حكومة الاقطاعات ان صغار امرائها من أهل البلاد كانوا

يضطرون كل الاضطرار الى المصانعة فتراهم أبدأً مع القوي الذي تدوم سعادته فاذا ولت عنه لووا وجوههم ، وفي هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً وتحرب بيوتهم وبيوت شملهم وحاشيتهم . والولاة يشدون مع هذا ويرخون لذلك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة . وهكذا كانوا في معاملتهم لليمنية والقيسية فتارة يقوى هؤلاء وطوراً اولئك فقد وقعت سنة ١٠٧٥ في الغلغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية واليمينية قتل فيها عبد الله بن قائد به ابن الصواف وانكسرت اليمنية وانهمزوا الى بلاد دمشق . واشتدت الحالة على بلاد الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها الذي أقتلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى ان قاضي حلب ضبط الاموات في حلب فبلغوا ١٤٠ الفاً وكتب القحط عم البلاد قبل اربع سنين فنجي بالقمح من مصر وبيعت غرارة الخنطة بثمانين قرشاً . ولم تفت الحكومة مع ذلك عن حرق الدور والقرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور امراء البقاع بحكومة دمشق فأنجدهم بعسكر فداسوا وادي التيم وحرقوا دور بني شهاب وقراهم . واشتد ظلم بني حمادة في عمل طرابلس وظلموا الرعايا . خربت القرى من الظلم وكان في خلال ذلك (١٠٨٢) والياً في حلب حسين باشا المعروف بصاري حسن اي الاصفر يتلطف بالرعايا وينقم من ذوي الكبر والمناصب . كما ان ظلم والي دمشق ومتسله اشتد سنة ١٠٨٣ فأغلقت المدينة مرتين احتجاجاً على عمله .

وفي سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ حرقت قرى البترون وفي السنة التالية حرقت بلاد جبيل وبلاد البترون أيضاً وخت بلاد جبيل من سكانها . وفي سنة ١٠٨٧ امر والي طرابلس بحريق وادي علمات وهي فرحة وعلمات وعشاق وطورزيا والحصون واهمج وجاج وقرى جبة المنيطرة وهي كفر جال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا ولما رجع العسكر جاء مشايخ بيت حمادة وأحرقوا قسوبا وتولا وعبد الله وسبينا وصغار وشبطن . وفي سنة ١٠٩٠ تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيراً . وفيها كانت التجريدة على الامراء آل شهاب من والي صيدا ووالي دمشق وكان التصرف للباشاوات . وفي السنة التالية باغت الامير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الامير فارس شهاب في نيجا قرب الفرزل فقتله وقتل خمسين رجلاً من شيوخ وادي

التيم فجمعت أسرة شهاب العساكر وساروا الى بلاد بعلبك فتدخل الامير احمد بن
معن بالصلح وجعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف قرش ورأسين
من أطياب الخليل . وفي سنة ١٠٩٦ تولى الامير احمد بن معن صاحب الشوف
جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ايليج ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أملاكهم . وفي
سنة ١٠٩٨ لما فر الامير شديد الى بلاد جبيل نزل الى العاقورة فأحرق من ضياع
بيت المشايخ بيت حمادة نحو اربعين ضيعة وقطع أشجارها .

وكانت مصيبة البلاد في هذا الدور واحدة في الظلم ، فكان الوالي في حماة مثلاً
اذا غضب على رجل يضعه على «الخازوق» ، واذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع
شيء من الكلس وألقاها في العاصي ، وأصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون
أموالهم ويدفنونها في الارض لتنجو من المصادرات والسرفقات ويتظاهرون بالفقر وربما
مات أحدهم نجاة ولا يعلم أولاده بدفينته في جدار البيت او الحائط فيقع المال بعد
مدة في يد من تنقل اليهم الدار . قال الحمي : وكثيرة جور الحكام في حماة على
الاهلين في القرن الحادي عشر هاجر أغلب سكانها الى دمشق .

اما في جهات لبنان الغربي والشرقي فان الوالي أو المسلم أو المستبد اذا غضب على
رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره ، ولذلك كان من الدعاء على الرجل في
لبنان « الله يقطع رزقه » أي أشجاره او « يجزب زوقه » اي بيته والزوق البيت
وبعض القرى في كسروان تبدأ بزوق كما تبدأ في أفليم دمشق عدة قرى باسم بيت .
وفي سنة ١٠٩٨ ورد الامر لعلي باشا النكدلي متولي أبالة طرابلس ان يقتص من
الامير شديد الحرفوش لتخريبه قرية رأس بعلبك وهدمه حصنها فكتب الى الامير
احمد بن معن ان يوافيه بالرجال فلجأ الامير شديد الى المشايخ الحمادية فأحرق علي باشا
قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة ، ثم نزل عسكر الباشا على عين الباطية
فباغته ليلاً آل حمادة والحرافشة وقتلوا منهم خمسة واربعين رجلاً وانهمزم العسكر .

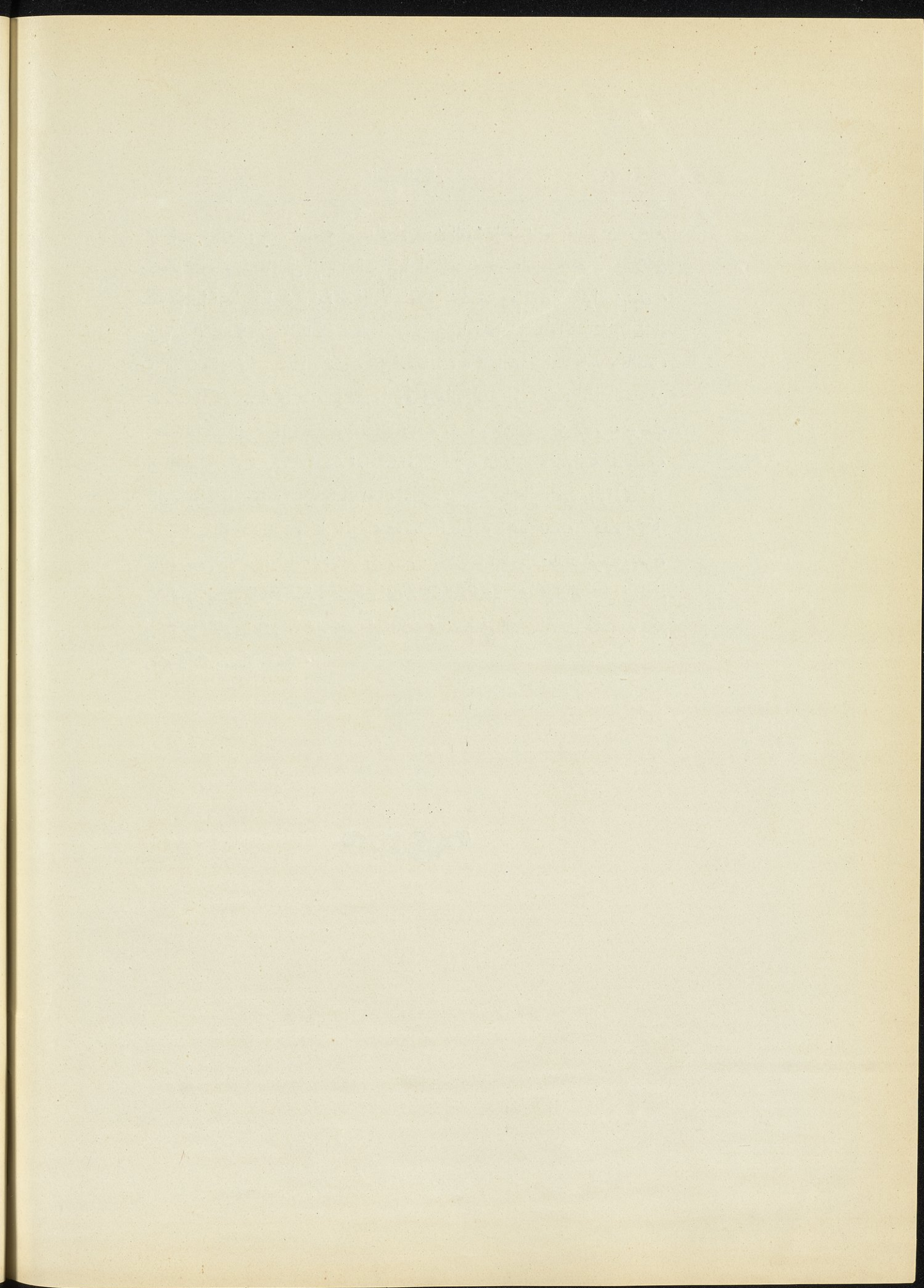
عهد سليمان الثاني والحكم } توفي السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٩ وتولى
السلطان سليمان الثاني والاحوال في عهده الطويل } علي الخوارج

لم تنبذل ومرض البلاد واحد وهو سوء الادارة وخراب العمران وهلاك المال والاعراض والكراع والرجال . وتم القرن والشام غرض الرماة تصيبها مطامع الولاة والامراء وأرباب الاقطاعات والالوية وأهم ما كانت فيه مظالم بني سيفا وبني معن وثورة ابن جانبولاذ ، والولاة نسق واحد لانهم نسخة من عصرهم ، واذا كانت أحوال القصر السلطاني ومن فيه مختلفة كانت الولايات حقيقة بان تباع فيها الارواح بيع السماح ، تساوى في ذلك البوادي والحواضر ، والناس في أمر مريح لا يستقرون في بلد ويتقلون في الارحاء لان آمالمهم كسفت وخاب منهم الرجاء ، واذا اشتد الظلم في مكان هجروه الى موطن يتوهمونه أقل مظالم ومغارم ، وأنى لهم مكان يسكنون اليه ويأمن فيه سرهم . واذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكويرلي الذين تولوا الصدارة فان ما أصاب الشام من عنايتهم جزء صغير جداً لا يكاد يشعر به ، وعهد اولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر ومصطفى الابله ينسب عهد محمد الرابع ومراد الرابع . ولم يؤثر عن هذا القرن انه انشيء فيه غير قليل من الجوامع والمعاهد مثل جامع اشير باشا وخان الوزير مجلب وكان بعض الولاة في القرن الذي قبله يرهقون الرعية ويقميون شيئاً باسم العمران اما هذا القرن فغاية ما يقال فيه انه تحريب الموجود . وعمن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا البالجي امير بلاد صفد ثم بلاد طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من انصف الحكام على ما قال المؤرخون ، واذا كتب لاحدهم ان كان على شيء من الاخلاق ينازعه المنازعون على ولايته في الاستانة فلا ينقلد زمامها الا بمقدار ما يتعرف الى اهلها ويدرس طبائعهم ويستقري بلادهم ثم يشخص الى العاصمة ويستبدل غيره به وهكذا دواليك .

هذا وأهم ما كان من حوادث هذا القرن فننة ابن جانبولاذ التركاني التي زال بها حكم الدولة عن البلاد سنين وذلك من اذنة الى غرة ولم يطل امد هذا الاستيلاء كثيراً اذ كانت دعامة القوة الموقته ، وهو ابن ساعته لم تعد له الاسباب يجملتها . اما الامير فخر الدين بن معن الثاني فانه كاد يستولي بالفعل على البلاد كلها لتنظيم جيشه وتحصينه لبلاداه وتعزيز قلاعه وبسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة انفسهم ، وعنايته بادخال روح التجدد في بلاداه ودعي سلطان البركجه الامير فخر الدين الاول

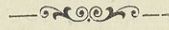
ولو كان خلفائه دوجات طسقانه اذ ذاك شيء من القوة والنجدوه بقليل من رجالهم وذخائرهم ولو لم يشتغل بال البابا وملك اسبانيا وكبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا النجدوه على نيل امانيه في الاستقلال خصوصاً وهم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على انطاكية ، فلو قدر لهم ان يعاونوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه الى فراته بعد ان تمت له كل معداته ، وكان العقل رائده والحزم قائده ، خصوصاً وكان معوّله في قوته على الدرروز وهم في هذه الديار على التحقيق منذ القديم من اشجع العناصر التي عرفت بمتانتها ومضائها في الحروب . وكان كثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين ولحجة قومه له ادعته اهل المذاهب الثلاثة في بلاده ، فالموارنة يقولون انه كان مارونياً والدرروز درزياً والحقيقة انه مسلم سني — خلافاً للحمي والمرادي — يحسن السياسة والادارة وينظر الى رعيته نظر المساواة يأخذ لخدمته الكفاية من كل طائفة . فهو بلامرء مثال الابطال في عصره ، وكان على أتم الاستعداد للحرب ومعرفة بالادارة وطبائع البلاد ، ولولم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر ولم يكن دونه ذكاً ومضاً ودهاءً .





العهد العثماني

من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠



حال الشام اول } تبليج فجر القرن الثاني عشر للهجرة والدولة لا تفكر في غير
القرن الثاني عشر } مصائبها الخارجية ، والمملكة التي كانت تمتد من اسوار فينا
الى جنوب بلاد العرب ، ومن فارس الى الغرب الاقصى لا وحدة فيها ، ولا جامعة تجمعها ،
ولست متجانسة ولا متماثلة ، تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية ،
فلا تهتم للاولى اهتمامها للثانية ، ونفنى في سلطانها ويستعبد ارباب الاقطاعات ويستبد بها
الجند والولاة ، وسكان هذا القطر كسائر الاقطار العثمانية كالارقاء لا عمل لهم
الا ارضاء شهوات حكامهم من وظيفين وغرباء ، ولم يكن اختلاف العناصر اقل
ضرراً عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية واللوند
والسكبان والقبوقول ، والنزاع بين هؤلاء الجند وبين رجال الادارة على اتم حالاته
في اغلب السنين ، بل بين كل صنف من اصنافهم ورؤسائه ، والارواح في هذا
السبيل تباع بالجمان ، فلم يحدث شيء مما يقال له الاصلاح لان رجال الدولة لم يفكروا
فيه حتى يتوسلوا باسبابه ، واذا توسلوا فلا يحسنون طريقه ، وقد اعتادوا الاخذ ولم يعتادوا
العطاء بتحسين الحالة ، ليزيد الاخذ والعطاء معاً .

وندر ان يجي من الاستانة رجل صالح في اخلاقه ، معروف باسقامته وكبر
عقله وسعة معرفته ، يحسن ادارة الناس ويكف الظالم عن ظلمه ، وهل يفارق فروق
الا من أكره ، وهناك النعيم والهناء وضروب الشهوات البشرية ، واذا جاء هذه الديار
والكبير من العمال فلائ ملاء هميانه على الاكثر باموال الامة ليعود الى العاصمة

سريعاً ، يعيش عيشاً طيباً و ينعم في قصورها بامواله و طرائفه ، و يجني في سنة ثروة كبرى
تكفيه و اولاده و احفاده على غير الدهر .

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة في الجباية ، بل لان الجباية كانت
على غير قاعدة مطردة ، قد تجي جباية سنين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ،
ولا تراعى في الجبايات اعوام القحوط و الجدوب و المصائب ، و اذا ضاقت الحال باحد
العقلاء او ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً و قاتلوه و حرّفوا دعوته
على ولاة الامر في الاستانة ، و لبّسوا على العامة في امره ، حتى يسكتوا نأتمته
و يزيّفوا دعوته ، و الا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الامة من هذه
الطريقة المعوجة في الادارة ، فالخير في الناس ما انقطع و لم ينقطع ، و مهما بلغ
شعب من الانحطاط لا يخلو من نهاء يجاهرون بالحق ، ولو كان في المجاهرة
حتفهم احياناً .

وقد مهر رجال هذا الدور في تزيين الباطل و الباسه ثوب الحق ، و تقليد عدد
الهالكين و الشاكين و الثائرين و الناقمين ، اذا نشبت ثورة او حدثت فتنه او تألف جماعة
لمتصد و ظني ، و كثيراً ما يصورون العذاب الاليم في صورة نعيم مقيم ، و لا يعرضون
على السلطان الا المسائل الكبرى ، كأن نثقت ثورة في الشام لا يمكن تلافيتها الا بارسال
جيش كبير من آسيا الصغرى ، و تحتاج الى مال لا بد من استصدار ارادة سنية بادائه
من خراج الولاية الفلانية . و غدا قتل الانسان و سبي النساء و الصبيان و خراب العمران ،
من الامور المألوفة في تلك الازمان .

وفي هذا القرن بدأ الحكم و ارباب المقاطعات ينوعون اسماء الجباية كأن يقولوا
الشاشية و البزرية ، لسد عوزهم و القيام بواجب الضمانات للدولة ، و كثير من الفتن
كان الداعي اليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في اوقاتها ،
فتعدهم عصاة عليها و تسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالا على صاحب الاقطاع
او المتسلم ، و خراباً على البلاد و اهلها من كل وجه .

و الدولة قلما سعت الى استئصال شأفة الشر من اساسه ، و ما بحثت قط في اسبابه
فتلافتها قبل وقوعها ، و قلما اهتمت للفتن الا اذا التهب شرارها و خشي منها على سلطانها ،

وندر ان اعدت المستعدين ، ورفعت ظلامه المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها
تضربه بعسكر من اهل القطر الاقرب اليه ، ان لم تستطع ضربه بابناء بلده انفسهم ،
واذا خافت من والٍ أو صاحب اقطاع قوة تسلط عليه خصمه او جاره ، فالناس ابداً
متعادون متشاكسون ، والالفة ارتفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف
العناصر ، وما ذلك الا لتنفيذ رغائب السلطان الذي لا يرى لمملكته بقاء الا اذا
تباغض الناس ، وتربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر .

بدأ القرن وعبدون باشا والي صيدا يهين البلاد بمظالمه ، وجعفر باشا والي دمشق
ليس دونه في انشاء المظالم ، اما الامراء المتغلبة من ابناء البلاد فكان اكثرهم من
احفاد الذين سبقوهم في غزاة ونابلس وعكار ولبنان ووادي التيم وبعلبك وهوران
والكرك وسلمية . قال راشد : ان بعض اعيان دمشق اغراهم المال والاقبال فارادوا
الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة ، فكادوا لواليتهم حمزة باشا وطرذوا عسكره الى
خارج دمشق وقاموا بافعال شنيعة رافعين علم الثورة ، فنقل حمزة باشا الى ايلة طرابلس
واخذ الاهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا اهدوه اليه من الكراع والبسط وغيرها
ونهبوا اتباعه . ثم عين احمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التكنيل بهم وخلفه
مصطفى باشا مكانه فاضطر ايضاً لالقاء حبلهم على غاربهم . ولما عين كورجي محمد باشا
أجريت عليه التذيبات اللازمة ليطهر البلاد من هؤلاء الاعيان فدعا الوالي
تسعة منهم كما دعا العصاين محمد اغا صدقة ومحمد اغا قوشجي وبطش بهم وارهب
غيرهم من الخوارج .

هذا ما قاله راشد في هذه السنة ، ولم يقل ان والي دمشق ارتشى من الناس
وظلمهم حتى تاروا عليه بل قال : انهم اهدوا اليه ايام ولايته وطلبوه بهداياهم لما رحل
عنهم فابانوا عن صغر نفوسهم ، وهذا مما يظهر ذهنية الدولة في تلك الايام ، وان الوالي
يجب ان تهدي اليه الخيول والطنافس والاعلاق ووربا الدنانير والدرهم من غير نكير .
وما ندرى كيف تكون الرشوة ان لم تكن هذه الهدايا هي الرشوة بعينها .

وفي تقرير لا حد قناصل البندقية أن منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من
٨٠ الي ١٠٠ الف دوكا ومنصب الدقتردار يساع من ٤٠ الي ٥٠ الف دوكا

ومنصب القاضي يساوي أقل من هذه القيمة ، وكلهم اذا جاؤا البلد الذي عينوا له
يسابون النعمة و يعرقون اللحم و يكسرون العظم .

دور احمد الثاني ٦ توفي السلطان سايمان الثاني سنة ١١٠٢ فتولى السلطنة
وقتن ٧ اخوه السلطان احمد الثاني وهو الخادي والعشرون من
ملوك آل عثمان والسادس عشر منهم في القسطنطينية . وفي أيامه (١١٠٣) عاقبت
الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم في معاملة حمزة باشا على ما تقدم ، وأرسلت حملة
على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين في الجبال الصعبة المرنثي القريبة من
طرابلس كما قال راشد وكان لهم قبائل وعشائر ، فانفقوا مع أبناء معن حكام صيدا
وبيروت ، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة ولكن لا يؤدون اليها مطالبها في آخر
السنة ، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت الى محافظ الايالة المذكورة الوزير علي باشا
بجمع ما تيسر له من الاجناد وذهب الى جبالهم التي امننعوا فيها فقتل منهم كثيرين
وأخذ زعماءهم وجعلهم طعاماً لسيوف رجاله ، وطلب أبناء معن الايمان فأجيبوا اليه
وتخلصت المقاطعات من تعديهم وظلمهم . ونزع الحكم من آل حمادة وكانوا في بعلبك
والهرمل وعكار وجبيل والبترون والضنية والزاوية والجة وانهزموا على طريق العاقورة
فلمحتهم العساكر ومات منهم ومن عيالهم نحو مائة وخمسين نفساً من الثلج ، ولما وصلوا
الى قرية الفرزل انتهم العساكر وأبادتهم ولو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد
منهم وحُرقت القرى وقتلوا منهم وقرضوهم على بكرة أبيهم . ونوجه (١١٠٣)
الامير يونس شهاب ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل ونهب ورجع الى وادي
التيه ، ثم أرسل والي طرابلس الى الامير احمد بن معن يعرض عليه القطائع التي كانت
لال حمادة فلم يقبل ابن معن ذلك وأجاب انه لا يمكنه قبولها بسبب خراب البلاد ،
وأخذ والي طرابلس يتأثر من بقي من بني حمادة في السهل والجبل حتى أفناهم
واستعان بولاية دمشق وصيدا وحلب وغزة على قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة
عشر ألفاً فهرب ووسد الامر الى الامير موسى اليميني بن علم الدين .
وفي سنة ١١٠٥ علي رواية راشد رأيت الحكومة ان أبناء سرحان حمادة

عادوا فينجم ناجم شرورهم وأخذوا ينفقون بمعاوضة ابن معن لهم ، فأقامت الدولة الوزير طورسون باشا قائداً عاماً عليهم ، فجمع من أطراف سورية الف مقاتل من العرب والاكراذ ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو وحكام سورية فالتقى عشرون الف مقاتل في بعلبك والبقاع ، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة وتأثرتهم العسكر فقبضت عليهم وأوردتهم حنفهم وظهرت تلك البلاد منهم اه .

وفي سنة ١١٠٦ عينت الدولة متسلماً على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدي والظلم فقام الحمويون وأخرجوه من البلد قهراً ، فذهب الى المعرة وأرسل شكاية الى الدولة ينسب فيها التعدي للحمويين وان حسناً الدفتري المشهور بابن قنبرق هو مثير الفتنه فجاء الامر بقتله فقتل في داره سنة ١١٠٦ . وكان لسان حال الدولة أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا العمالي .هما كانت سيرتهم والا قاتلتكم ، ومن فتح فاه بالشكوى أنتم منه بما يستحقه ، فهذه خطي ، وبالرضى عنها ننالون حظوتي .

دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن } توفي السلطان احمد الثاني سنة ١١٠٦ وكانت مدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر ، فنقل السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني فكتب مصطفى باشا والي صيدا الى السلطان الجديد يقول انه لا يمكن ان يحكم بلاد الدروز سوى بيت معن وأظهر استعداد الامير احمد بن معن لذلك ودفع مائتي كيس للطبخ فورد العنقولا بن معن مع أوامر الولاية على البلاد . وزاد أرسلان باشا والي طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فقشنت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء والظلم وركب والي دمشق على حاصبيا وقطع توتها .

وفي سنة ١١٠٩ توفي الامير احمد بن معن فانقرضت بموته الدولة المعنية لانه لم يكن له ولد ذكر فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات وهي الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب من عمل لبنان ، واختاروا الامير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم حاكماً على لبنان فتولاهوا وأحبته الناس وأطاعوه لعدله وكرمه قال الامير حيدر : كانت البلاد يومئذٍ حزبين احدهما بنو قيس والاخر بنو يمن

وكانت القيسية اكثر وأقوى وكانوا راضين بولاية الامير بشير، وأما اليمنية فلم يرتضوا به ولكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم وقتلهم .

وفي سنة ١١١٠ تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا وإيالة صيدا اخوه قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة وقصد العصيان فاستجد قبلان باشا بالامير بشير الشهابي ، فجمع الامير بشير ثمانية آلاف رجل وكتبوا مشرفاً في مكان يقال له المزريعة ، فقبض عليه الامير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم الى الباشا فأمر بشنق حسين المرجي واعطى الامير بشيراً إيالة صيدا من بلاد صفد الى جسر المعاملتين ، وأجر قبلان باشا بلاد آل علي الصغير للامير بشير فأقام عليها متسلماً الشيخ محموداً اباهم وموش . وفي هذه السنة أطالت عنزة وبنو صخر أيديها على الحجاج ، وكان يعهد الى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج ولهما رواتب مقرررة عليه ، وقتل منها خمسون رجلاً في القيود فانقموا من الحجاج وأخذوا أموالهم وعروضهم ، ودخل محمد باشا ابو قاقوق الى دمشق بصعوبة . وحوادث البادية تكرر في العقد الواحد مرة او مراراً فيهلك فيها من العربان وأبناء المدن خلائق : لان عيش البادية منذ القديم من الغزو والدولة لم نفتح لهم موارد ليعيشوا منها ويكفوا أذاهم عن الحجاج والتجارة . ولقد اثني الاجانب على والٍ من ولاية حلب اسمه يوسف باشا جاء في أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد وقالوا انه كان يحكم بدون ان يظلم و يسلب ، وان استقامته جلبت الخير والبركة على البلاد ، وقد جاء حلب في تلك الحقبة واليان اسم احدهما قائم مقام يوسف باشا تولاهما سنة ١١١٢ ثلاث سنين والآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاهما سنة ١١٢٥ ولا نعلم ايها اثني عليه الفرنج .

وفي سنة ١١١٥ خلع السلطان مصطفى الثاني	} عهد احمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين داره
بعد ان حكم ثمان سنين وتسعة اشهر وعشرة	
ايام وتولى السلطان احمد الثالث وهو الثالث	

والعشرون من آل عثمان . وفي تاريخ راشد ان محمداً تقيماً أشرافاً القديس نغلب

سنة ١١١٨ على الحاكم والوالي وأخذ يبت الفساد في تلك الارحاء فأرسلت الحكومة التي انكشاري وثلاثمائة جبه جي ومئة مدفعي لتقوية مركزها في القدس فوقع بينه وبين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن الى الفرار واخفى في قلعة طرطوس فبلغ واليها امره فأرسل فقبض عليه وأرسله الى الاستانة فقتل . وما ندري معنى لقول المؤرخ ان نقيب القدس أخذ يبت الفساد في تلك الارحاء ، بل نعتقد ان ثورته لرفع فساد العمال وسوء الادارة ، يعرف ذلك من عرف ان القوم اعتادوا في كتاباتهم الرسمية ان يلقبوا بالفسدين كل من كانوا من المصلحين ، بيد انهم مفسدون لامرهم ، عاملون على نقض أساس مجدهم . كما وقع في هذه السنة ايضاً وقد أراد سليمان باشا البلطجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها واحداث بعض مظالم فتمعه أعيان دمشق ومنهم أسعد البكري وعبد الرحمن القاري وسليمان المحاسني فنظام الى صيدا وعرض للدولة اموراً عنهم لم يأتوها ثم أعيدها الى بلدهم واعتذر الوالي عما عزا اليهم . وفي سنة ١١١٩ توفي الامير بشير الشهابي وخلفه الامير حيدر الشهابي فركب في السنة التالية لغزو بلاد المتاولة لان المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الامير بشير بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الامير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان ، فغزاهم الامير حيدر برجال بلاده وتجمعت المتاولة في قرية النبطية فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع الى بلاده فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوي الامراء اليمنية في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم . وفي سنة ١١٢١ تعاضم امر اليمنية في بلاد الشوف وتظاهر الامراء بنو علم الدين بذلك وساعدهم الامير يونس أرسلان حاكم الشويفات ومال اليهم من القيسية الشيخ محمود ابوهرموش ، ثم وسد الحكم الى الامير يوسف علم الدين واخيه الامير منصور ، وكان زمام ولايتها في الحقيقة بيد الشيخ محمود ابوهرموش فغاروا على القيسية وظنهم ولم يبقوا لهم منزلة ولا حرمة . وفي هذه السنة أحرق الامير يوسف مع عسكر الدولة بلدة غزير ونهبها ، وسار والي دمشق الى جبل عجلون وياغت بلاد نابلس وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وسبي عسكره نحو سبعمائة امرأة .

وفي سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الامير حيدر الشهابي امراً الى قيسية

الشوف فجمعوا في رأس المتن ، فلما بلغ اليمنية ذلك أرسلوا الى بشير باشا والي صيدا فحضر الى حرج بيروت ، وأرسلوا الي نصوح باشا والي دمشق فحضر الى البقاع ، واجتمع القيسية من الغرب والجرد والشوف الى عين زحلنا في العرقوب ، ثم انقلوا الى عين دارة ، وجرى الاتفاق ان تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت الى بيت مري في اول المتن ، وان يطلع نصوح باشا الى المغيثة في طرف المتن ، واليمنية الى حمانا في وسط المتن ، وتمشي الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية ، فأجمع رأي القيسية مع الامير حيدر الشهابي ان يباغتوا اليمنية في الليل في عين دارة ، فباغتوهم واعملوا فيهم السيف ، وقاتلت اليمنية أشد قتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين دارة ، وما سلم من اليمنية غير قليل . وفي تلك الليلة قتل خمسة امراء من بني علم الدين وأمسك الشيخ محمود ابوهرموش وقطع الامير لسانه وأباهم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم أمرهم ، ونزح من كان ينجياً من البلاد وخربت ديارهم وزال ذكر اليمنيين من الشوف وحكم الامير حيدر ، وأعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدم به ، وكثرت مشايخ البلاد في أيامه . وتعرف هذه الواقعة بوقعة عين دارة التي قتل فيها جميع الامراء من آل علم الدين بيد الامير حيدر الشهابي فانقرضت بموتهم سلالة آل علم الدين كما ضعفت شوكة اليمنيين واي ضعف .

* * *

فتن ومظالم مستجدة } وفي سنة ١١٢٢ ركب نصوح باشا على الكرك وعمل
 وظهور آل العظم } لغياً ووضع فيه البارود وأعطاه النار فانهدم جانب من
 السور فصاح أهلها الامان وخرجوا عن القلعة فقتلهم وأسر الاولاد وسبي النساء .
 وفي سنة ١١٢٣ باغت ناصيف باشا والي دمشق المتن وأسر منها أناساً كثيرين
 وسبي النساء والاولاد . وفي سنة ١١٢٤ عهد والي صيدا بولاية بلاد بشارة الى
 الامير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة .
 وفي سنة ١١٢٩ تولى دمشق عبدالله باشا الكركجي (كوبرلي) وكان عادلاً
 حكماً لكنه لم تطل مدته اكثر من سنة . وفي سنة ١١٣١ كانت وقعة القرية بين
 الامير حيدر الشهابي والمشايخ المتأولة وكانت النصره للامير حيدر . وفي سنة ١١٣٣

كانت الفتنه بين مشايخ المتاوله والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد وجرى بينهم قتال شديد فانهمز عسكر الصفد بين وقتل منهم خلق كثير ثم خرج عثمان باشا والي دمشق بالعسكر على بلاد صفد وقتل منهم اكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق اولاد مشايخ بلاد صفد .

وفي سنة ١١٣٦ كان الظلم شديداً وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرورها وكثر الظلم واستلاب الاموال . وثارت (١١٣٧) فتنه بين القبوقول والانكشارية وظلت دمشق ثلاثه ايام مقفلة وقتلت فيها جماعات من القول والرعية وكذلك الحال في حلب .

وعرف هذا الدور بظهور آل العظم حكاماً في الشام ، واختلف الباحثون في أصلهم فمن قائل انهم أتراك من قونية ، ومن زاعم انهم عرب من المعرة معرة النعمان . تولى دمشق (١١٣٧) اسماعيل باشا العظم وكان من قبل والياً على طرابلس وهو اول من تولى إيالة دمشق من بني العظم ، وقال بعض المؤرخين : ان ناصيف باشا كان والياً على دمشق وقتل في الرملة سنة ١١٣٠ وعلى هذا فيكون هو اول من تولى دمشق من هذه الأسرة . ذكر ابن مبرو ان والد اسماعيل بن ابراهيم العظم كان جندياً سكن معرة النعمان وكان لاهلها مع التركات التي ترد الى جبلها شتاءً وقائع جرح في بعضها والد المترجم فتوفي وأعقب المترجم اسماعيل وسليمان وموسى ومحمداً وكلهم أعقب خلا محمداً وكانت ولادة اسماعيل قبل السبعين والف بالمعرة وبها نشأ ، ونقلت به الاحوال الى ان صار حاكماً ببلده ثم بحماة ، وأنعمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملي ومالكانة حاة وحمص والمعرة عليه ، وعلى اخيه سليمان ومنصب طرابلس عليه وسر عسكر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة ١١٣٨ تولى الشام وإمارة الحاج بالوزارة وجمع ست سنين وحارب في السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين فعزل وامتنح سنة ١١٤٣ وحبس بقلعة دمشق واستأصلوا أمواله مع اموال ذويه وأفرج عنه سنة اربع واربعين وولوه خانية وأعقب السيد ابراهيم واسعد وسعد الدين ومصطفى وكلهم تولوا الوزارة خلا الاول فانه توفي بحماة سنة ١١٥٩ وهو برتبة روملي معزولاً من صيدا .

وفي سنة ١١٤٣ توفي الامير حيدر الشهابي حاكم لبنان بعد ان حكم ستاً وعشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابي بالعدل والحلم والكرم وحسن التدبير وخلفه ابنه الامير ملحم ، والامير حيدر هو الذي أحيا ذكر القيسية والتي ابنه الفنسة بين مشايخ البلاد فاختلفوا ، وكانت الدولة لا تقدر عليه على بغض اسعد باشا العظم والي صيدا له وسعيه به .

تنازل السلطان احمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣) } عهد محمود الاول
بعد ان حكم ثماني وعشرين سنة وتسلطن السلطان محمود الاول وهو الرابع والعشرون من آل عثمان والتاسع عشر منهم في القسطنطينية ، وكان السلطان احمد الثالث غربياً في أطواره يحب الطيور والازهار ، ويقضي أوقاته في تسلية سراريه بالافراح والزين ، ومع هذا يسجل له الفضل ورجاحة العقل في حسن اختياره ضدوراً عظماً شرفوا باعمالهم عهده فلم يكن كبعض اجداده لا يعمل ولا يترك أحداً يعمل .

وفي هذه السنة وقع بين القبوقول والانكشارية الحرب والقتال وأغلقت دمشق اربعة ايام وقتل من الفريقين شرذمة . وفي سنة ١١٤٤ استأجر الامير ملحم الشهابي بلاد بشاره وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت اخوته فهربوا فقتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم ونهبت الدروز تلك البلاد ، وعاد اولاد الشيخ نصار واستأجروا البلاد من الامير ملحم .

قال الشهابي في حوادث سنة ١١٤٧ انقل اسعد باشا العظم من إيالة صيدا الى إيالة دمشق وكان والياً عليهما منذ سنة ١١٤٣ — وتولى إيالة صيدا اخوه سعد الدين باشا والي طرابلس وتولى طرابلس سليمان باشا العظم وقويت شوكة بني العظم في بلاد العرب وعظمت دولتهم اه . عظمت دولتهم لانهم اخلصوا في الغالب للدولة كل الاخلاص حتى أمنتهم ووسدت اليهم الاحكام في الشام وتركهم يعملون ما يشاؤون ، وجاء دور وهم حكامها من اقصاها الى اقصاها وقل جداً في هذا القرن من تولى ولاية حلب او دمشق او طرابلس او صيدا او اللاذقية او غزوة بضع سنين . ومن

بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين ، فان اسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧ - ١١٤٣) ، وسليمان باشا العظم تولاهما خمس سنين للمرة الاولى (١١٤٦ - ١١٥١) وثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤ - ١١٥٦) واسعد باشا العظم تولاهما اربع عشرة سنة (١١٥٦ - ١١٧٠) وكان تولى صيدا اربع سنين ومحمد باشا العظم تولى دمشق مرتين اثني عشرة سنة ، وكان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن وبني شهاب وبني الحرفوش وبني سيفا وبني طرابيه ومنهم الصالح والطالح وهل هم الامموزج من عصرهم ، ولا شك انهم جمعوا أموالاً كثيرة لان حكوماتهم طالت ايامها والولاية بالالتزام فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضي الاستانة بمبلغ ويبقى له بعد كل اسراف مبلغ كبير وهو الحاكم المتحكم في ثروة البلاد والافراد . وقد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة ١١٥٦ وعذب المفوض بذلك أسرته على أشنع وجه ، وكذلك ضبطت اموال ابن اخيه اسعد باشا وأخرجت الدفائن من قصره وكان بعضها مخبوءاً في الارض والجدران والاحواض وبوت الخلاء وفعلت مثل ذلك باتباعه ورجاله . قال الشهابي : ان اسعد باشا العظم بنى ابنية عظيمة في دمشق وجمع مالا لا يحصى وسار بالحج مرات فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى وأمرت ان لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ثم أرسلت اليه فقتلته في الحمام طمعاً بكثرة امواله وضبطت ماله وأملاكه وقال : انه كان جليلاً عاقلاً حسن التدبير مولعاً بالخيل الجياد حتى قيل انه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لاجل ركوبه .

وذكر الدويهي ان السلطان محموداً أنعم على عبدالرحمن افندي (١١٦٥) محصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلماً حسن اذا الى طرابلس فأمن الخواطر ونادى بالامان وصار الفلاح ينزل الى طرابلس آمناً على نفسه وأرخص الاسعار ومهد الامور التي كانت متبلبلت من ظلم بيت العظم ، وكذلك فعلوا باسماعيل باشا في الشام وباخيه سليمان باشا ووالي صيدا وباسين بك بن ابراهيم باشا والي اللاذقية من قبل ابيه واسعد بك بن اسماعيل باشا والي حماة وحسن بك اخي اسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعاً سجنوهم وأخذوا اموالهم للسلطنة وولوا على صيدا احمد باشا بن عثمان باشا

ابو طوق اه . وقال فولنييه الرحالة الفرنساوي : ان بني العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة .

وترجم ابن ميرو اسعد باشا العظم فقال : انه لما وسدت اليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات وبساتين ودوراً ليس لذلك كله في البلاد الشامية نظير ، ثم ولي صيدا فاستعفى منها وطلب حماة منصباً بعد ان كانت مالكانة له ولعمه فرفعت منه المالكانة ووجهت له منصباً ودخلها سنة اربع وخمسين ومائة والف وبذل الاموال الى ان جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا والي جدة سابقاً . وفي سنة ست وخمسين تولى دمشق وإمارة الحجاج لموت عمه سليمان الوزير وحج بالتحجيج اربع عشرة حجة وعزل عن دمشق وإمارة الحاج بالوزير حسين باشا مكى وولوه حلب ثم عزل عنها ونفي الى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالتحجيج وقتل بمدينة انقره . وقال في ترجمة أسعد باشا ايضاً : انه كان محموداً في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وظأئينة ، وكان صبوراً صبراً على زُرب الاحداث الاشقياء في الشام حتى أخذهم الله على يده ، وأذاه عرب حرب ففبر على اذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير المرحوم عبد الله باشا جته جي ، وكان له صدقات وإدارات على بعض العلماء بالشام والخرمين .

وقال جودت في وقائع سنة ١١٩٧ وفيها توفي والي الشام وامير الحاج محمد باشا العظم بعد ان اقام في وظيفته اثني عشرة سنة ولما كان وزيراً مشهوراً من اهل الثروة والغنى عين مباشرين مخصوصين من الاستانة لضبط امتعته وامواله . وقد اثني المرادي على محمد باشا العظم هذا فقال : ان له من المآثر في كل ولاية وليها ولاسيما في دمشق ما يحسن ذكره وانه رفع المظالم وانشأ المعالم قال : وبالجملة فهو من احسن من ادركناه من ولاة دمشق واكملهم رأياً وتديباً .

والغالب ان الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بني العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحدثهم انفسهم بنزع ايديهم من يدها ويدفعون اليها الخراج في اوقاته ، ولذلك كانت ترعاهم على الجملة في حياتهم وتتركهم يستمتعون بنعمها ، فاذا هلكوا جاءت ووضعت يدها على عروضهم واموالهم كما هي عادتها ، ولعلها استبطأت

اسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخنقته . وبالجملة فان احوال ذاك العصر بصعب
الآن الحكم عليها لقلة من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح .

* * *

قن وهشاحب } رجع الى سلسلة الحوادث . فقد توفي سنة ١٠٤٨ الامير محمد
فروخ النابلسي وكان من شجعان الدنيا تولى حكومة القدس
ونابلس فأرهب العربان وكبر صيته وبقي في امارة الحج ثمان عشرة سنة ، وبلغت رهبته
في قلوب العربان وكانوا اذا ارادوا ان يخوفوا احداً منهم يقولون ها ابن فروخ
اقبل فنلوى قوائمه . وفي سنة ١١٥٢ كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ
احمد فارس واولاده ورفعت القبوقول والاطول من بلاد الشام (١١٥٢) خلبت سيرتهم
وهاجم (١١٥٦) الامير ملحم الشهابي بلاد المتاولة ووصل الى قرية نصارفالتي بساكرهم
وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم ألفاً وستائة قتيل وقبض منهم
اربعة مشايخ ونهب بلادهم واحرقها ، وباغت والي صيدا والي طرابلس والي دمشق
بلاد الامير ملحم الشهابي في لبنان لتأخره عن اداء المال السلطاني واحرقوا اقليم النفاح
ومرج بشرة ثم وقع الصلح وادي ما عليه . وجيز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي
دمشق عسكرياً على الظاهر عمر الزيداني بعد ان قبض على اخيه مصطفى وشنقه بدمشق
فلما وصل الوزير الى قرب عكا لحصارها رشما ظاهر العمر بعض اتباعه فادخل على
سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به الى دمشق في اكثر الروايات وسليمان
باشا هو ابن ابراهيم ولي طرابلس وصار جرداواً لآخيه شقيقه الوزير اسمعيل ثم ولي
صيدا ، وبها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بامارة الحج
وحج خمساً بالحجيج الشامي ثم ولي مصر وعاد الى دمشق فوليها سنين .
وفي سنة ١١٥٧ كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاولة واهالي وادي
التيم ومعهم دروز جبل الشوف وكانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيم وقتل
منهم نحو ثلثائة قتيل وحرقت المتاولة جميع قرى مرج عيون .
وفي سنة ١١٥٨ ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية ، وامر اسعد
باشا العظم حاكم الشام ان يقصدوا سوق ساروجا واطلقت المدافع فخربت الدور ونهبت

دار رئيس الفتنه وخربت وجرت القافية بقية الدور ولم يبق من سوق ساروجا الا القليل واعمل اسعد باشا السيف بكل عاص وقتل عسكره اناساً وسلبوا الدور واحرقوا بعضها ، ثم صلب كثيرين وبقيت المشنقة اياماً لا تخلو من مصلوب اتهم انه كان يمالئ ارباب الدعارة على رغائبهم ، وتركت جثثهم اياماً امام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت اكواماً ، وصارت المدافع تطلق بكرة وعشية مدة شهرين وكثر العزف بالابواق واطلاق السهام النارية في الفضاء .

وفي سنة ١١٦٠ غزا اسعد باشا العظم والي دمشق البقاع فركب الامير ملحم الشهابي بعسكر بلاده الى المغيثة ونزل اليه عند برالياس فانكسر الباشا ووصل الامير ملحم الى سهل الجديدة ثم رجع واحرق جميع قرى البقاع ورجع الى بلاده منصوراً وهابته الدولة . والسبب في هذه الفتنه تأخر الامير ملحم في دفع الاموال الاميرية علة العلل واصل معظم الفتن ، وغضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها ، فحضر رئيسهم احمد آغا القلطيحي ومعه عدة اغوات الى جبل الشوف ، واجتمعوا عند المشايخ بني يزبك وكانوا ينزلون وينهبون من نواحي دمشق ويقطعون الطريق واحرق الامير ملحم ديار بني تلحوق في الغرب وديار بني عبد الملك في الجرد .

وحاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة اشهر فادركه ركب الحج فانفزع عنها ولما خرج الباشا الى الحج ارسل الامير ملحم عسكراً الى بلاد بعلبك فطرد الامير حيدر الحرفوش وولى مكانه الامير حسيناً ، وخربت الدروز بلاد بعلبك وقطعت اشجارها . وفيها حضر خط شريف بقتل اغوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالي على بعضهم وقتل ابن الفلاقنسي . وذكر ابن بدير انه بلغ متسلم دمشق سنة ١١٦٢ ان بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاؤا دمشق ينهبون ويحرقون فأرسل الى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بان يأخذوا معهم الاعلام وينادوا هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج الى قتالهم . « فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة وكان الدروز يحتجون بان قدومهم كان لاجراج اخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقيبات كل من لا يخرج للقتال معنا نهب ماله وداره ، فانضم جماعة من الحارات ونزلوا الى السويقة ووقع القتال بينهم

وبين القبوقول والدالاتية ، واغلقت البلد حوايتها وحصرت الحارات ونه المتسلم على اهلها ان لا يخرجوا الى الازقة ليحرسوا دورهم ، ثم جرت مقنلة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول .

ثم فتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ليلاً ونهبوا ما فيها من طعام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال وزحفوا الى السويقة ومعهم العملة والبنائون فحرقوا الدور والقصور واطلقوا المدافع على الاشقياء فولوا الادبار ، فامر المتسلم عسكره ان يقعدوا في نهب الدور والدكاكين . وروي انه اخرج فتوى وحنة وامراً قاضياً بان ينهب الجند من حد السويقة ويقتلوا ويهدموا ولا يعفوا عن انسان ، فسلبوا الاموال وسبوا الحرير ، ودام الامر الى وقت العصر فردهم الاشقياء والدروز ونصرهم اهل الميدان .

ولما هرب الدروز نودي في البلد بالامان وان تفتح الاسواق ويكف عن النهب قال ابن بدير : وقد سرت مع من سار فرأيت فضاخ الميدان ، والقنلى مجدلة ، والابواب محطمة ، والدكاكين مقفرة ، ثم اضطرب اهل القبيبات والميدان والسويقة وباب المصلى واخذوا ينقلون اثاثهم الى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوات وغيرهما من الحارات . وخاف الاكابر والحكام والعامه فجعلوا يعزلون الدكاكين ويخبأون ما حوته في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الوقعة كما قيل الفاً وتسعمائة دار واما الحوانيت فكثيرة جداً .

هذا وقد اخذ القبوقول يسكون الناس ويأتون بهم الى الحكام ويقولون : هذا كان يقاتل مع الاشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة ولا اثبات ، ولا قصد للقبوقول الا اخذ ثارات لهم مضت مع الانكشارية ، الى آخر ما اصاب دمشق الشام في ذلك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع . وكان من العادة ان تغلق اربعة الفخياء وحوايتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والانكشارية وبينهم وبين الدالاتية والاشراف والاكراد والدروز ، حتي ينادي منادي من قبل الحاكم بأمر بفتح الدكاكين ويطمئن الناس .

وجاء دمشق (١١٦١) أحد موالي اسعد باشا العظم وكان نقل بعد ولايته دمشق

الى حلب ، فذكر الانكشارية والعامه ظلمه ايام كان سيده حاكماً في دمشق فقاموا
 قومه رجل واحد فالتجأ الى القلعة وحماه القبوقول ولما أريد على الخروج من دمشق ابي
 فأغلقت البلدة دكا كينها ومحالها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس وتعصب العناتبة
 والاكراد والبالاتية مع القبوقول وأهل حارة العارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية
 وأطلقت النيران على الانكشارية ثم قاموا على أهل حي العارة فانهزم أهلها منها
 وأحرقوها حتى صارت بلقماً وراح أهلها الى الجامع الأموي ودامت الفتنه اياماً
 حتى قر رأي الاكابر والامراء على اخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج ولم
 تظناً جذوة الفتنه لان الثائر ين ما زالوا يملظون بطعم الغنائم ويزردون حلوى الغارة
 وجاء الخبر بان الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الانفس وهتكوا
 الاعراض وصادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً . وأخذ
 القبوقول يطلقون النار على الرعية وظلت الفتنه قائمة في البلد بين القبوقول
 والانكشارية والاشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة اولاد وثار الحرب
 في شوارع المدينة اياماً ثم عتا الانكشارية على حاكم دمشق فصاح في جنده وركب
 الى الميدان فهربوا أمامه فأعمل وجنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ومن
 لم يمت بالسيف قاده بالسلاسل والاغلال ، وعم نهب العسكر الكبير والصغير والناس
 بين قتيل وأسير ، ونهبت الدور والدكاكين وانكبت الفيحاء نكبة عظيمة فعريت
 النساء وخطفت الجواري والعداري ، وتمنى العقلاء الموت ثم نهض جماعة الحاكم الى
 النهب فمنعهم وأمر بجمع ما نهبوه فما وصل الا القليل أودعه بعض الجوامع وامر منادياً
 ينادي لتأخذ الاسلاب اصحابها ، فأخذ بعضها وذهب الاكثر ، واما اتباع الوالي
 فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه ويقطعون رأسه او يجسونه ، ونناول أذاهم من في
 الدور وتعست الحال .

ووصف ابن النجار هذه الفتنه فقال : ان السلطان ارسل والياً آخر غير الذي كان
 وجرث هذه الوقعة في عهده فقتل الاشقياء من المسلمين والدروز والنصارى وخربوا
 وحرقوا الدور ونهبوا الاماكن قال : وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق
 قر بياً من سنة لا تقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتح جامع ولا يتمكن احد من الخروج

من منزله حاجة ولا غيرها ، لفسادهم وفسادهم وتعديمهم على الخاص والعام . وانما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود والٍ بدمشق فان واليها كان خرج منها الى الحج اميراً فجاء الوالي الثاني وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده كل بؤس ، وذلك بسبب قيامهم على اولئك الاشقياء ، وانتهت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من الابرياء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم وقال : ان هذه الفتن وقعت سنة ١١٧٠ وارسل عبد الله باشا الشنجي والياً ليرفع الحيف عن الدمشقيين واعادة الامن الى طريق الحج ، واشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول والانكشارية ثم فر الانكشارية طالبين البراري والقفار فتمتعهم نفر من الجند وقتلوا منهم عدداً ، ثم ان الجند اخذ في قتل من يراه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والحوانيت من حدود الحلقة الى باب الجابية والجند يأتون بالرؤوس الى الوزير ، فقتل من الرعايا على هذه الحال عدد كثير وانتهب المال والمتاع ، وظلم رئيسهم وحواشيته واختطف النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع ، والجند يقولون ان جميع الدمشقيين كفرة وانهم قوم يزيد . قال الشهابي في دخول والي دمشق الجديد الى المدينة : انه كان مع الشنجي ثلاثة عشر الف رجل فاجتمعت اهالي دمشق الى الميدان لينعوه من الدخول فدهمهم ليلاً وقتل منهم مقنلة عظيمة .

وفي سنة ١١٦٣ حصل بين سعد الدين باشا العظم وبين اهل حلب وحشة فوحد عنها جرداويماً « وكان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لانه لم يتول هذه الايالة في الدولة العثمانية احد استقلاً لقلّة دخلها ووفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويماً لاختيه اسعد باشا الوزير فأقام جرداويماً فيها وفي صيدا وحلب اثنتي عشرة سنة » روى الشهابي في حوادث سنة ١١٧١ انه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق والقبوقول وكانت دروز الجبل تعين الانكشارية في القتال فاننصروا وقتل من الفريقين اربعون قتيلاً ، وحاصرت القبوقول في القلعة وجرى بينهم اربع وقائع ، والانكشارية

ثنتصر بامداد الدروز ، ثم وقعت الفتن بين عسكر الباشا وعسكر الانكشارية فانكسر
عسكر الوزير وخرج الانكشارية من دمشق نحو الف فارس ووقع القتال بين اهل
البلد وعسكر الوزير فقتل من اهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالامان .
وعدد ابن بدير كثيراً من مظالم الدفتردار فتحفي افندي ومما قال : ان الاهلين
لما ضاقوا به ذرعاً استعدوا الباب العالي فاعداهم ، فأحضر الى العاصمة ليمثل بين يدي
السلطان ، فاخذ يمنح المنايح لارباب المظاهر حتى ادخلوا على السلطان شخصاً آخر
بدلاً منه واوهموه انه هو المشتكى منه فأمر بقتله فقتل . اما فتحفي فسفره اعوانه من
النظار تحت جنح الدجى فآب الى دمشق ينزل الافاعيل المنكرة ، حتى اذا ضاق الخناق
ورد الامر بقطع رأسه فقطع وجرّ في شوارع المدينة وترك للكلاب نهبه ومثل
ببعض اعوانه وصودرت امواله .

* * *

<p>وبينا كانت دمشق تموج بالفتن وتستل فيها الارواح بسوء ادارة الولاة وتلاعب رؤساء الجند كان لبنان وهو ريب القوة والمقاومة لا يخلو</p>	}	<p>عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الاحداث في ايامها</p>
--	---	--

على ذاك العهد من فتن تدك العمران ، ونفني الانسان والحيوان ، فقد ذكر المؤرخون
ان المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على اقليم جزين فعظم ذلك على الامير ملحم الشهابي
وركب لحرب جباع الخلاوة فهربت المتاولة من وجهه وأحرق اكثر بلادهم ، وكان
قد اصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع وقتل من المتاولة نحو ثلاثمائة نفس
وحرق حارة جباع وقطع الاشجار هناك ، واحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة ، ثم حدث
بين جماعة الامير ملحم الشهابي ووالي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع
على المسافرين في طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقين ، ثم وقع الصلح بين
امير لبنان ووالي دمشق على ان يؤدي الاول للثاني نفقة الحملة . وفي سنة ١١٦٥
وقعت فتنة بين المشايخ بني ابي نكد فغضب الامير ملحم الشهابي عليهم وأرسل فنفساهم
من البلاد فزجوا الى وادي التيم وهدم منازلهم في دير القمور ثم رضي عنهم . وكانت

للسيد احمد باشا الذي كان والياً في حلب سنة ١١٦٥ الحظوة عند رجال الاستانة قال ابو الفاروق : فعينوه والياً على قونية فسبقه اليها زوربا كورد محمد ، واثار افكار أهلها عليه لما عرف به من المظالم ، فخاربه وهلك أناس في هذا السبيل ، ثم عينه الدولة والياً على حلب فسبقه اليها كورد محمد ايضاً ومثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر ، ودامت الحرب في حلب مدة وأحرقت البيوت وخربت البساتين وقطعت المياه عن البلدة .

وفي سنة ١١٦٨ توفي السلطان محمود الاول بعد سلطنة خمس وعشرين سنة وتولى السلطنة السلطان عثمان الثالث وهو الخامس والعشرون من آل عثمان ولم يعمل عملاً يذكر اللهم ما كان من تبديل وزرائه والافراط في هذا التبديل ، وكان يميل الى الطرب والصفاء ويعمر الابنية في العاصمة وأسس بعض دور الكتب . وفي خلال ذلك تولى دمشق وامارة الحاج حسين باشا مكّي او الفخر الغزي ولم يكن شرهاً في جمع المال ويميل الى العدل وحسن الرياسة غير انه كما قال المرادي : كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء ، فبسبب ذلك حصل من البرليسة (الجند الوطني) والقبوقول (الحرس) وغيرها من طوائف الاكراد والعسكر فتن وحروب ، وحصل للاعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس .

وفي سنة ١١٧٢ هلك السلطان عثمان بعد ان ملك ثلاث سنين وثمانية اشهر وخلفه السلطان مصطفى الثالث فافتتح العهد بالاعلان بتبديل السياسة ولكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام وسيادة الاشمزاز على الناس ، ووضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن وكان رجب باشا ذكياً ومخلصاً .

وفي سنة ١١٧٤ كان والياً على دمشق عثمان باشا الكرجي وكان يلقب بالصادق وسبب هذا اللقب انه كان من بعض مماليك اسعد باشا العظم وهذا يحبه لنباهته . ولما قتل أسعد باشا وضبطت الدولة داره وامواله طلبوا عثمان هذا فاخبرهم بجزائن مولاه ثم وجدت قائمة بين تلك الاموال فكانت مطابقة لكلامه فانعمت عليه الدولة ولقبته بالصادق ، وتولى ولاية دمشق احدى عشرة سنة (١١٧٤-١١٨٥) ومما وقع في ايامه ركوبه لحرب محمد الجرّار الى قلعة صانور من عمل عكا ، ارسل الى الامير

يوسف فبعث بعسكره والنقى به عثمان باشا فعظم امره عنده واكرمه ، واصلح الامير اسمعيل الشهباني حاكم حاصبيا قلعة بانياس وبنى ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن واقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة ونهب عثمان باشا كل ما كان فيها وامر بهدمها .

سيرة ظاهر العمر } استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود والٍ مخلص لها في
الزيداني وسياسته } دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق ، فتركته وشأنه يعمل
باسمها ويقا تل اعداءها ، فطالت ولايته على حين ثقلت حلب في مدة حكمه على دمشق
احدى عشرة سنة في أيدي عشرة ولاة . وكانت البلاد تفتخض في خلال ذلك
بظهور رجلين في العقدين الاخيرين من هذا القرن كما تخضت أواخر النصف الاول
منه بظهور آل العظم ، ونعني بهذين الرجلين الشيخ ظاهر العمر الزيداني واحمد باشا
الجزار . فانهما شغلا البلاد بامرهما ، واهتمت لعظم شوكتها الامة والدولة ، وجاء
الثاني على اثر الاول فبزه ظلماً وعدواناً . ولم يكن قيام امر الرجل في ذاك العهد
يتوقف على نباهة فيه وعلم مهم ، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطبائع من يقوم
فيهم ، وتلطف باستمالة قلوب افراد يعول عليهم ، ورأس مال قليل يؤديه ثم
اقتطاع او نفقة الظهور ، ومهارة في البطشة الكبرى الاولى ودهاء وحيلة ، وعندها
يزيد كل يوم قوة ولا تلبث الدولة ان ترعاه ، والاهلون ان ينفيتوا ظله وحماء .

في اواسط القرن الحادي عشر للهجرة جاء الى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز
رجل يدعى زيدان وله ولد اسمه عمر ولعمر ولدان اسمها ظاهر وسعد . ظعنوا عن
بلادهم لخصومة وقعت بينهم وبين عدواقوى منهم مراساً ، فجاءوا وضربوا خيمتهم في
الاطراف الشمالية من سهل البطوف في ارض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس ولما
كانت قرية العرابة اقرب القرى اليهم جاء وجبء القرية وزاروهم وحيوهم وسألوهم ان
يأتوا الى قريتهم يضربون خيامهم في ارضها لانهم كانوا على اربعة اميال منها . وكان
في قرية سلامة المعروفة اليوم بجزيرة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا
الاسم شيخ درزي قوي الجانب برجاله الاشداء باسط اجنحة نفوذه على ما جاوره من

البلاد . مر بعرابة ذات يوم ووقع نظره على فتاة اعجبه حسنها وطمع فيها لنفسه . ونزل بيت احد وجهاء القرية ودعا اليه الزعماء وطلب منهم الفتاة ، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصاً وهو درزي وهم سنة . وارتبك اهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم : الخطب سهل على ان تعاهدوني ان تعملوا ما اسألكم اياه ولا تبوحوا به فقال : اجيبوا الدرزي الى ما طلب وعينوا له وقتاً يوافيكم فيه لاخذ العروس واذا جاء مع جماعته رحبوا به فاذا استقر بهم المقام خذوا اسلحتهم ثم اتركوهم بهزجون ويرقصون الى حين الرقاد ، وكل واحد منكم يأخذ واحداً الى داره ليؤويه ولما رقد الجميع هب زيدان وافتي جماعة الدرروز ، ثم اغار وجماعته على سلامة مع سكان عرابة فبطشوا بمن بقي فيها وخربوها فعظم قدر زيدان وانضم اليه اناس ممن يحبون الغزو والشقاوة وألف منهم جيشاً يغزو بهم فينزل بارباب النفوذ الويل والخراب . ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة وكان منهم حاكماً طبرية والناصره فقتلها ، فاضى المقادحة بلا زعماء فاحتل اهل عرابة نمرين وغيرها . ولما كبر ظاهر رزق ستة اولاد ذكور فكفله سكان عرابة لدى والي صيدا سنين طويلة فالتزم الجباية وكان بعض الستين يتلصقاً عن اداء ما تعهد به وحياناً يؤدي للدولة حقها ، حتى نمت ثروته واقام في عكا فجعل اخاه سعداً في دير حنا ، واولاده علي في صفد وعثمان في شفا عمرو ، وسعيد في الناصرة وجهات مرج ابن عامر ، وصلبي في طبرية واحمد في تبنة وجبل عجلون (لخصته من مقال في مجلة الزهرة) .

كانت جبال بيروت واعمالها بيد حكامها الامراء الشهابيين يدفعون الاموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة ، وكانت صور وعملها بيد المتأولة يضمنون اموالها من والي صيدا واما جبال عكا وماليها فكانت بيد مشايخها ومن جملتهم بيت ابي زيدان كانوا يضمنونها من والي صيدا ايضاً ، فما زال الامر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتأولة وتزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه واقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس وعمروا قلعة طبرية وقلعة صفد وغيرها وبدأوا يسطون على عكا وصور وظهروا الشقاوة وقطع الطريق فنجح منهم والي صيدا واضطر ان يضمن مدينة عكا الى الشيخ ظاهر العمر ويضمن صور للمشايخ المتأولة وابتدأ الشيخ ظاهر العمر ببني عكا سرايا

عظيمة وسوراً وإبراجاً ويجمع اليه العسكر وانتشرت اعلامه في تلك البقعة واطاعته مشايخ المتأولة ودخلت عرب البادية تحت حكمه « وكان عادلاً في الرعية وسار معهم سيرة مرضية » وساعدته المتأولة في اطراف لبنان فخافه السلطان واوهمه انه يجعله نائبه في القدس ويوليه عكا والناصرية وطبرية وصفد وسائر البلدان التي في تلك الاطراف وانه امير العرب فصدق وكف عن المحاربة . وذكر شوفيه وايزامبر : ان الظاهر عمر نشط الزراعة وقضى على غزو القبائل المجاورة لبلاده من العرب فوفق الى توطيد الامن في الاقاليم ، فكان المسيحيون والمسلمون يهرعون الى نزول بلاده من جميع اطراف الشام لينعموا فيها بالراحة والتساهل الديني .

وقال واصفوه انه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الروسية فضعت الدولة في الاقطار الشامية ، فزاد ظاهر العمر قوة وعدا علي والي صيدا وطرده منها وتملكها وارسل لها حاكماً من عنده ، فاستمر يحارب الوزراء سبع سنين ولم يدفع مالاً للدولة ، وله معهم عدة وقائع انحصر فيها على عساكر الترك وعسكر الدرروز والعربان . وفي هذه الاثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص ابراهيم الصباغ من اهل عكا ، وكان هذا صاحب عقل وتميز الا انه يجب المال كثيراً كما حالف الامير نجر الدين المعني الثاني في القرن الماضي امراء طشقانه في ايطاليا .

واستمر الشيخ ظاهر حاكماً على عكا نحو اربعين سنة الى سنة ١١٨٩ . والسبب في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر وولاة الاطراف ان عثمان باشا الصادق والي دمشق لما وليها سنة ١١٧٤ وكان شديد المكر كثير الدهاء ولى اولاده الاثنتين صيدا وطرابلس ، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر ويطلب المال للسلطان ، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا وخلت خزائنه من المال فأخذ يلج على الاهالي في طلب المال فضج الناس من ظلمه وعصاه اهل الرملة وغزة ويافا ولم يطيعوه الا بعد حروب كثيرة فوقعت البغضاء في قلوب اهل بر القدس وتمنوا حكم علي بك صاحب مصر عليهم وكان هذا قد قوي في بلاده فاطاعته البلاد المصرية .

وحاول عثمان باشا سنة ١١٨٣ ان يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع امراء جبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالي مصر علي بك وكان هذا عزم على رفع لواء العصيان

على الدولة ، وفي قلبه حقد على عثمان باشا فمضى لاقتراح الشيخ ظاهر لانه كان يريد امتلاك بلاد العرب من عريش مصر الى بغداد ، وكان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالباً منها ان تدمه بالمرابك والرجال وهو يملكهم المدن الجبرية في الشام . ولما وصلت اليه رسالة الشيخ ظاهر جيز له ستة سناجق كبار ورأس عليهم اسماعيل بك وأصحابهم بعشرة آلاف من الغز والعربان والمغاربة وأمرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر ثم ساروا الى اراضي المزيريب في حوران وكانوا نحو عشرين الفاً لقتال عثمان باشا فعزل اسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من ترمذ اولاد الظاهر العمر وعشيرته فشكا الشيخ ظاهر الى الامير علي بك مالتى من اسماعيل بك فابتدأ الامير علي يجهز العساكر والجنود على نية الخروج ليملك بلاد الشام .

وفي هذه السنة قبض الامير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا الى وزير طرابلس فأتوا بعسكر الى قرية بزيزا ووقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس وحاصر بعضهم في برج في أسفل القرية وقتل عدة أشخاص ثم سلموا وساروا الى طرابلس ، وفيها بلغ الباب العالي ما فعله علي بك المنقلب اعلى مصر . فأمر والي دمشق ان يسير بخمسة وعشرين الفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي بك فسار الوالي بالعساكر ، فوفاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران وبحيرة طبرية وردة على أعقابها .

حملة ابي الذهب } استكثر امير مصر علي بك (١١٨٤) من جمع طوائف
على الشام } العسكر وامر بسفر تجريدة الى الشام واميرها اسماعيل بك
وكان أرسل أحد رجاله فقتل سليطاً شيخ عربان غزاة هو واخوته واولاده ، فذهبت تجريدة من البر وأخرى من البحر ووقعت بين جنده وحكام الشام وأولاد العظم حروب ومناوشات . وفي سنة ١١٨٥ أخرج علي بك من مصر تجريدة عظيمة وأميرها محمد بك ابو الذهب في جند كثير من المغاربة والترك والهنود واليمنية والمتنولة ، وسافرت من طريق دمياط في البحر ، فلما وصلوا الى الديار الشامية حاصروا يافا وضيقوا عليها حتى ملكوها ، ثم توجهوا الى باقي المدن والقري وحاربهم النواب والولاة فهزموا

وقتلوا وفروا من وجه الجيش المصري ، فاستولى على الممالك الشامية الى حدود حلب .
قال هذا الجبرتي وقال غيره : ان محمد بك ابو الذهب لما وصل الى بلاد الشام حضر
اليه اولاد ظاهر العمر ومشايخ المتأولة وانضموا الى عسكره فصار جيشاً عظيماً ينيف
على الستين الفاً ، فسار محمد بك ابي الذهب طالباً دمشق ، وكان عثمان باشا قد رجع
من الحج فجمع العساكر لقتاله ، فما لبث عثمان باشا ان انكسر فنجح ابو الذهب حول
المدينة قاصداً حصارها ، وأرسل الى اهلها كتاباً يشير فيه الى ما اتاه عثمان باشا من
الظلم واهانة الحجاج والزوار وظلم المسافرين والتجار ، وانه يريد ان يطهر هذه الارض
منه نصرة للدين وغيره على المسلمين ، ويذكر ما فعله بعلاء غزة في العام السابق من
دفعهم في الارض احياء ، وانه اخذ فتوى المذاهب الاربعة في قتاله ، وصرف
الاموال والعساكر ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ، فخرج العلماء والعوام من اهل
دمشق كافة الى محمد بك ابي الذهب وطلبوا منه الامان فأمنهم واكرمهم ، ودخل
المدينة وجلس في دار الوزارة ونادى بالامان . وكانت القلعة لم تنزل محاصرة فأمر
باطلاق المدافع عليها فطلب المحاصرون الامان فتسلم القلعة . وتراجع عثمان باشا الى
حمص وجهز العساكر الكثيرة . وابتدأ اسماعيل بك يغير قلب محمد بك ابي الذهب
على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور وخوفه عاقبة التمرد على السلطان فنهض
بعساكره ليلاً من دمشق وسار طالباً الديار المصرية ، وشاع رحيله من الغد فتعجب
أهل الشام كل العجب من ذلك ولم يعملوا السبب فيه ، ورجعت اولاد ظاهر العمر
والمشايخ والمتأولة كل منهم الى مكانه وقد ذهبوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم .
وفي رواية ان السبب في ترك العسكر المصري بزعامه محمد بك ابي الذهب حصار
دمشق ان عثمان باشا واليها لما اشرف على الهلاك بعث الى قائد المماليك بصرة ثقيلة
بالدنانير للرجوع عن محاربتة فارتشى منه وامر عسكره بترك المحاصرة وتركوا حصار
قلعة دمشق ، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم وانهم قد فارقوه وتركوه وحده عجز عن
فتح القلعة فرجع الى دياره ، فتخلص عثمان باشا وعاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج
لمحاربة ظاهر العمر ودخل اراضيه وحاصره في عكا ووجد في المحاصرة حتى صعب الحال
على الشيخ وكاد عثمان باشا يفتح عكا فما نجا الشيخ في هذه المرة الا بمساعدة ولديه ،

فقد جمع العرب وهجما على الترك ليلاً فكسروهم وشردوهم فهرب منهم عثمان باشا ، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره وحارب الدرروز فغلبيهم وتملك بلادهم التابعة لعامل صيدا . ولما بلغ السلطان خبر فتوحه وهو مشغول بحرب روسيا صعب الحال عليه فأرسل السلطان الى الشيخ يعرض عليه الصلح ، وقد عزل عثمان باشا وولديه عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس ، واما الشيخ ظاهر فقد اضمح في نفسه ان يدخل في طاعته الشام كله وهو يستند في ذلك على مساعدة علي بك امير مصر .

وذكر المرادي انه كان مع محمد بك ابي الذهب تسعة الوية وخمسة من اولاد الظاهر امير بلدة عكا ومشايخ المتأولة والصفدية ونحو ثمانين مدفعاً واربعون الف مقاتل ، وعينت الدولة لقتاله والي حلب عبدالرحمن باشا والي كليس خليل باشا والي طرابلس محمد باشا ، فخرج للقائه هؤلاء الوزراء معوز يرد دمشق بالعساكر الشامية والاجناد ، وصارت المعركة في سهل داريا وفي اقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي وفرهاراً بكل من خليل باشا وعبدالرحمن باشا وعساكرهما ، وقتل منهم شرذمة قليلة وثبت كافل دمشق عثمان باشا وولده محمد باشا والعساكر الشامية وحصل القتال معهم ثلاثة ايام ، وفر اعيان البلد الى حماة واستولى الفزع على الناس ، وغص الجامع الأموي باهالي القرى فانهم نزلوا جميعاً باهلهم وامتعتهم ومواشيهم اليه . ولما عاد ابو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا وولده محمد باشا ورئيس « البرلية » يوسف اغا جبري من جبل الدرروز ومعه خمسة آلاف درزي وبعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبري ، لانه كان السبب في تقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعاً منه في قتل عثمان باشا وصيرورته مكانه كافلاً بدمشق .

عاد ابو الذهب ادراجه الى مصر فرجع الى دمشق عثمان باشا وحضر اليه الامير يوسف الشهابي لانه كان قد ارسل اليه نائبه يوسف اغا جبري يستنجد ، وكان الامير يوسف قد جمع عسكراً وتجهز للمسير فانفق قيام ابي الذهب عند ذلك . ولما فرغ بال عثمان باشا وقتل نائبه يوسف اغا جبري رئيس الانكشارية ونهب امواله اقام مكانه رجلاً من اهل دمشق يقال له عثمان اغا شبيب ، ثم خرج بعسكر عظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتأولة الذين كانوا السبب في تلك الفتنه فجمع

ظاهر العمر رجاله واجتمعت المتأولة من تلك البلاد وكبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت عساكره وقتل منهم خلق كثير . وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في اثرهم حتى وصلوا الى بحيرة الحولة فالقى كثير منهم انفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً . وهرب عثمان باشا بنفر قليل فاستولى ظاهر العمر والمتأولة على اسبابه واسلابه . وكتب الشيخ ظاهر الى الامير علي بك يخبره بما كان ويحقق له خيانة محمد بك ابى الذهب بعد ان ملك الاقطار الشامية ودخل الناس كافة تحت طاعته . فخرج علي بك من مصر فالتقاء ظاهر العمر بالاكرام ودخل به الى عكا فارسل كتباً منه (١١٨٥) ومن الشيخ ظاهر العمر الى ملكة الاسكوب يسألانها الاسعاف على الدولة العثمانية ، وان ترسل اليهما المراكب الحربية ليسالها الديار المصرية . واقام علي بك ينظر الجواب ، وقويت مشايخ المتأولة على الدولة ، وتناولت على اطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة ، فانفق الامير يوسف وخاله الامير اسمعيل حاكم وادي التيم الادنى وجمع الامير يوسف نحو عشرين الف جندي وسارقاصداً قرية جباع الخلاوى واحرق اقليم التفاح وحرق جباعاً وقطع اشجارها وهدم بنيانها .

وكان عسكر المتأولة مجتمعاً في النبطية نحو ثلاثة آلاف ، ولما وصل الامير يوسف الشهابي الى كفر دمان احرقها وتوجه الى النبطية فالنقى بشرذمة من عسكر المتأولة نحو خمسمائة خيال ووقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الامير يوسف كسرة هائلة ، ومات كثير من عسكره تعباً وعطشاً ومنهم من اختلت عقولهم ، وفقد من عسكره في هذه الواقعة اكثر من الف وخمسمائة قتيل ، وركب الشيخ كايب نكد من حاصبها الى دير القمر وغزا المتأولة في قرية علام فهزمهم ومنعهم من الحضور الى اقليم الخرنوب وتلك الاطراف . وسارت عساكر الدولة مع عسكر الامير يوسف لحصار مدينة صيدا وانقاذها من يد ظاهر العمر وكانوا في اكثر من عشرين الفاً معهم المدافع والزبركات فأقاموا على حصارها سبعة ايام . وجاءت المراكب الروسية الى عكا التي استنجدها ظاهر العمر فأرسلها الى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة وجيش لبنان ، وساق ظاهر العمر عسكره وقدره بعشرة آلاف جندي والنقى بعسكر لبنان وجيش الدولة في سهل الغازية ، وانتشب القتال فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو

خمسمائة نفس وانتقل راجعاً الى دمشق ، واما المراكب الروسية فسارت الى بيروت وملكت جانباً منها وأُحرقت بعض الابراج فهربت الشهابية من المدينة وخرج اهلها الى البر ودخت الفرنج بيروت ونهبت كل ما وجدته فيها ثم رحلت الى عكا بعد ان أعطاها حاكم لبنان ٧٥٠٠ قرش تعويضاً ثم عادوا وأطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ ، حتى ظن الناس ان القيامة قامت وسمع صوت المدافع على ما قيل الى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف ، وأحاطوا بالمدينة بجرماً مدة اربعة اشهر ليل نهار فتضايق المتحاصرون فيها ونفد ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم الخيل والحمير والكلاب ، وهناك اضطر الجزار الى التسليم وطلب الامان عن يد ظاهر العمر وتسلم الامير يوسف بيروت وغرم المسلمين ثلاثمائة الف قرش وسلمها للسفن المسكوبية . قال احد المؤرخين : ضرب الروس بيروت ونهبوها في القرن الثامن عشر وكانت فيها بيوت امراء الجبل ومشايخه ، وكانوا بنوا فيها خانات وقيساريات وكان الفرنسيس يدعونها « باريز الموارنة الصغرى » وكثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا .

ووقعت في هذه السنة بين الشهابيين والحماديين في العاقورة والقلمون واقعة . وفي سنة ١١٨٦ اخذ الامير سيد احمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه الى قب الياس وبنى ما كان هدم فيها من الزلازل وحصنها بالمدافع والرجال . وفي هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بني رعد حكام الضنية مع المشايخ بني حمادة . وفي سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا والي دمشق في خمسة عشر الف جندي على الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع . وجرت عدة وقائع بين العسكريين وانهزم والي دمشق في الليل تاركاً المدافع والنخائر ثم انتصل الفريقان على غير نتيجة .

عهد عبد الحميد الاول } هلك السلطان احمد الثالث (١١٨٧) وخلفه ابنه
وأتمه اخبار ابي الذهب } السلطان عبد الحميد خان الاول وفي ايامه استولى
العجم على العراق ولم يبلغه الخبر الا بعد خمس سنين ، وهو السابع والعشرون من آل

عثمان ، مضت مدة على رحيل ابي الذهب من الشام وبقى ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا وكسرتة والي دمشق غير مرة واتهام ابي الذهب بالخيانة أمام والي مصر ممتعاً بولايته حتى سنة ١١٨٩ ، وفيها سافر ابو الذهب الى البلاد الشامية — رواية الجبرتي — لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد وكانت الدولة أذنت له بالمسير الى الظاهر عمر وخراب بلاده فوصل الى أرجاء غزة وارتجت البلاد لوروده ، ولم يقف احد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك الظاهر عمر تحصن في عكا فلما وصل الى يافا (١١٨٨) حاصرها وضيق على أهلها وامنعوا هم ايضاً عليه وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج ، والقي عليهم المدافع والمكاحل والقنابر عدة ايام وليال ، فكانوا يصعدون الى اعلى السور ويسبون المصرين وأميرهم سباً قبيحاً ، فلم يزالوا بالحرب عليها حتى تقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية وملكوها عنوةً ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم بالحبال والسلاسل وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وأعملوا فيهم السيف وقتلوا عن آخرهم ولم يميزوا بين المسلم والمسيحي والاسرائيلي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم . وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الاتربة والرياح والازوابع ، ثم ارتحل عنها طالباً عكا . ولما بلغ الظاهر عمر ماقوع بيافا اشتد خوفه وخرج من عكا هارباً فوصل اليها ابو الذهب ودخلها من غير مانع واذغنت له باقي البلاد ودخلوا تحت طاعته وهدم قلعة ديرمار يوحنا وديرمار الياس في صفد وقتل رهبانها .

ويقول جوهرى : ان ابا الذهب قام من مصر في ستين الف جندي الى يافا ، وبعد ان حاصرها خمسين يوماً استولى عليها وأعمل السيف في أهلها كبيرهم وصغيرهم ، وان ظاهر العمر طلب مدداً من الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى ان يمدده فلم يسعه الا الهرب من عكا والتجأ الى عرب غزة ، ولما حصل ابو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى ان بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خوفاً وهلعاً ، اما الامير يوسف حاكم لبنان فقدّم هدايا الى ابي الذهب طيب بها قلبه ، وجاءه متسلم صيدا احمد اغا الدكرلي ملتسماً برضاه مظهرأ طاعته ، فأمنه على نفسه ومرّكه كما جاءه مشايخ بني متوال فاكرمهم ابو الذهب ثم استدعى ان يوالى

امور مصر والشام نجاءه من السلطنة المنشور بذلك ولكن كان قد قضى نجبه ونفرت جموعه وعادوا الى مصر ، فلم نذل الدولة مأربها من ظاهر العمر ولم تستند البلاد سوى ان قتل من أهلها جمهور كبير ولا سيما في حصار يافا . وجرى على أثر هذه الواقعة بين المتأولة والغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتأولة كسفرة هائلة وقتل منهم جماعة .

خاتمة ظاهر العمر } قال جودت : لما سمع ظاهر العمر بوفاة ابي الذهب عادالى
وولاية حلب } عكا وأخذ يطيل أيدي الاذى اكثر من قبل ، فأرسلت عليه الدولة سنة ١١٨٩ قائد البحر حسن باشا الجزائري ، وكُتبت الى والي دمشق اذ ذلك محمد باشا العظم والي والي إيالة صيدا والي الجزائر احمد باشا الذي نُصب محافظ السواحل الشامية والي متصرف القدس ، فبعث قائد البحر اولاً يطلب من الظاهر ما في ذمته للدولة من الاموال الاميرية (وهي خراج سبع سنين) فلم يوافق على ذلك مستشار ظاهر العمر ابراهيم الصباغ ، وكان يبدعه جميع أموال الظاهر عمر ، وقال له : ان الدولة لا يرضيها شيء ، وأراد سيده على المقاومة ولكن عسكر ظاهر العمر استماله متمسك صيدا وقال لم : لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا ان يقاتلوا . فلما علم الظاهر عمر بالامر فرّ على وجهه لا يلوي على شيء هو وأولاده ، فضبط قائد البحر أموال الظاهر عمر وذخائره وجيء بابراهيم الصباغ فأخذت منه أموال الظاهر عمر ثم قتل . ويقول بعض المؤرخين ان ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان وثمانون الف كيس من النقود قال جودت : سبحان الله ! بمثل هذا المال والنوال وتمسك صيدا احمد اغا الدركلي يطلب عشر معشاره لارضاء الدولة فنشع نفس ابراهيم الصباغ ، فيجلب البلاء على نفسه ويكون سبباً لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان .

وذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر انه في اواخر سنة ١١٨٩ حضر قائد البحر حسن باشا الجزائري بالاسطول السلطاني ، لان السلطان عبد الحميد الاول لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة ١١٨٧ التفت لتنظيم البلاد فوجه قائد البحر الى حيفا ، وذلك بعد موت ابي الذهب ورجوع العساكر المصرية بمدة قليلة ، وان مطالب

القائد كانت اموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر ان ليس عنده مال وانه مستعد
 لحرب قائد البحر لان عنده باروداً وكلاً وثلاثة مدافع فاطلق قائد البحر اربعة ايام
 النار على عكا وكان عدد قنابله ٧٧٥٠ كلة ولم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلاً من
 المحلات ، وقيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق ، فخرج الشيخ ظاهر بعياله
 فقتله احد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقايق ، وكان قاتله عبداً من عبيده
 منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به خيائته سيده ، وحزوا رأسه وحمل الى
 الاستانة ونهب العسكر المدينة ساعتين . وكان قائد السفينة الفرنسية التي جاءت لحماية
 تجار عكا الفرنسيين وحملتهم الى بلادهم نهبه على التجار الفرنسيين بان كل من
 عنده وديعة لابراهيم الصباغ ولكل من يلوذ به ملزم بحسب اوامر السلطان ان يقدمها
 الى قائد البحر العثماني فأعطوها وكانت ٣٦ الف كيس ذهب عدا الجواهر والتحف ،
 وضبطت حواصله وكانت مشحونة باصناف البضائع وضبط مبلغ كبير من يلوذ بابراهيم
 الصباغ الذي اخذ وقتل في الاستانة ، وكذلك احمد اغا الدركلي الذي خان مولاه
 فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب ، وسلم قائد البحر ولاية عكا الى احمد باشا
 الجزائر ، سلمه عكا وصيدا وما يليها ، فاحتال الجزائر على اولاد الظاهر عمر واقام
 الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ ويقول مشاققة : ان حسن باشا ظلم من ظاهري العمر
 خمسين الف قرش تباع بأسعار ذلك الوقت خمسة وعشرين الف ريال فرنسا فأشار
 اكثر معتمدي الشيخ بالدفع الا الطيب التاجر ابراهيم الصباغ فانه خالف رأي
 الجماعة . وقيل انه وصل من اموال ظاهري العمر واولاده وابراهيم عبود الصباغ الى
 خزينة السلطان ثلاثمائة وثمانون الف كيس تساوي خمسة ملايين وخمسة وعشرين
 مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه .

وفي اوائل سنة ١١٩٠ رجع حسن باشا الجزائري بالاسطول الى عكا وحضر
 محمد باشا العظم والي دمشق بعسكره وابراهيم باشا والي القدس بعسكره ونصبوا
 معسكراتهم خارج مدينة عكا وطلع معهم احمد باشا الجزائر بعساكره وساروا جميعاً
 مع امير البحر قاصدين البطش باولاد الظاهر عمر فأمنوهم وحملهم قائد البحر الى الاستانة
 وقتل في الطريق احداهم واسمه احمد لانه طعن فيه جهاراً وبقي احد اولاد الظاهر واسمه

الشيخ علي ينتقل في البراري ، فبلغ الدولة خبره فارسلت الى محمد باشا العظم ان يرسل اليها رأس علي الظاهر او يقتل هو به ، فأرسل والي دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته وانكر جماعة احمد باشا الجزار الرأس المحمول ، وقالوا : انه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فاحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقبل لهما : ما بيكيكما فاجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر وقد عرف من كبر عارضيه لانه كان يدعى ابوسبعة شنبات ، وبذلك انتقضت دولة الظاهر واندرثر ذرارها وقامت دولة الجزار احمد باشا الذي ضيق على اولاد الظاهر وذراريه وبعث احد جواسيسه الى ابنه علي وقتله في مرج عمار الخياط .

والغالب ان الشيخ ظاهر العمر الذي حكم صيدا وعكا ويافا وحيفا والرملة وبلاد نابلس واربد وصفد وجميع المتأولة كانت تحت امره ، كان الى السداجة والقطر ، استسلم لوكيله ابراهيم الصباغ وكان هذا مثلاً سائراً في الامساك وحب المال ، فحاول ان يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه اضعاف اضعافها من الذهب ، دع سائر العروض والجواهر ، واغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان في ذلك ذهاب دولته وهلاكه وهلاك وكيله ، ولم يثمر جمع الاموال الثمرة المرجوة ، ولو قدر له ان يعمل بما رسمه له السلطان سنة ١١٨٨ من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه وذنوب غيره على شرط ان يؤدي الخراج لبق في عزه ان كانت الدولة تريد دوام العز للاحد .

كانت الشكوى قليلة من ادارة ظاهر العمر فان ما جمعه في اربعين سنة قد جمع غيره من حكام الاقاليم مثله في مدة قليلة . ذكر فولنه ان علي باشا المعروف بجه طنجي الذي تولى حلب مرتين آخرها سنة ١١٩٣ ، وكان من معاصري الجزار ، جمع في خمسة عشر شهراً زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هي الفرنك الطلياني) وانه سلب جميع أبواب الحرف حتى انتهى سلبه الى منطفي الغلابين . وقال غيره : ان مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو اربعين الف جنيه ويعلي الوالي ٨٣٣٠ جنياً في السنة لتنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الاموال الطائلة من الاكراد والتركمان وسائر السكان ، وقد جمع منهم عبدي باشا الذي كان والياً قبل عهد فولنه ١٦٠ الف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل واحد وكل صناعة .

قال بعض معاصريه وقد فر من حلب غالب تجارها ووجوه الناس ومن له شهرة وسجن الاعيان وان الكوسج خادمه لما خرج الى قتال التركان صار يخرب القرى ويسلب أموالها حتى قام أهالي حلب وحاصروه واخرجوه من البلدة . ونقل في اعلام النبلاء في حوادث سنة ١١٩٤ ابن عبيدي باشا والي حلب جاء في جيش عظيم الى كز لتأديب الاشقياء وأصدر أمره الى هذه البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض والرعيا الى طرف الباشا وبقي الاشقياء فأجابوه بلسان واحد ليس في بلدنا أهل عرض صلاً بل كلنا أشقياء فزحف الوالي على البلد فحاصرها وفتحها ووقع القتل والنهب في كلز وهتكت الاعراض وذبحت الاطفال . وأن الوالي اخذ يسلب أموال الناس في حلب وفي سجنونه من الاكابر والمشايخ والاشراف خلا الرعايا وأهل الذمة مقدار عظيم وعسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل وبلغ من سوء فعل اتباعه ان كسروا غراريف بساتين حلب ودواليبها واخشاب بيوتها وطياراتها من حدود قرية بابلا (باب الله) الى قرب بستان البياغة وحرقوها وحرقوا اخشاب قرى البلد باجمعها وسلبوا متاعها ونهبوا مواشيتها وتركوها قاعاً صفاً الا ما حمه الله من القرى البعيدة ، وجاء الوالي الجديد فنبه ان لا يحمل احد سلاحاً وكل من وجد من اهالي المحلات خارجاً عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه ان يخبروا عنه ليقتله ومن شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لاحد عليه وصار يقتل كل من اخبر بسوء حاله ، وامر الناس ان يفتحوا دكاكينهم وارباب القرى ان يتعاطوا زراعتهم وان مامضى لا يعاد ومن لم يفتح دكانه ينهبها ويشنق صاحبها .

وروى في أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذي تولى حلب بعد عبيدي باشا انه صار يأخذ بالبحان بمالك وجواري من اصحابها قهراً ، ويحضر التجار وغيرهم ويكرمهم ويقول لهم : « انا وزير اقسعوا خاطري لا يعلم بها أحد حتى لا يشيها غيري » وأرسل فطلب من كل بلد حصاناً . وجاء بعده عبيدي باشا وسار على اقدام سميح الاول في الظلم والجور على صورة لم يسبق لها مثيل واخذ يأخذ بدل القرش اربعة وصادر القوم وعذبهم وصارت حبوسه ملاي بالناس .

وصف فولنه ظاهر العمر بانه لم تشهد له الشام مثيلاً في الازمان الغابرة ، وكان

داهية باقعة في السياسة حكيمًا محنكًا ولكنه كان طامحًا طامعًا ومن محاسن صفاته انه لم يكن يحب الاحتيال ويجاهر بما يضر ولو قاسى من ذلك العنت وانه احب المسيحيين ورفع شأنهم وعدل في الناس .

وقال بعض المعاصرين : حكم الظواهره البلاد نحو ثمانين سنة وامتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالاً الى أطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى جبل عجلون شرقاً ، وكانوا يرجعون في احكامهم الى اصول العشائر حسبما توجه اليهم ضمائرهم ، وقد شادوا في البلاد أبنية ضخمة فرم الظاهر عمر بعض ما تمكن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية ورفع سورها الداخلي ، وشاد فيها جامع محلة الجرنية وبني علي في صفا القلعة الباقي شيء من آثارها الى اليوم ، وبني صليبي في طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة الى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبي واكتسبهم ، وعمر الجامع الواقع جنوب السراي ، وبني عثمان قرية شفا عمرو ، وبني احمد قلعة تبنا ، وشيد سعد قلعة دير حنا . وهذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة ، وعمر في دير حنا الجامع الموجود الى اليوم وكان بناؤه سنة ١١٤٤ هـ .

أخذ الجزائر بعد استلام ولاية صيدا سنة ١١٩١ يقوى وتشد أولية الجزائر } شكيمته خصوصاً بعد أن ولي دمشق (١١٩٠) مع بقاء عكا عليه ثم اسنقل بولاية عكا واخذ يغزو متغلبة تلك الارحاء فوقت بينه وبين الامير يوسف الشهابي وقعة في سنة ١١٩١ في نغار السعديات بين صيدا وبيروت فلم يسلم من جماعة الشهابي الا القليل ، وأحرق عسكر بيروت اي الجزائر المكس والجديدة والدكوانة في لبنان وقتل اناساً من اهلها ، ثم وقعت بين عسكر الدولة وعسكر لبنان في المغيشة عدة وقائع انصرت الدولة فيها على اهل الجبل وقتل منهم قتلى كثيرة واكثرهم من المتن وداهم عسكر الدولة بني الحرفوش في بعلبك واحرقت الدولة زحلة . وقوي الجزائر بمجي ستمائة فارس من اللوند وكانت الدولة امرت بقتل جماعتهم وكانوا ستة عشر الفا ، فلم يسلم منهم الا الذين جاؤا الجزائر ، ولما عزم على الاقامة في عكا ابتداءً باصلاح

اسوارها وانقان بنيانها وجعل على كل قرية من تلك البلاد ان يحضر أهلها جميعاً ثلاثة ايام في الاسبوع بالسخرة لاجل العمارة .

وجرت حروب كثيرة بين الشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر وعساكر الجزائر حتى قتل على ما سلف وكذلك بين هذا والامير يوسف الشهابي والنقي مرة في طريق صيدا وعسكر الجزائر بالنكدية وكانوا يكمنون له فقتل الجزائر اكثرهم وقبض على بعض اعيانهم فجعل الامير يوسف يعتذر للجزائر ويستشفع في اطلاقهم مقابل مئة الف قرش ولما طلب الامير المال من الجبل ابي الامراء الدفع فطلب الامير من قائد عسكر الجزائر ان يتلف اشجار بيروت ففعل وقتل جماعة من رجاله ، ثم سار الى بعلبك وعظم امره وحينئذ خرجت بيروت من يد الامير يوسف ودخلت في حكومة الجزائر ، واقبئل الامير يوسف مع الجزائر فانهمز في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي والجزائر .

وأرسل أحمد باشا الجزائر (١١٩١) أحد رجاله من الاكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فخصوها ، وردوهم عنها باطلاق المدافع فذهب الاكراد الى بعلبك وصادروا كبار المتأولة ، ولا سيما الامير محمد الحرفوش وسجنوه ثم شنوا الغارة على سعد نابل وقتلوا بعض سكانها ونهبوها ، ثم حاربوا الدرزي في البقاع وقتلوا بعضهم وقتل من الاكراد اربعون رجلاً فأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سبعين ثم عادوا عنها ، وقد قتل منهم نحو مائتين ثم امرهم الجزائر فعادوا اليه ، وكان سبب ارسالهم ان الامراء الملعبين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزائر على اللبنانيين في السنة السابقة . وفي سنة ١١٩٢ او ٩٣ نقل الجزائر مركزه الى عكا لخصانتها . وزاد الجزائر (١١٩٤) المكوس والمغارم على لبنان .

وفي سنة ١١٩٥ وقعت فتن ومناسوات بين عسكر الجزائر وعسكر الامير سيد احمد وعسكر دمشق في ارض قب الياس في البقاع قتل فيها كثيرون وانصرم الجزائر ووقعت وقعة في الظهر الاحمر في وادي التيم لاجل النفوذ والمال ، وفي سنة ١١٩٧ استولى الجزائر على بلاد بشارة بعد وقعه مهمة مع مشايخها من بني متوال ، وتسلم هونين وتبنين وشقيف ارنون ، اخذ هذه القلعة الاخيرة بالامان وقتل من بها وتسلم جميعاً وباد اسم بني علي الصغير وبني منكر . وفي هذه السنة توفي محمد باشا العظم وكان وزيراً عادلاً

مهابةً على قول ميخائيل الدمشقي وقال المرادي: انه كان من رؤساء الوزراء عقلاً وكالاً وعدلاً ودينياً وسخاءً ومروءةً وشجاعةً وفراسةً وتدبيراً وكان واسع الرأي مهابةً وضرب على ايدي البغاة وقطاع الطريق ، وراقت دمشق وما والاها في ايامه ، وصفا لاهلها العيش ونامت الفتن ، فعين محمد بن عثمان باشا وكان ظالماً قاسياً ثم تولى اخوه درويش باشا ثم تولى محمد بطال باشا وكان حدثاً جاهلاً ليست له خبرة بالمقاطعات . وقتل (١١٩٧) الوزير حسين مكِّي باشا والي غزوة وصادرت الدولة امواله وكان حارب بني صحر وعرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم .

وفي سنة ١١٩٨ تولى احمد باشا الجزائر ولاية دمشق وفي سنة ١١٩٩ وقعت فتن ايضاً بين عسكر الدولة واللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين . وانتهى القرن والبلاد على هذه الحالة . ومن جملة الفتن ما ذكره من عصيات يوسف الجزار وتحصنه في قلعة صانور على مقربة من عمل جينين في نابلس ، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع اهل بلاد نابلس وأخذوا يبهبون الناس ، فذهب الباشا ونهب بعض قراها وقتل أناساً كثيرين ثم حاصر صانور ثانية ، وأصبحت بلاد نابلس في فوضى والجزار كل مرة يغزوها ويحرب في قراها ويقتل من اهلها ولم ينل احمد الجزار من يوسف الجزار ما كان يتطال اليه حتى مات الجزار . قال بعضهم : ان نابلس لم تبرح بعصيانها تعلق الادارة التركية وكان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور . هذا وقد تولى حلب في هذا القرن سبعون والياً قضى معظمهم أشهراً في الولاية واكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين وكان ولاية دمشق في هذا القرن ستة واربعين والياً كان منها نحو خمس واربعين سنة في حكم آل العظم .

الحكم على القرن } قرن كله ذل ومسكنة ، وثقاتل وتشاحن ، عرف بتغلب
الثاني عشر } القيسية على اليمنية بعد وقعة عين دارة ، ورجوع ابن معن
الى الامارة في لبنان ، وانقراض دولة المعنيين بموت الاخير منهم ، وظهور بني شهاب
حكام وادي التيم بمظهر جديد تخلفوا المعنيين في لبنان ، وبظهور ابناء علي الصغير في
بلاد بشارة وانقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالي لبنان ، وظهور بني العظم حكماً

في الولايات الشامية وتراجع امرهم ، ثم ظهور ظاهر العمر في عكا وما اليها و دوام حكومته اربعين سنة ، ثم ارسال والي مصر تجريدة بقيادة اسماعيل بك وأخرى بقيادة محمد ابي الذهب ورجوع هذا عن البلاد بعد ان فتحها الا قليلاً واعتصام الظاهر عمر بملكة روسيا وحصار اسطول الروس بعض الساحل ولا سيما بيروت ، ثم ظهور الجزائر الذي قرض بيت الظاهر عمر .

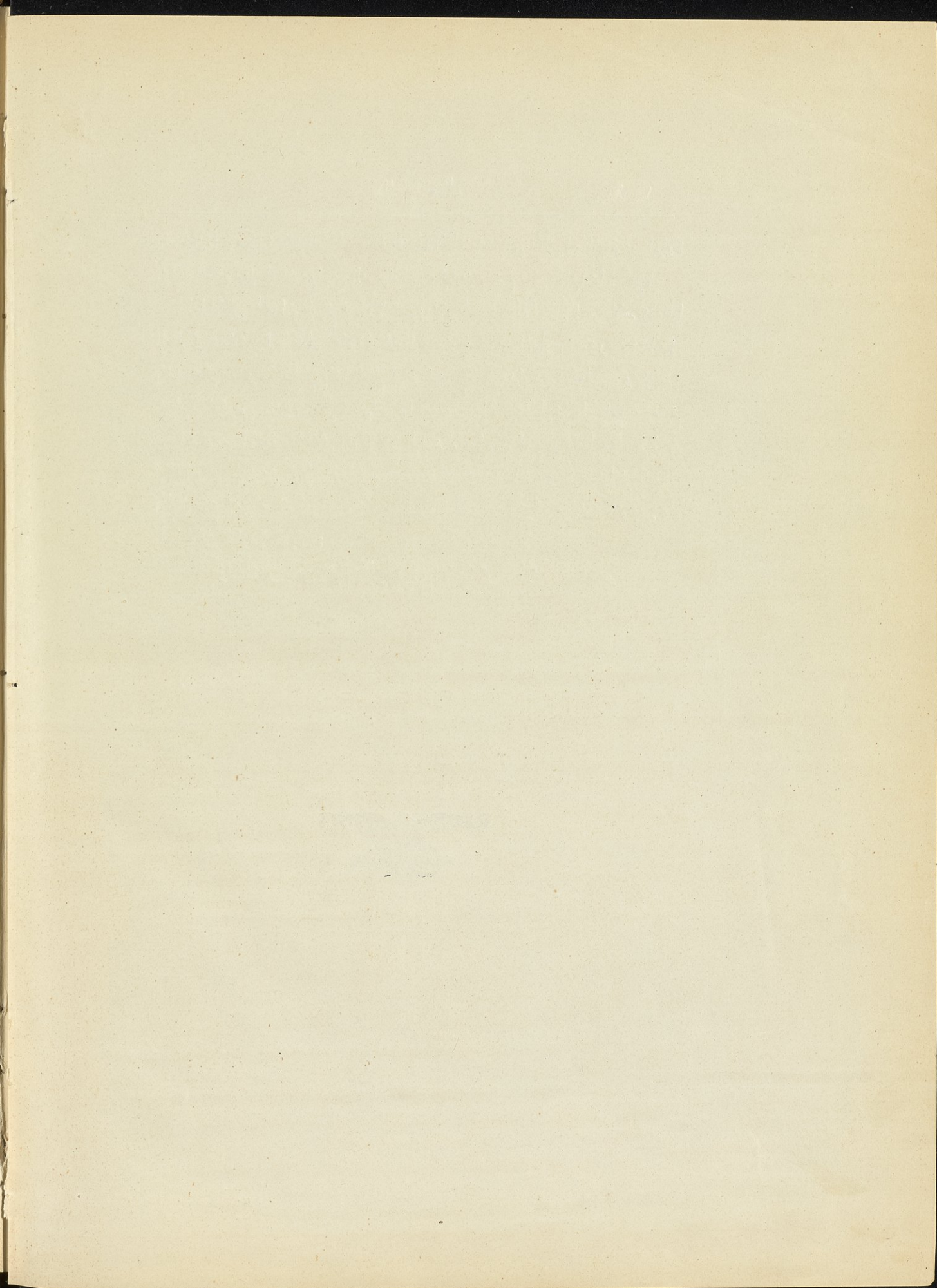
والدولة فلما جهزت جيشاً خاصاً للقضاء على سلطة احد المتغلبين اللذين الاجموشاً اشبه ببغداد يوم مجيء ابي الذهب لفتح الشام ، واستغاثت بابي الذهب لثقتد البلاد من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر ، اي ان الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و باين العم على ابن عمه وتضعفهم جميعاً ، ومعظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلصق في تأدية الجباية لها ، وقلما سمع بانها نحت عاملاً كبيراً لسوء ادارته ، وكثرة نهمته في جمع ثروته والعاقلة المستقيم من ولايتها لا تطول ولايته كثيراً حتى يتمكن من اصلاح بعض الشؤون ، وكان الولاة في الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها الى مراجعة الاستانة في كل امر ، ولكن اين العامل النشط فيهم الذي يعرف يدبر امور الناس ، واذا تيباً الرجل هل تحدثه نفسه بذلك فيتهم حالاً بارادة الاستقلال ويشي فيه جيرانه والطامعون في ولايته .

اما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطاً والوسط لا يعمل عملاً نافعاً ، ولم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء وحب العمل امثال ابناء كوبرلي وصوفولي ، في القرن الماضي بيد ان اعمالهم لم يصل الى الشام منها الا الصدى ، ولم يخرج من الشام تابعة بعقله وادارته من ارباب الاقطاعات وغيرهم كما كان في القرن المنصرم ، وجل همهم مصروف الى دفع عادية خصمائهم من اقر بانهم او غيرهم ، وكانوا دون من يأتي من الاستانة من الولاة عقلاً وعدلاً ، ومما ظهر في هذا القرن من النقص المحسوس في البلاد قلة السكان فقلق العقلاء ، وكان في حلب قبل استيلاء العثمانيين ٣٢٠٠ قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددها الى اربعمائة قرية حتى ان ابن معن لم يقبل ان يتولى بلاد بني حمادة لانها خربت الا قليلاً ، وهام الفلاحون على وجوههم في المدن والجلال وهكذا الحال في ولاية دمشق وفلسطين . وقال فولنسه : ان سكان كسروان وحدهم ضعفا سكان

فلسطين . وهكذا كان السكان يكثرون في المقاطعات التي تُتخلص مباشرة من ادارة الباب العالي مثل لبنان ووادي التيم و نابلس وعجلون وان لم تكن حالتها مما يستحب .
 اما اعمال العمران فلم يقد فيها الا قصور لارباب الدولة امثال قصر لاصمد باشا العظم في دمشق وقصره في حماة الى غير ذلك وقامت من المدارس مدرسة اسماعيل باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم في دمشق وبعض مدارس في حلب ، ولكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بقياس واسع ، وتداعت المساجد والجامع ، ولم يقد من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر لان البلاد لا صاحب لها يغار عليها ، فالمتغلبة من ابناءها والقادمون من الولاة عليها ، لا يهتمون لمثل هذا الشأن ، وسلاطينها ضعاف ان افلح احدهم فعمرو له جامعاً ومقبرة خاصة في دار الملك عدوه محباً للعمران ، منقرراً بعمله الصالح من الباري الديان :

ولا تغير من قوم نعيمهم الا تكدر منه الورد والصدر





— فهرس الجزء الثاني —

« من خطط الشام »

صفحة	صفحة
٣٤	٣
مرض نور الدين وابلاله ونهضة فتوحه وهزيمته في البقيعة	(الدولة النورية من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩) — فنية الاسماعيليه ووقعة دمشق
٣٦	٥
حملة نور الدين على مصر	دخول آل زنكي الشام
٣٩	٦
بعض غزوات نور الدين	استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق
٤٠	٨
قيام بني شهاب من حوران وحر بهم الصليبيين	خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له
٤١	١٠
الفتور بين نور الدين وصلاح الدين	توحيد الحكم على يد زنكي وفضاؤه على امارة صليبية
٤٣	١٤
وفاة نور الدين وصفاته الطيبة	الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين
٤٧	١٦
(الدولة الصلاحية من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩) — اولية صلاح الدين والملك الصالح	صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين
٤٩	١٨
اختلاف الآراء ومبدأ استيلاء صلاح الدين على الشام	الحملة الصليبية الثانية وغزوتها دمشق
٥١	٢٢
تملك صلاح الدين ومحاوله اغتياله وسر نجاحه	نقدم نور الدين في فتوحه
٥٤	٢٤
فتوح صلاح الدين ووفاة الملك الصالح	انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين
٥٨	٢٧
وقعة حطين وفتح فلسطين	مقاصد نور الدين وفتح دمشق
٦٠	٣٠
فتح القدس والرملة	الداعي لنور الدين على فتح دمشق
٦٣	
بقية الفتوح الصلاحية	
٦٦	
الحملة الصليبية الثالثة	

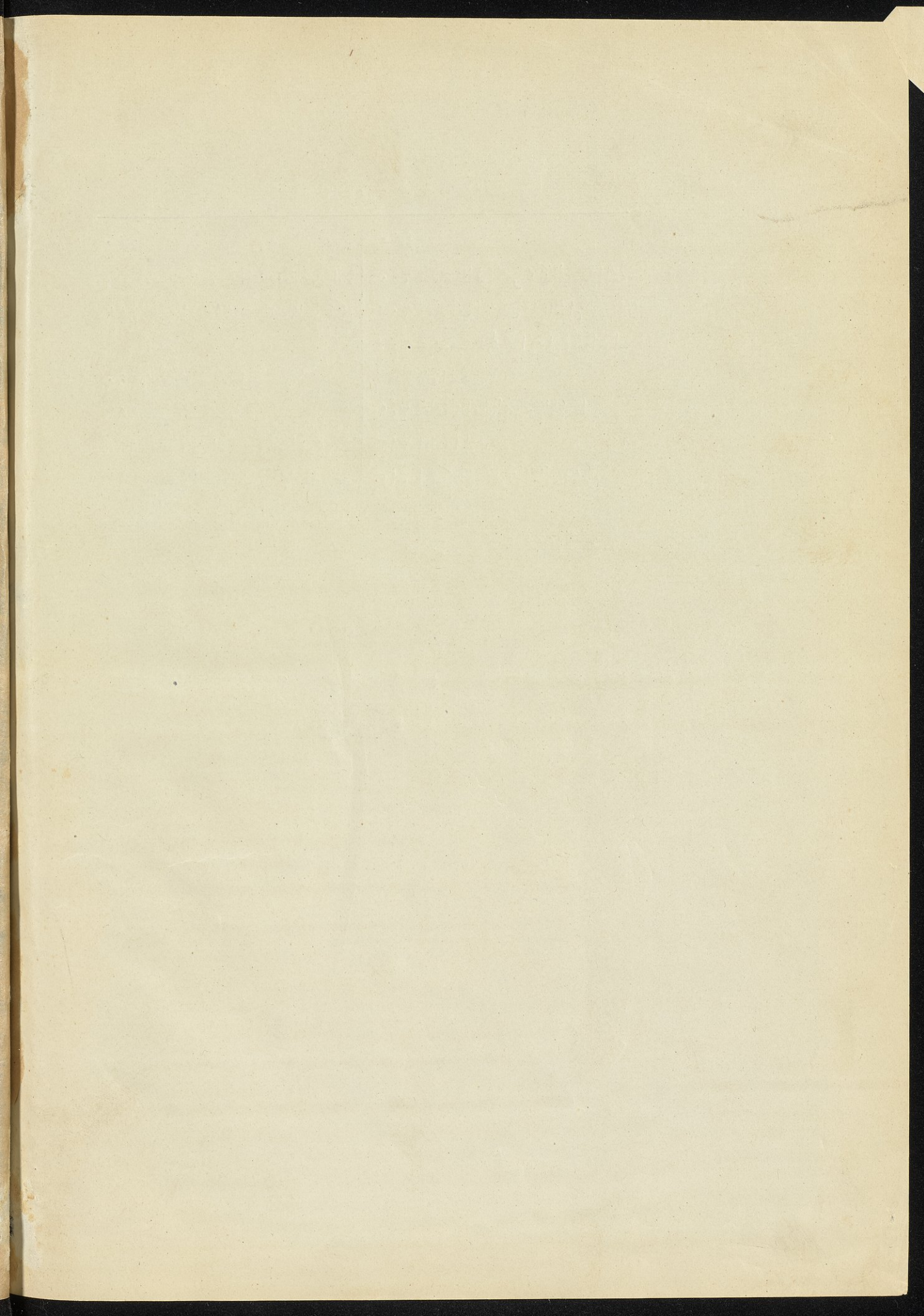
صفحة	صفحة
١١٦ مقتل الملك المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس واحداث	٦٨ مزايا صلاح الدين ووفاته
١١٨ حروب الظاهر وفتوحه	٧٣ (الدولة الايوبية من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧) — ابناء صلاح الدين واختلافهم ودهاء عمهم الملك العادل
١٢١ وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون	٧٦ استئثار العادل بالملك الصلاحي
١٢٦ وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واثخانته في فرنج الساحل	٨٠ الاحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين .
١٢٨ الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية	٨٤ الحملة الصليبية الخامسة
١٣٧ (دولة المماليك من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠) — فتوح ارمينية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية	٨٦ وفاة العادل
١٣٩ وقائع النار	٨٨ فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة
١٤٣ غزوة الارمن والكسروانيين وترزعع السلطنة	٨٩ اختلاف بين ابناء العادل وتقدم الكامل عليهم
١٤٦ الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة	٩٣ الحملة الصليبية السادسة
١٤٩ سياسة المماليك مع اكبر عمالهم ووفاة الناصر وتولي المنصور	٩٥ اختلافات جديدة بين آل العادل
١٥٠ خلع الملك المنصور ومقتل غيره واحد من اخوته الذين خلفوه	٩٨ وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده
١٥٣ احداث وكوائن وعصيان ومخمرات	١٠١ (انقراض الايوبيين وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠) — ظهور الخوارزمية
	١٠٣ اختلاف بني ايوب واعتضاد بعضهم بالفرنج وعودة الخوارزمية
	١٠٧ وفاة الملك الصالح ومبدأ دولة المماليك
	١١٠ هولاكو التتري

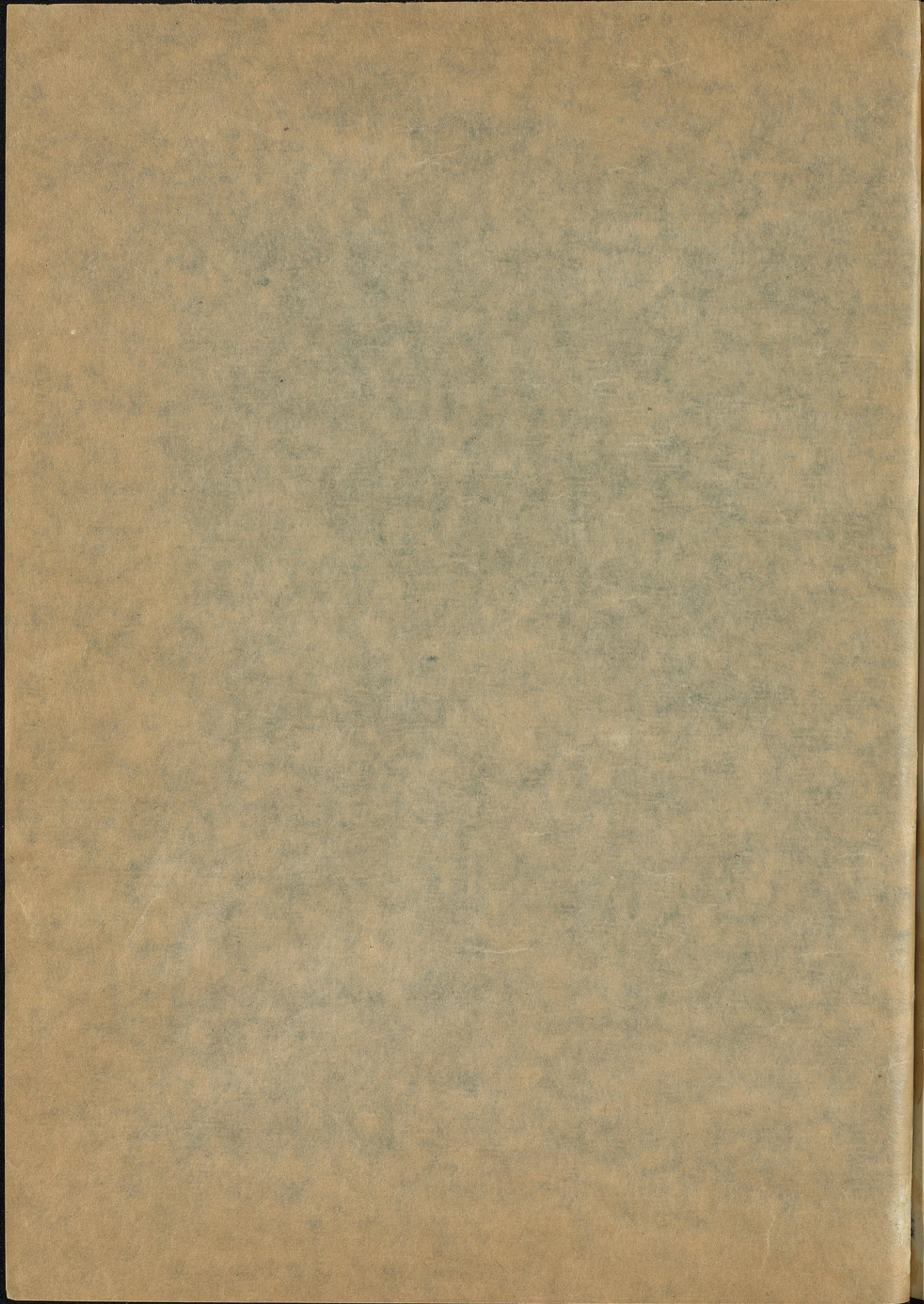
صفحة	صفحة
١٩٣ الملك الكبير وقمله	١٥٦ مقتل الأشرف شعبان والاحداث بعده
١٩٥ الخليفة السلطان وسلطنة شيخ	١٥٩ سلطنة برقوق وحالة المماليك البحرية والشراكية
١٩٦ هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القاط	١٦١ (وقائع تيورلنك من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣) — بدءا تيورلنك ومناوشة جيشه
١٩٧ وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولي الأشرف برسباي	١٦٣ القتال على الملك
١٩٩ الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق	١٦٤ عوامل الخراب قيس ويمين
٢٠٠ المنصور والأشرف والمؤيد والظاهر خشقدم والظاهر بلباي والأشرف قايتباي	١٦٧ الخوارج على ملوك مصر
٢٠١ مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية	١٧٠ وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
٢٠٤ وقعة مشؤومة وأحداث	١٧٢ الحرب الاولى مع تيورلنك
٢٠٥ اول مناوشة مع الأتراك العثمانيين	١٧٣ تيورلنك على ابواب حلب
٢٠٨ وفاة الأشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد	١٧٥ تيورلنك على حماة وسلمية وحمص
٢٠٩ الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري	١٧٦ تيورلنك على دمشق
٢١١ سلطنة طومان باي	١٧٧ وصف افعال تيورلنك في دمشق
٢١٢ القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي المماليك البحرية والمماليك البرجية	١٨١ الخراب الاعظم واخلاق تيور ونجاة فلسطين منه
٢١٥ (الدولة العثمانية من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ) — حالة الشام قبل الفتح العثماني	١٨٥ (عهد المماليك الاخير من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢) — البلاد بعد الفتنه التيمورية ومحاصرة العمال
	١٨٨ وقائع التركان مع الناشئين على السلطان

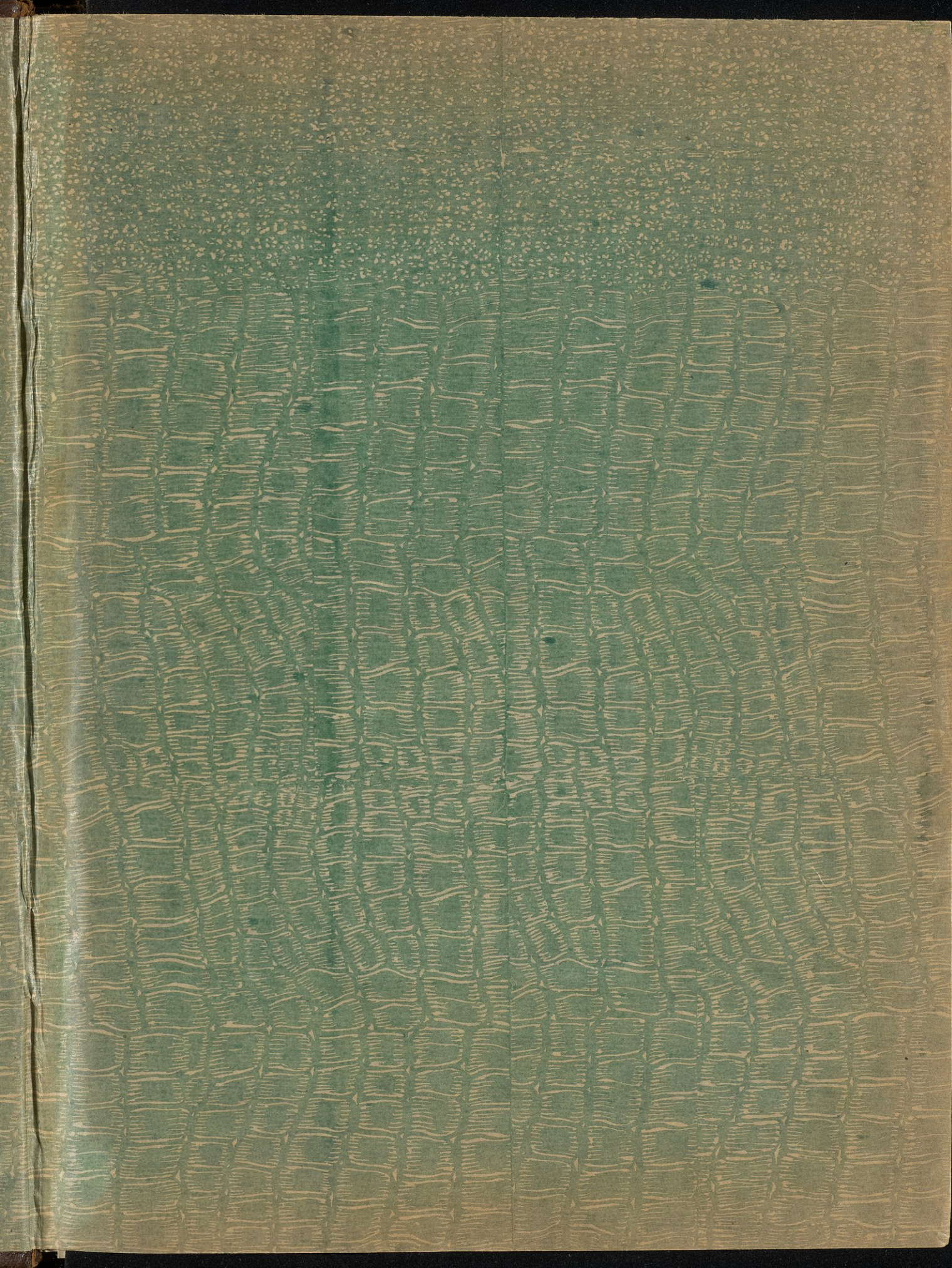
صفحة	صفحة
الى سنة ١١٠٠) — عهد محمد	٢١٦ مقاتل الغوري ومقدمات الفتح
الثالث وامراء الاقطاعات وقتن	٢١٨ صلات العثمانيين مع المماليك ووقعة
٢٥٠ عهد احمد الاول وفنذة ابن جانبولاذ	مرج دابق
وغيرها	٢٢٠ قوة الغالب والمغلوب وغنائم
٢٥٥ الامير نجر الدين المعني وآل شهاب	الغالبين واضطراب البلاد
وقتن	٢٢٢ دخول السلطان سليم حلب ودمشق
٢٥٧ عهد مصطفى الاول وعثمان الثاني	٢٢٣ مقابلة امراء البلاد سلطانهم
٢٥٨ عداء على الفرنج وقتن داخلية	الجديد وتغير الاحكام
٢٦٠ حملات على الامير نجر الدين المعني	٢٢٥ السلطان في دمشق وفي الطريق
وغيره	لفتح مصر
٢٦٢ القضاء على الامير نجر الدين المعني	٢٢٧ فتوق وغازات وتأذي السكان
٢٦٥ فنن في الساحل	٢٢٩ محاسن السلطان سليم ومساويه
٢٦٧ ابراهيم الاول وسفاهته	ومهلكه
٢٧٠ فننة وال اخرق في حلب	٢٣٢ خارجي خان اولاً وثانياً
٢٧٢ محمد الرابع وصدارة كوبرلي	٢٣٤ طبيعة الدولة العثمانية
٢٧٧ عهد سليمان الثاني والحكم على	٢٣٧ كوائن داخلية وامراء المقاطعات
الخوارج	٢٣٨ مهلك السلطان سليمان وتولي سليم
٢٨١ (العهد العثماني من سنة ١١٠٠)	السكبير
الى ١٢٠٠) — حال الشام	٢٣٩ عهد السلطان مراد الثالث وحملات
اول القرن الثاني عشر .	على ارباب الدعارة
٢٨٤ دور احمد الثاني وقتن	٢٤١ بنو عساف وبنو سيفا وابن فريخ
٢٨٥ دور مصطفى الثاني وانقراض	وخراب البلاد
دولة بني معن	٢٤٣ حالة البلاد في الحكم العثماني
٢٨٦ عهد احمد الثالث وسياسة الدولة	٢٤٧ (العهد العثماني من سنة ١٠٠٠)

صفحة	صفحة
٣٠٠ سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته	مع من ينكر الظلم ووقعة عين داره
٣٠٣ حملة ابي الذهب على الشام	٢٨٨ فتن ومظالم مستجدة وظهور آل
٣٠٧ عهد عبد الحميد الاول ونعمة اخبار	العظم
ابي الذهب	٢٩٠ عهد محمود الاول
٣٠٩ خاتمة ظاهر العمر وولاية حلب	٢٩٣ فتن ومشاغب
٣١٣ اولية الجزائر	٢٩٨ عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث
٣١٥ الحكم على القرن الثاني عشر	وبعض الاحداث في ايامها









COLUMBIA UNIVERSITY



0026813637

956.9
K9654
v. 2

OCT 18 1957

